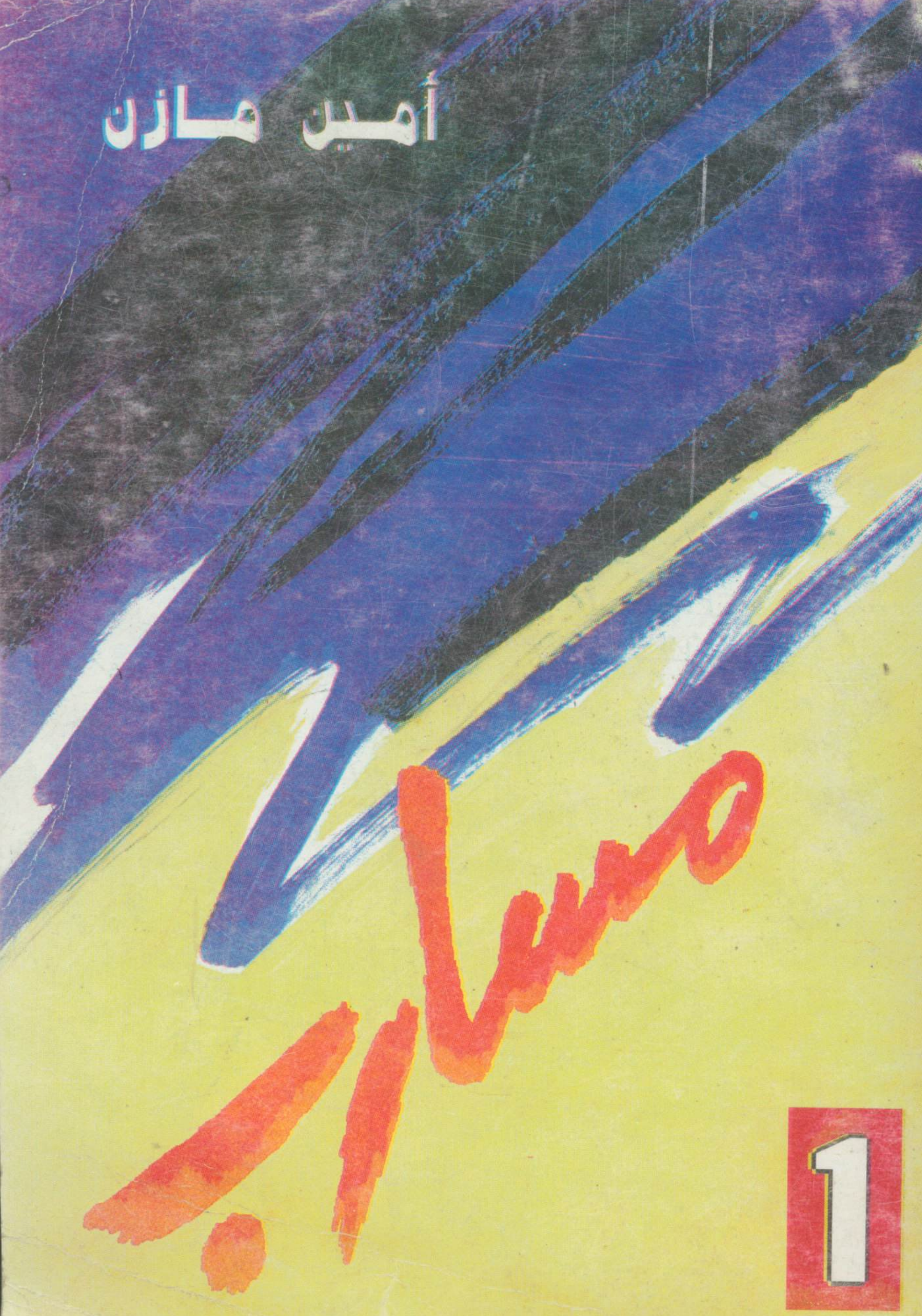
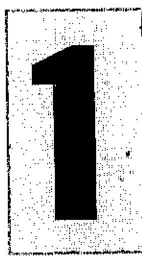

أمين مازن
مسارب
1

أمين مازن



أمين مازن

مسارب 1

الايداع والتسلسل

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية ـ بنغازى : 3372 / 1998

التنضيذ والرقن الاليكترونى : ادارة التجهيز والطبع بالمؤسسة العامة للصحافة

الطبع : مطابع الثورة العربية ـ طرابلس

منشورات : مــــازن

الغلاف : الفنان محمد رضا

الإهـــداء

لمن شكلت حياته وأحاديثه النواة الأولى لهذا السفر

الى الوالد الشيخ المختار

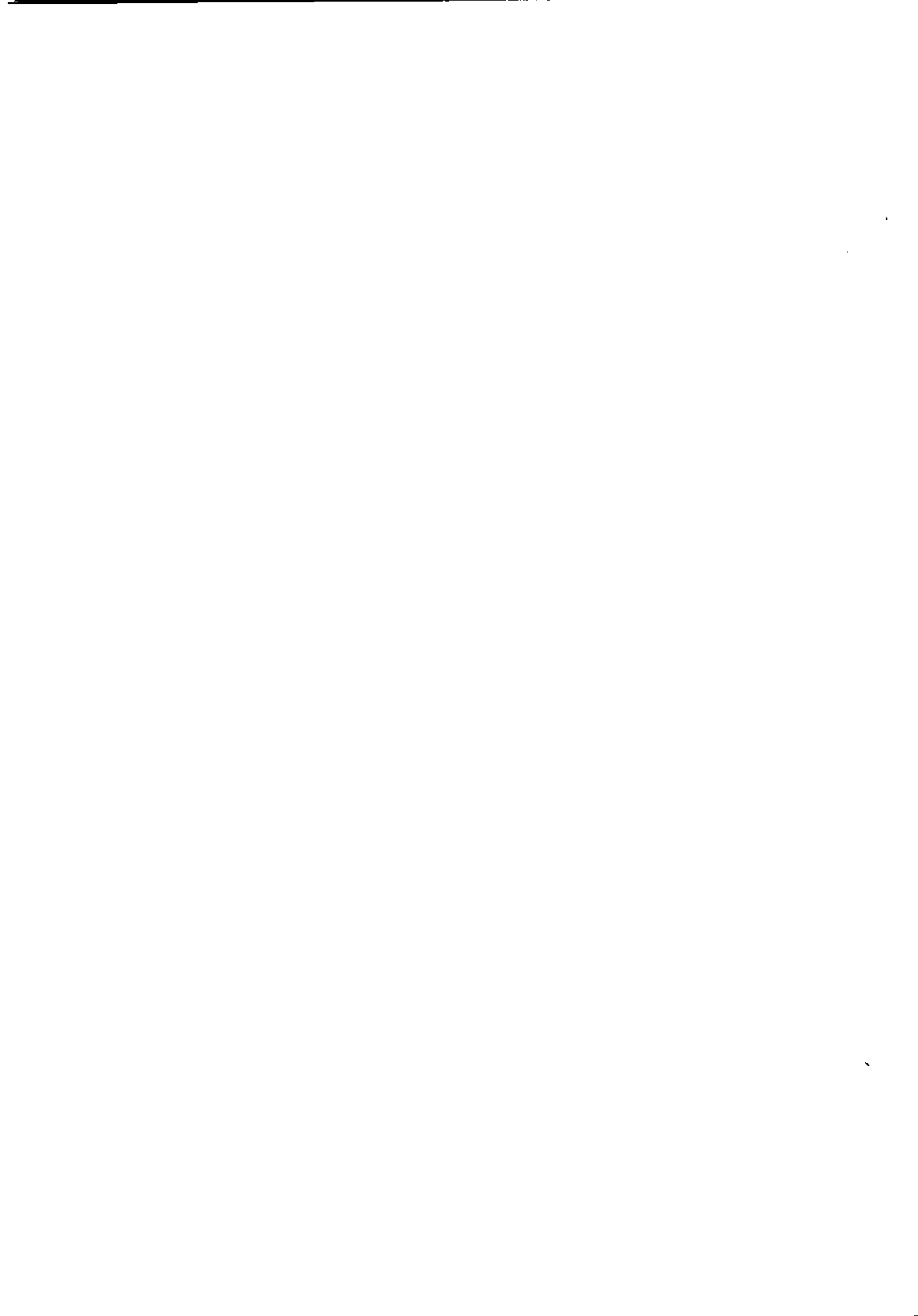
عهداً بالتزام هذا الطريق الصعب



يقولونَ لي فيكَ انقباضٌ وإنَّما
رأوا رجُلاً عن موقفِ الذُّلِّ أحجَما
أرىَ الناسَ من داناهُمُ هانَ عندَهمْ
ومَنْ أكرَمتْهُ عِزَّةُ النفسِ أُكْرِما
ومازلتُ مُنحازاً بعِرْضيَ جانباً
من الذَّمِّ اعتدُّ السلامةَ مَغْنَما
إذا قيلَ هذاَ مشْربٌ قلتُ : قد أرىَ
ولكنَّ نفسَ الحُرِّ تحْتَمِلُ الظما
وماَ كلُّ برقٍ لاحَ لي يستفزُّني
ولا كُلُّ أهلِ الأرضِ أرضاهُ مُنْعِما
ولَمْ أقضِ حقَّ العِلْمِ ، إن كانَ كُلَّماَ
بداَ طمَعٌ صَيرتُهُ لي سُلَّما
ولم ابتذِلْ في خدمةِ العلْمِ مُهجتي
لأخدمَ من لاقيتُ لكنْ لأُخْدَما
أأشقىَ به غرْساً وأجْنيه ذلَّةً
إذنْ فاتِّباعُ الجهْلِ قد كانَ أحْزَما
ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوه صانَهمْ
ولو عظَّموهُ في النفوسِ لعُظِّما
ولكن أذلُّوه جِهاراً ودنَّسوا
مُحيَّاهُ بالأطماعِ حتَّى تَجَهَّما

« القاضي الجرجاني »★

★. أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني (ت 392 هـ . 1002)
صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه ».



بالامتنان كله وبالتقدير كله أسجل موفور الشكر والعرفان للأخوين الكريمين : الدكتور محمد أحمد وريث الذي رافق الإنجاز مراجعة وتجويداً ونصحاً دؤوباً ، والفنان الشاب عادل بلعيد شيتاو الذي اختص بالنواحى الفنية بالكامل ولم يدخر أى جهد في الخصوص .



تـوطـئـة

د . عبدالله ابراهيم

1

يتركب نص (مسارب) لأمين مازن من مكونين اساسين جرى التهجين فيما بينهما، بكثير من الحذق والدراية، وهما : السيرة والتاريخ، وظلا متلازمين في حوار شفاف بحيث تحكما في مسار النص الى نهايته، وهذه المسارب تحتفي بالذات والمكان والتاريخ، وما النص الا عبارة عن ثلاث دوائر، تؤطر بعضها وتحتويها، وتتداخل فيما بينها في الوقت نفسه، دائرة الذات التي تتجلى من خلال شخصية الطفل الذي يصبح فتى ثم شابا، ودائرة المكان التي تتجلى من خلال المدينة، ودائرة التاريخ التي تتجلى من خلال البلد، وثمة خيطان يوصلان هذه الدوائر ببعضها من الداخل هما : التجربة الذاتية الاعتبارية للمؤلف، ثم التجربة التاريخية الحديثة لبلاده، وهما تجربتان تتمازجان في نوع من الوحدة والاطراد، وهما محكومتان بنوع من التحول الذي يأخذ في الاعتبار الذات والمكان والتاريخ، فالطفل ينتهي شابا اثر انفصال طبيعي عن الاسرة، والمدينة تفلح في ان

تنفصل اداريا، والبلد يستقل ويكتسب هويته الخاصة به، هناك تساوق وتناغم في الحركة الداخلية لكل هذه العناصر الدلالية الفاعلة في سياق النص بحيث يغذي كل عنصر الاخر، ويضفى عليه اهمية خاصة.

2

ينتظم هذا النص مع العالم الذي يقوم بتمثيله في علاقة مزدوجة قوامها: الثبات والتحول، فهو ينفتح في البداية على عالم ساكن خامل، منسي، ويصار الى التعريف بذلك العالم بوساطة نمط من السرد / الوصف الموضوعي من خلال التركيز على الخلفيات الزمانية والمكانية للمدينة المهمشة والمرمية بعيدا وخارج اى اهتمام، وسرعان ماتظهر بوادر التحول حينما يظهر الاجنبي في افق المدينة والبلد، فحضور الاخر يوقظ الحياة، ويحررها من نسقها التقليدي الذي يتحكم بها، وبذلك يبذر المؤلف بذور صراع بين طرفين وتقليدين ومنظورين وارادتين، صراع يظهر حينا، ويتوارى حينا في تضاعيف النص الى نهايته، لكنه يفضي الى نتيجة مهمة، فبسببه يخرج كل شئ عن منواله، ويندرج الناس في علاقات خدمية لم تكن شائعة من قبل، وكما يصرح المؤلف فقد (أتقن القوم كل هذه المهمات الخدمية، وكانت يومئذ تغييرا انقلابيا في اسلوب الحياة)،

وتطرد حالة التحول هذه من خلال المؤثرات الخارجية فتترك بصماتها الواضحة والعميقة في حياة الطفل والمدينة والبلد..

3

يصار التركيز على التجربة الذاتية لطفولة المؤلف وشبابه، ويستأثر الجانب التربوي، داخل الاسرة وخارجها بالاهتمام الرئيسي، فثمة اقصاء متواصل للبعد الحي الداخلي للشخصية، ومن هذه الناحية فالنص يتجاوب مع تقاليد فن السيرة الذاتية العربية، ذلك الفن العريق الموروث الذي اهتم به المفكرون والادباء والفقهاء، وأرسوا فيه تقاليد صارمة تطمس الجانب العاطفي والحسي، وترفع من شأن الجانب التربوي والتعليمي، فالتجربة الذاتية في الادب العربي القديم إنما تقدم للاعتبار بها، بوصفها خلاصة حياة، ولايلتفت اليها بوصفها نموا حسيا ووجدانيا لصاحبها، ووسط هذه الانظمة التي لاتسمح بالبوح، تتشكل معالم التجربة الذاتية في هذا النص، فيظهر الطفل / الفتى / الشاب على خلفية من الاهتمامات الواضحة بالاسرة ومرجعياتها الدينية، ومن خلال ذلك وعبره يتم التعرف على العالم، وتتم ملامسته، وفيما يبدأ وعي الطفل بالتشكل يبدأ الاحساس بضيق المكان، وتتدخل ارادة الاخرين في تقرير مصيره، فيرى في نفسه انه محكوم بقوى اخري، ومن ذلك

المفارقة التي تكشف له نوعا من التناقض، فالمدارس المدنية تستقبل اولئك الطلاب الذين اخفقوا في دراساتهم الدينية، اما الذين برعوا فيها، حفظوا النص المقدس، فمكانهم الكتاتيب والمساجد، ولكي يتم الالتحاق بتلك المدارس، فلابد من ادعاء الاخفاق في الدروس الدينية، مع تحمل كل التبعات الاجتماعية لذلك، هذا الامر يحول دون التحاق الفتى بالتعليم المدني الا في مرحلة متأخرة ، ذلك ان الاسرة كانت تريد اعداده ليكون أزهريا ، على ان انفصالين حاسمين يحدثان تغييرا مهما في حياته :

الانتقال الى التعليم المدني ومغادرة مدينته المهمشة الى طرابلس ، وذلك بعد مرحلة من القلق والتوجس . وفي هذا العالم الجديد ، والوضع الجديد ، تتفتح ذهنية الفتى الذي اصبح شابا على اشياء كثيرة ، وحينما ينجح في الاندماج بهذا العالم ، ويكون جزءا منه يلجأ النص الى التعتيم على المستوى الجواني للشخصية ، بحيث يقيد ذلك المستوى ، ويحجبه ويسكت عنه ، وباستثناء اللقاء العابر بالنادلة الايطالية في الطريق الى بنغازي ، والاشارات المموهة السريعة حول عالم النساء في طرابلس ، وهي لمحات تظهر اشبه بخفقات مكتومة وسط نص صارم يتهيب من الكشف عما هو سري ، فان النص يشغل بتوصيف العالم اليومي لشخصية الشاب الذي ينهمك بامرين ، اولهما الالتحاق بعمل وظيفي في الجهاز التشريعي ، وهو امر

يستأثر باهتمام المؤلف ، فترد بصدده تفاصيل كثيرة ، وثانيهما اعداد النفس لمشروع فكري - ابداعي ، ويختتم هذا الجزء من النص وسط السيل الجارف للاحداث العامة، بما يوحي بان المؤلف سيستأنف الحديث عن كل ذلك لاحقا .

4

يزخر (مسارب) بكثير من الاشارات والاقتباسات الثمينة التي تجعل منه ذخيرة حية للمأثورات الشعبية من اشعار وامثال وحكم وحكايات

كما انه يولي اهتماما بارزا بالطقوس والتقاليد الاجتماعية والدينية ، ويفصل في الطرق الصوفية كالعروسية والاسمرية ، الى ذلك فهذا النص بتشعباته ينطوي على تحليلات لكثير من الاحداث التاريخية والظواهر الثقافية والاجتماعية ، فهو يشتبك بها وصفا وتقويما ، بما يجعلها تشكل خلفية شديدة الاهمية للتجربة الذاتية التي يحرص النص على تقديمها وهي متداخلة مع تلك الاحداث ، ومتصلة بها على نحو شديد الاتصال .



1

شواهد كثيرة تلك التي تحذو بالناظر الى القول بأن المنطقة التي تقع في ذلك المنخفض الواقع ما بين المناطق الشمالية والجنوبية فالشرقية والغربية عندما كانت القوافل وسيلة الاتصال الوحيدة وطريقها عصبهم القوى قد اصبحت الآن في طورها لتكون مشروع مدينة جديدة بجهود واحاتها الثلاث ومن أوسطها موقعا واكثرها اكتواء بنيران قنابل الاحتلال الايطالي الذي اقتضت حكمة الله ان ترجح كفته وتمكن له في الارض ردحاً طويلا من الزمن واستمرار فترة من فتراته المؤلمة الغادرة فكان ذلك بمثابة التحدى الجديد للعزلة وبعد المسافة . وكثبان الرمال المترامية وسلاسل الجبال القاهرة وسط يقين لا يتزعزع بأنَّ القباب التي شيدت لبعض أوليائها الصالحين والشرف الذي ينتسب اليه بعض السكان والذي حفظها من شرور كثيرة وغوائل مريرة لابد أن يهب لنجدتها كلما ساءت الأحوال ،وأنَّ الرقاب التي علقت على أعواد المشانق أخذت أرواحها الطاهرة في الذود عن القوم بطريقة مختلفة وأنَّ ثأر فاطمة عثمان التي نادت به وهى ترى الأبرياء يشنقون قد غدا يُردُّ بأسلوب جديد وأن أثره بات يلمس جوانب كثيرة من حياة الناس على نحو أكثر تفتحا وهدوءا .

لقد مد الطريق من هنا شرقا إلى قلعة طوزا الأثرية وغربا إلى نبع الحمام الذي يتفجر دوما بالمياه العذبة النقية ،وصار من اليسير على السكان ان يتنقلوا بلا توقف ،وأن يحضروا إلى هنا صباح مساء فستة عشر كيلو مترا لا تساوى شيئا امام أى وسيلة من وسائل النقل وإن تكن هذه الوسيلة مجرد عربة يجرها حمار صحراوي ، أو عجلة كانت تنعت لزمن قريب ، برجل الشيطان فاذا بها الآن متاحة للجميع وتترجم إلى العربية من «بشكليط» إلى دراجة وتساعد العشرات على التنقل فيما يشبه السحر فتغدو حديث الناس جميعا . الشوارع التي مدت قبل مائة سنة في استقامة عجيبة شدت جميعها بأقواس متناسقة أضافت شكلا هندسيا مشوقا ووفرت بنية معمارية جميلة قوامها تلك المربعات التي كونت كتلة متراصة وقوية وجذابة وشكلا هندسيا مُبهرا .

واجهات البيوت المشيدة من الحجر الطينى المحلى ،تم طلاؤها باللون الأبيض ،الأبواب المصنوعة من جذوع النخيل تم تزيينها بأشكال زخرفية كونت طابعا فنيا مميزا ، أبدع فيه اولئك الفنانون الذين تفتقت عبقرياتهم الفنية ، في ذلك الجو العائلي النقي الذي بدأ يسود الحياة ويشكل سيرورة ايقاعها اليومي وينشر في حناياها جوا من التعاضد المطمئن والتعاون الإنساني المبهج والمتجاوز لكل الأحداث السيئة التي مرت بالمنطقة وكدرت صفو عيشها لفترات طويلة .

كثيرون أولئك «الأسطوات» الذين تنادوا لهذه المهمة الفنية والرسالة الإنسانية المتمثلة في إعادة طلاء الواجهات والأبواب والأسقف القديمة وزخرفتها وإعادة ترتيبها وزيادة جاذبيتها يتقدمهم جميعا الأسطى عبدالسلام ذلك الرجل الذي استطاع أن يصمد أمام «الثمانين» وظل يبذل في هذه المهمة جهودا بلغت حد المعجزة حتى إن المنية قد انشبت أظفارها فيه وهو يمارس عمله هذا متطوعا حين كان عبدالوهاب الأشهب يترسم خطاه ويستفيد من تجربته ويحرص على أن يكون دائما إلى جانبه لأداء هذه المهمة ، غير ملتفت لأى شكل من أشكال ا- ساسية العشائرية أو أي أثر من آثار التناحر البغيض ، عندما بذل مالديه من مهارة في الخط والزخرفة ومن جمال الصوت في الغناء والطرب ، ومن قدرة معمارية في إعادة البناء والتشييد وصون القديم المتميز حتى يمكن القول إنه كان بحق فنان المرحلة والمنطقة بلا منازع .

ومع أن المواطنين قد تعرضوا قبل فترة قصيرة لحملات ن الاضطهاد وتجرعوا كؤوسا مترعة من المرارة وواجهوا أشكالا لاحصر لها من العدوان بدءا من القتل شنقا ، وبواسطة الرصاص ، ووصولا إلى التهجير الجمعي في معتقلات أقيمت خصيصا في كل من مصراته والخمس ، وبطريقة يصعب وصفها وقد يتعذر تصديقها يوم أن ثبتت صلتهم بمقاتلي معركة قارة عافية إحدى آخر وأبرز معارك المقاومة فأعدم منهم في يوم واحد ما

يزيد على العشرين اثر محاكمة صورية جرت وقائعها في ساعات قليلة ونتج عنها استشهاد أولئك الرجال الذين جمعوا بين الأب وابنه والشقيق وشقيقه مشكلين شريحة متميزة من العلماء والأعيان والعدول ممن لهم أطفال ينتظرونهم وعرائس دخلوا بهنّ لتوهم وخطيبات ينتظرن إتمام اجراءات العرس ، إنها ألوان من الظلم والقهر تألم لها العدو قبل الصديق . ولقد افلح القوم رغم ذلك ، في كتمان الحزن والتعامل مع الحياة الجديدة بطريقة متطورة ، ظهرت ملامحها في الاستقرار وتنوع مصادر النمو الذي مافتئت آثاره أن ظهرت ولمست جوانب كثيرة من الحياة إذْ مع آلاف المستخدمين الذين جرى جلبهم إلى دواوين السلطة ومعسكراتها ومختلف مشاريعها نشأت حركة تجارية نشطة قادها نفر من أولئك الذين جاءوا من كل مكان بهدف الاستفادة من الانفاق مما استوجب الأخذ باساليب جديدة تمثلت في جمال العرض وحسن التنسيق وتوظيف الامكانيات المحلية والموارد المتاحة في كل مجال والخروج بالناس من رؤية القرون الوسطى إلى اقامة المعاصرة الكاملة وفقا للمعطيات القائمة والامكانيات المتوفرة .

لقد أدت هذه الإجراءات إلى هدم بيوت كثيرة استحال تعويض الكثير منها بسبب ضيق المساحة المخططة بدون شك إلاّ أنها أذنت بشق شارع واسع حديث ربط بين المزرعة التي أنشئت عندما حفر بئر ارتوازي أمكن بواسطته لأول مرة ريّ الأرض من

دون الاعتماد على الدواب كما كان معروفا في الماضي ، فخططت حول البئر مزرعةِ حديثة غرست بها أعداد كبيرة من الأشجار المثمرة وأصناف النخيل ونباتات الاعلاف للابقار والخيول التي جلبت بكثرة ، ربط هذا الشارع بين المزرعة والمطار الذي كان الأول من نوعه في التراب الليبي مثلما كان الطيران قد جرب في الحرب لأول مرة في معركة قارة عافية ،لكن الشارع كفل من ناحية أخرى تحقيق مهمة رتبت على ما يبدو سلفا ومن غير المتيسر إدراك سرها بسهولة ، إذ إنه قد فصل بين المدينة الناشئة التي يسكنها الأهالى والحي الجديد الذي استحدث لأول مرة وخصص للإيطاليين وأحيط بسور كبير شمل أيضا مقار السلطة والخدمات التي كان معظمها يهم سكان ذلك الحى اولئك الذين كانوا يشكلون نمطا غريبا في سلوكهم ولباسهم وعلاقات بعضهم ببعض ، وبالذات اختلاط رجالهم بنسائهم وأبنائهم ببناتهم والعديد من طقوسهم ، خاصة حين يحتشدون كل مساء أمام تلك السارية المرتفعة التي تحمل العلم الفاشي آخذين في عزف أنغام ، غدا الكثيرون لشدة ما سمعوها تُردد يحفظون كلماتها وإن يكن البعض لايعرف معانيها ، وربما ذهب البعض الى إعادتها حين لم يكن مفهوم الوطن واضحا لدى الجميع وربما اعتقد آخرون أن الاستعماريين قد كتب لهم البقاء بشكل أبدى .

إن مواقف الناس تختلف إزاء هذا المنظر ، فسيدى مسعود

الذي يعود من مزرعته مترجلا خلف حماره الاسود المحمل بما أمكنه جمعه من حطب أو خضراوات أو أى شئ يمكن جلبه كل يوم وهو يضع نصب عينيه ذكرى شقيقه العربي وصهره الشغيوي اللذين تم شنقهما ضمن من شنقوا لا يملك إلاّ أن يغض النظر عن أولئك الغزاة وهو يراهم يشقون الطريق رجالاً ونساءً وهو يعتقد أنه يهمس في حين تكون كلماته مسموعة لكل من يسير إلى جانبه وربما حتى بعيدا عنه :

- لا حول ولا قوة الاّ بالله

اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

اصرف عنا الأذى إنك على كل شئ قدير

اعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، من شر ما يمشي على الأرض ومن شر ما يخرج منها ، من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يصعد إليها .

إلى آخر هذه التسابيح والتعاويذ التي يرددها العلماء وكبار المتصوفة كلما لاح لهم مكروه من إنس أو داته لكن الشندولي الذي الحق لتوّه بالعمل آذناً بالمدرسة وألمّ بشئ من اللغة الايطالية ، امكنه من خلالها أن يعرف شيئا عن روما وبقية المدن الإيطالية ، تحلوله كثيرا رؤية الإيطاليين وربما اقترب منهم وربما حاول أن يتحدث للإيطاليين عن روما لدرجة أن بعضهم يضيق بما يعيده من معلومات بالنسبة لهم في حكم البديهيات .

وهكذا الأمر بالنسبة للآخرين كل حسب ظروفه الخاصة

ومايملأ ذاكرته نحو الطليان .

يتفرع من الشارع الكبير شارعان طويلان نسبيا ضيقان إلى درجة كبيرة ، تتخللهما الدكاكين المتراصة يطلق عليهما اسم الحارة الكبيرة والحارة الصغيرة ربما لوجود هذا الطراز الخاص من الدكاكين التي لاتتشابه مع غيرها بقدر ما تنفرد بشكل واضح وربما لوجود عدد من التجار اليهود والصاغة . بالإضافة إلى عدد من سكان المناطق والمدن الأخرى ، ممن تنوعت أصولهم وتعددت قبائلهم واختلفت مستوياتهم الاجتماعية وأعمارهم ووسامتهم إلاّ أنّ انتصارهم إلى المكان وتعاطفهم مع سكانه ليس خافيا بأى حال من الأحوال .

بعض المحال يديرها السكان أنفسهم كمحال البقالة وبيع المصنوعات الجلدية والتقليدية . فتزدان الواجهات بالنعال المحلية التي يطلق عليها اسم «البلغة» الرجالي و«البلغة» النسوية ، أو الريحية ، وهى التي تطرز عادة بالحرير والفضة ولها فنون جمالية خاصة ومعروفة يحرص على التفرد فيها عدد من الحائكين الذين خبروا فنها واتقنوا أنواعها والجهات التي تبتاعها ، وهناك أيضا السروج الجميلة وثياب الأعراس المختلفة التي تحاك هى الأخرى بالحرير والفضة ، خاصة تلك التي تصنع من القماش الأسود فتكتسب لونا متميزا للغاية وهى ثياب لا يعرف أحد من أين جاءت ولا كيف صممت ولا أى الواحات الثلاث أكثر قدما في صنعها . بيد أنّ الثابت هو أنها اللباس

التقليدي المفضل للجميع وأنها من أساسيات الاستعداد للزواج من قبل أهل الفتى والفتاة على السواء ، بمعنى أنّ أهل الفتى في معرض استعدادهم يجهزون ذلك الثوب وأهل الفتاة يجهزون من جهتهم كذلك والفارق الوحيد في مساحة النقشة ونوعها .

أما البعض الآخر من هذه المحال فيديره بعض اولئك الذين وفدوا من بقية أرجاء الوطن واضعين خبرتهم وقدراتهم ورؤوس أموالهم في خدمة المدينة الناشئة معبرين عملا لا قولا عن جميل تعاطفهم وصادق اهتمامهم بالناس .لقد تنوعت أصول هؤلاء التجار ، لكن انتماءهم للمكان كان واضحا وشدة انحيازهم لم يكن خافيا وقد ساعد ذلك على نشوء علاقات إنسانية غاية في الروعة والجمال عبرت عنها الصداقات الوطيدة والمصاهرات الكثيرة وجلسات السمر والمزاح الجميل الذي شاع بين الناس ودمج بينهم بطريقة هزمت الزمن وتجاوزت المسافات الشاسعة وخلقت مجتمعا كله حميمية وتعاطف ومساندة .

يؤدي هذان الشارعان إلى حي يتكون من «القربيات» أطلق عليه يومئذ اسم «الكامبو» خصص لسكن أولئك المستخدمين في السلك العسكري والذين جاءوا مرفوقين بأسرهم حين تم تشغيلهم بطريقة أو بأخرى أو بالترغيب والترهيب بالأصح على حد قول الأسلاف العظام فاصبحوا الآن يؤدون واجبهم في اتجاه مد الجسور مع السكان وخلق طراز جديد من المصالح وشكل مختلف من العلاقات الإنسانية التي تتحدى التناقض

وتتـجاوز العـديد من الملابسـات واختـلاف الأصـول والأعـراق ، تربط بين الشـارعين شـوارع أخـرى تتـفـرع منـهـمـا الأزقـة التي تنسب عـادة إلى عـائلات تقـليـدية لا يمكن تجـاوزها في الذاكـرة الشـعـبيـة حتى ولولم يبق منهـا أحـد وحل مـحلها سكـان جدد بواسطة الشـراء أو الإرث فـالشـهـرة دائـمـا للقـديم وإن تكن الأيام قد جاءت بآخرين لهم مـن الجاه مالهم ومن الـنفوذ مالهـم كذلك .

ان العلاقـة بين السكان تقـوم على البسـاطة وعـدم التكلّف ، تبـدو جليـة لمن يدخل ذلك الحي وخلعت الممارسـة الصادقة على إبنائه صـفـة الأسـرة الكبيـرة ، وبالـرغم من اختـلاف أصـولهم وتنوع قبائلهم بما فيها تلك التي عرفت شيئا من الشحناء وشاع بينهـا التناحـر فـتجـد المنحـدرين منها وقـد تخلصـوا من كل هذه المشـاعـر تجاه من جاورهم فـحين يـأذن الزمن بفـرح من الأفـراح أو تلـم يالقــوم نازلة من النوازل فـإن الـطابع الـذي يســود هو ذلك الذي يعرفـه المعنيون في مسـاقط رؤوسهم ولهذا كثيرا ما يعيش الناس طقـوس الفـرح لأكـثـر من مـدينة في يوم واحـد فـيـحـدث أن يشهـد المرء النساء وهن يسدلن شعورهن على رؤوسهن كـما هو مـعـروف في كـل منطقـة من تلك المنـاطق ويمكن أن يرى الرجـال وهم يحيـون جلسـات الكشك ويمكن أن يسـتمع إلى أغنية العلم التي تلقى من هذا وذاك فتشكل مفتتحا أو إنهاء للكلام .

الأطفـال أيضـا في هذا الحى يخرجـون في الغالب جـمـاعـات

ووحداناً ليشاركوا الآخرين لعبهم مضيفين إلى قائمة الألعاب المعروفة قديما العابا جديدة لم يسبق لها أن عُرفت بالواحات ولهذا يطلق الكبار على بعض الألعاب المستحدثة والتي لا عهد لهم بها على زمانهم (لعبة الكامبو) نسبة إلى التسمية الشائعة رغم أنها ليست عربية إذ ليس للاستعمال اليومي أى علاقة بها سوى الشائع .

لكن هؤلاء على كثرة عددهم وتنوع أصولهم كانوا يقدرون الكبار حق قدرهم وينهجون نهجا تربويا حسنا فلا يجر بعضهم بعضا إلى المشاجرات التي تحدث أحيانا بين الأطفال وهم في تقديرهم للكبار يأنفون من مناداتهم بأسمائهم المجردة وإنما يسلكون ذات السلوك الذي يأخذ به الأطفال ، لقد استوعبوا الواقع استيعابا كاملا وتخلصوا من كل ما من شأنه أنْ يعمق مشاعر الغربة ، النسوة أيضا لسن منفصلات عن الجيران بل على العكس من ذلك يضربن مثلا واضحا في الاتصال والمجاملة .

في الباحة المؤدية إلى «الكامبو» يوجد مبنى يحيط به العساكر وتعزله الأشجار الملاصقة للسور المرتفع الذي تعلوه الأسلاك الشائكة يطلقون عليه اسم «الكازيرما» أى الثكنة يخشى الاقتراب منه الجميع من يُدعَى اليه قد لا يخرج منه في أحيان كثيراً وقد خلعت عليه هذه الرهبة أسباب عدة فهو أول مبنى تم تشييده ومن دخله كثيرا ما يخرج بسر ما . في نهاية

الشارع إلى الشمال يوجد مبنى كبير يطل على شارعين ويفتح على كليهما أحد الابواب تدخله نساء إيطاليات أيضا باب هذا البيت حديدي على هيئة قوس وكذلك شرفاته أما الباب الثاني فقد صنع من الخشب وهو متواضع للغاية يدخل هذا البيت رجال كثيرون وتطل من شرفاته نساء يدخن السجائر ويمشين حاسرات الوجوه يصيح الحراس في وجه كل حدث يحاول الاقتراب وقد يمر أحد الجندرمة فيزداد الخوف وربما جاء طفل من أطفالهم حاملا سوط أبيه فيضرب به بعض الأطفال دون أن يكون من الممكن أن يرد عليه.

إن الأطفال في تلك الاماكن يكتفون بالتلصص من بعيد ولايصغون إلى ما يقوله الكبار بشأن أسماء تلكم النسوة وألقابهن وكذلك الأحداث الجارية وثمة طفل أو أكثر ينسبون إلى ذات البيت .

هذا المنظر العام يمكن للمرء أنْ يلحظه كل يوم بل لابد أن يلحظه فالشوارع تؤدي إلى مخارج محددة لامناص من سلوكها كيفما كانت الوجهة لأن المساءلة واردة لمن يخالف التوجه وليس ثمة ما يعصم المرء سوى سلوك الطرق البعيدة وفي أحيان كثيرة لا يكتفى بمنع المرور وحده بل يسأل المار عن سبب مروره ،إن المسافات طويلة للغاية بسبب هذا النظام ولكنها يسيرة بالقياس إلى المنع والمساءلة .

لقد عرف الناس يومئذ الكهرباء ذلك الاختراع العجيب

الذي وصل اليـهم جنبا إلى جنب مع الكيـروسين والتي كانت ذاتهـا تطورا في أسلوب الحيـاة الليليـة فإذا بالكهـرباء تنيـر الشـوارع وتمد إلى العـديد من البيـوت عنـدما أمكن للبـعض أن يسددوا مصاريف تلك الطاقة، لقد تغيرت أيضا أساليب البناء وطريقـة الطلاء ليس فـقط من خـلال المبـانى التي أنشـأتهـا السلطات يسكنها كبار المسؤولين الإيطاليين المفصولين بالكامل عن الجمـاهيـر وإنما من خلال إعادة بناء الجامع العتـيق الذي يتوسط الأحيـاء السكنيـة وأمكن بواسطتـه للجـميـع ان يروا أسلوب البناء الجـديد بمن في ذلك الذين لايطيـقـون رؤية هؤلاء العصاة .لقد اعيد كذلك تشييد بعض البيوت المصادرة على الطريقة الحديثة حيث شغلت من بعض العاملين في الحقل المدني من الإيطاليين وأصبح عدد الفنيين المهرة يزداد كل يوم وينعكس أثر ذلك في العديد من البيوت التى جرى صونها وحدث تغيير في استعمال المواد الأولية بشكل واضح ودخلتها كذلك مواد أخرى لم تكن معروفة في الماضي، كما اتسعت دائرة الخبرة. وساعدت على ذلك بساطة الحياة وبساطة العلاقات وتنافس القوم في ذلك تنافسا بيناً . سواء فيما يتصل بمستوى مقدرتهم الفنيـة. اذ برع عدد من الشباب براعة فائقة شملت مختلف التخصصات وسدت جميع النواقص والثغرات أو فيما يتصل بمستوى العمران إذا أعاد الكثيرون تشييد بيوتهم وتحديثها وقد نتج عن ذلك انخفاض في ساعات العمل انخفاضا بيناً فتوفر

للناس شئ من الفراغ أدى بالبعض إلي ارتياد أماكن اللهو المتاحة ، كان من أبرزها المقاهي التي انتشرت كثيرا وكانت تمثل أسلوبا جديدا أو مجالا غير معروف بالحياة ، كما اقتضى الحصول على تراخيص التجوال استخراج الصور «الفوتوغرافية» فأمكن الاقتراب من فن التصوير وساعد على تسجيل الذكريات وتخليد شئ من الخصوصية ومواجهة العدم ، وقد خففت الضرورة من غلو بعض المشائخ الذين طرحوا مسألة الحلال والحرام ، عند استحداث فن التصوير ورأوا فيه نوعا من محاكاة الخلق فاعتبر أمر السلطة ضمن الضرورة التي تبيح المحظور فضلا عن ذلك فإن المفهوم العام لدى الاغلبية يحتكم دوما إلى النية ، ومادامت النية لا ترمى إلى الإشراك فلا خوف من أى نشاط .

وهكذا توسط الميدان أكثر من محل للتصوير وهى محال امتلكها رسميا الإيطاليون وقام بالعمل فيها أبناء البلدة ، إلى جانب المصور ، وجد الاسكافي والحلاق ودخل نظام الغسيل والكي للملابس ، واتقن القوم كل هذه المهمة الخدمية وكانت يومئذ تغيرا انقلابيا في اسلوب الحياة .

لقد كان للظروف العامة تأثيرها بدون شك في سلوك الناس والارتفاع بمهاراتهم وتنمية قدراتهم وتفتح عقولهم في عديد الأمور حيث أصبحت تثبت في كل يوم أنّ أولئك الذين كانوا إلى عهد قريب لا مهنة لهم سوى الزراعة في إمكانهم ان يتقنوا

مهنا كثيرة لأن الزراعة بشكلها البدائى قاتلة ومرهقة بالرغم من أن منتوجها المتمثل في التمر ، قد أصبح الآن أكثر إثارة لطلبات المشترين الذين داوموا على شرائه وتصديره إلى طرابلس ممن تكونت لديهم فكرة جيدة عن أصنافه ومن ثم تحديد أسعاره فجاسوا خلال الديار وافدين من مدن عديدة عندما ثبتت صلاحيته في صناعات كثيرة ، وقد ساعد ذلك على نشوء شئ من العلاقات الجديدة بين الراغبين في شراء ذلك المنتوج وغيره من المواد والمالكين بالأساس تجاوزت مجرد البيع والشراء لتصل إلى مستوى المشاركة والارتفاع إلى آفاق أوسع من العمل الدؤوب الذي يتكفل بتحقيق الصالح العام على قدم المساواة أى وجد حد أدنى من الاتفاق المفيد للجميع .

وفي إطار من تبادل المعرفة وتنمية الخبرة واقتحام أشكال جديدة من النشاط من وجوه عدة وفي أكثر من ميدان ، توجه عدد من الأطفال إلى المدرسة التي بنيت في قلب الميدان وضمن برنامج الرد على الحملات التي قام بها النابهون من الليبيين المقيمين في الخارج لفضح ما يرتكب تجاه الشعب الليبي أولئك الأطفال الذين كانوا يواجهون محو الأمية وليس لهم من مقاوم سوى الكتاتيب القرآنية مما يسر على المدرسين الذين جاؤا من المدن الساحلية تعليم هؤلاء الطلبة ومن ثم تنمية قدراتهم على التحصيل .

لقد أحيط أولئك المَدرسون من قبل الأهالي والنابهين منهم

بالذات ، برعاية فائقة وحظوا باحترام واضح وكرم وفادة غير منكور وقد كانوا من جهتهم في الحقيقة من خيرة رجال التعليم قدرة وانبههم سلوكا واكثرهم مثابرة وعطاء .

إن شوق الاهالي والكبار منهم تخصيصا لمواكبة العلوم العصرية كبير لأنّ انعدام «الأفندية »لديهم كما يقال واضح في تلك الفترة وثمة إصرار على أنْ يعوض الشباب الجديد ما قد فات آباءهم الكبار .

إن الخبز أيضا لم يعد يصنع فقط بالبيوت ولكنه يخبز بواسطة أفران كبيرة كما تغيرت كذلك طرق الطهو ولم تعد تقف عند الممارسة البدائية إن سيادة الناس على واقعهم تحت الصفر بيد أن ذلك ليس من شواغل الأغلبية وربما حتى الأقلية جراء ماواجه الناس من متاعب متتالية فمايهم الناس في أحيان كثيرة هو واقعهم اليومي وهذا الواقع دخل عليه شيء من التطور ومن جوانب كثيرة فليست الأمور دائما جدية وليس مستوى الوعى شاملا للجميع لقد تغير الوعي على الأقل بالنسبة للحساسية المحلية وقد ظهر ذلك في توالى عودة كثير من الذين هاجروا عشية الزحف الإيطالي وانعدام القدرة على المقاومة ويبدو أن القوى الاستعمارية وشركاءها والسائرين في ركبها قد عملوا جميعا من أجل تلك العودة أى أن يعود هؤلاء من حيث أتوا حتى لا يشكل استمرار بقائهم بمصر خصيصا أعباء جديدة ، ويسبب في استمرار فرض بعض الالتزامات

الطارئة خاصة بعد أن أقرت فكرة الامتيازات الأجنبية بمصر والتي كانت خاصة بهؤلاء المهاجرين فعادت يومئذ إلى البلدة أسر معروفة : الدبرى ، قرينقو ، مازن ، بركوس ، عكة ، جعدان ، وقد أثار هذا الواقع حماس العديد في الأهالي الذين تجاوبوا مع الدعوة التي وجهت اليهم للدخول في القوات المزمع إرسالها إلى اثيوبيا حتى يمكنهم الثأر من إساءات الأحباش الذين سبق لهم أن رافقوا القوات الإيطالية الغازية وساموا المواطنين الليبيين سوء العذاب كما لو كانوا قد جاؤا وحدهم ولم يكونوا مرافقين لقوات الطليان ويعملون تحت إمرتهم يوم أن استبيحت الديار وانتهكت الحرمات ولم يرقب اولئك الظلمة في المواطن الليبي إلاَّ ولاذمة . ويسعى البعض الآن الى طرح الأمر بشكل يهدف إلى صرف الأنظار عن المسؤول الحقيقي لشحذ الهمم للغزو من ناحية وللتخلص من تبعة التاريخ من ناحية أخرى ، فبدأ الأمر وكأنه في نظر البعض فرصة مواتية لرد ثارات قديمة وذلك لأن هؤلاء قد بهرتهم بعض المتغيرات وأثرت في رؤيتهم بعض التطورات خاصة أن التعبئة كانت قوية بالإضافة إلى بعض الاستقرار النسبي وتحسن مستوى الخدمات مما أسال لعاب البعض وصرف الأنظار عن المسؤول الحقيقي عما أصاب الناس من مظالم منذ فجر الاحتلال الايطالي .

إنها طبيعة المرحلة التي كثيرا ما تؤدي إلى شيوع بعض الجهويات وتسويد المنطق القبلي والتفكير في علاقات الدم قبل

غيرها فتكون الغلبة للناحية العشائرية دون سواها والتي تدفع بكل من يلج بابها ويتبنى منطقها إلى الامعان في الذاتية وعدم التوقف الجاد أمام كل ما هو عام وجوهري وجدير باهتمام الجميع.

وبالمقابل لقد قوى الإحساس بالمواطنة وأثرت المشاعر الناتجة عن ذلك إلى التوقف أمام موضوع في غاية الحساسية وذلك عندما كتب القاضي مقاله الشهير الذي كرسه لمدح إيطاليا وأجرى مقارنة عن أحوال البلدة بين الأمس واليوم فنعتها في امسها بنعوت سيئة أثارت مشاعر الناس واستفزتهم ودفعت القادرين منهم على الكتابة والتفكير فى المبادرة بالرد في الخارج والمقيمين إلى عقد اجتماع لكل الحساسيات في بيت الشندولي ومن ثم التوجه الى «الكولونيل» وطلب مقابلته عن غير طريق المترجم الذي توجسوا خيفة من عدم أمانته في الترجمة لصداقته الوطيدة مع القاضي فووجهوا بموقف عدائي كان له أثره في افساد مخططهم ومباغتتهم بتهم كان لها أثرها في تغير مجرى الأمور وقلب ظهر المجن كما يقولون .

كان القاضي حديث العودة من مصر والتخرج من الجامع الأزهر الذي كان أهم مكان يتمنى الناس الذهاب إليه والعودة منه بالإجازة المعتبرة التي يدعونها العالمية ويدعون احداها بعالمية الغرباء والأخرى مطلقة وتمنح عالمية الغرباء للقادمين من خارج مصر وهى كما الاسم لاتخضع للتشدد الذي تفرضه نظم

التعليم الصارمة ولكنها غير معروفة بهذه الدقة إلا للقلة والقلة القليلة .

وكان كذلك حديث التخرج وحديث الولوج إلى باب القضاء، يتقد حماسا وتوثبا ويضع نصب عينيه على مايبدو منصب الإفتاء الذي كان محط أنظار أعداد لابأس بها من الذين عادوا إلى البلاد بعد غيبات متفاوتة طولا أو قصرا بمصر ، مرتدين «الجبب» الطوال واضعين على رؤوسهم العمائم يتحدثون باللهجة المصرية ويكتسبون من أزيائهم المميزة سبيلا للوجاهة والعمل بين سلك القضاء ومشيخات أخرى وقد أمضى بضعة أشهر بمرزق لزوم التعيين ، وهناك تزوج من إحدى الخلاسيات زواجا لم يدم طويلا وبمجيء المارشال بالبو والى طرابلس إلى هناك كممثل لموسوليني واللقاء الذي أقيم للقضاة وصل ذلك القاضي الشاب فبدأ طريقه بمدح المستعمرين الطغاة وكيل المديح المبالغ لهم وبالمقابل شتم السكان الآمنين ، لقد كان متكلفا ذلك والهدف دائما منصب الإفتاء وهو أعلى منصب يمكن وصوله وكان الطريق إليه يبدأ في زمن السيادة التركية باتباع مذهب أبى حنيفة لأن الأتراك كانوا يتبعونه ويعملون به أما في زمن إيطاليا فقد اصبح الوصول يأتى بالمدح وربما بالإفتاء بجواز تقلد الجنسية الإيطالية .

وبما أن القوم كانوا مدركين لبعض هذه الحقائق فقد رأوا من جانبهم إمكانية الرد ، لأن الأمر لا يتصل بإيطاليا ذاتها ولكن

المؤامرة تم إنجازها بيسر حين اعتبر الموقف ماسا بالسلط الإيطالية ولبس موجها إلى القاضي ومن ثم كان قرار التأديب لهم جميعا يجلدهم على مرأى ومسمع من الناس ، فشمل ذلك كل الذين حضروا الاجتماع : مشائخ المحلات وبعض الأعيان وصاحب البيت الذي وقع فيه الاجتماع ولم يستثن من ذلك سوى خطيب الجمعة الذي طلب المحاكمة بطرابلس فصار لزاما أن تستبدل العقوبة بالإقامة الجبرية .

إن الموقف لايتصل بالإيطاليين بقدر ما هو جهوى للغاية ولكن متى كان الهم الجهوى مفصولا عن الهم العام ومن الذي يستطيع أن ينكر بأن كل المواقف الكبيرة كانت بدايتها صغيرة وتم تطويرها مع الزمن أليست كل قضايا التاريخ الكبيرة ومواقفه الحاسمة قد بدأت في أول الأمر محدودة وأن المتلقي دون غيره هو الذي ينهض بمسؤولية التطوير اللازم والشمول الضروري .

هل كان غومة المحمودي على سبيل المثال في بداية حركته المناوئه للاتراك والتي ما تزال حديث الناس جميعا ومثار إعجابهم وتقديرهم أكثر من إنسان مل تسديد الضرائب وقرر أن يتمرد على السلطة المحلية ثم أخذ في التطور شيئا فشيئا بواسطة الزمن ومن خلال مؤازرة الناس والتفافهم وتوسيعهم لأهمية الفعل ؟

لقد تم الجلد هذه حقيقة وغُيّر مختارو المحلات هذه حقيقة ،

كذلك ، واستبدل خطيب الجمعة ولكن تم أيضا ما أشعر الناس بوجود شئ من الانفراج إذ جرى نقل القاضي هو الآخر ولم يعد الخفير الليلي يمنع الناس من النداء لصلاة الفجر خشية التأثير على نوم «الكولونيل» واستمر الاحتفال بمختلف المناسبات الدينية بما فيها التي لاتخلو من رمز سياسي وتتفرد بها المنطقة دون غيرها كما أصبح في مكنة الناس أن يدافعوا عن أرزاقهم حين يهددها السُّراق غير معتمدين على حماية الكرنبييري حتى إن مجموعة من الرجال تنادت ذات مساء وتوجهت إلى حطبة «الودى» الكائنة شمال البلدة حين تكرر السطو على نخيلها حيث تمت مفاجأة أولئك السُّراق والإمساك بهم متلبسين بسرقاتهم ومن ثم ضربهم شر ضربة وإجبارهم على تسليم كل التمور المسروقة ولم يُطلقوا إلابعد أن تعهدوا بعدم تكرار جريمتهم وجميعهم كانوا يعملون في الأجهزة الرسمية ، والسبب أنّ الأجهزة لاتبيح لهم السرقة كما أنّ السلط غدت من جهتها قادرة على التفريق في أشياء كثيرة ولم يعد متاحا لأحد أن يتجاوز حدوده .

كانت الحياة أشبه ما تكون بخلية النحل يكمل المتساكنون حياة بعضهم بعضا ونشاط بعضهم بعضا ، الحرفيون يقومون بما يعهد اليهم على أحسن وجه ، الفلاحون يضاعفون انتاجهم ويقدمونه للسوق بطريقة منظمة وأسعار معقولة ،المستخدمون ينفقون رواتبهم في الحصول على مايعين لهم من احتياجات .

ووسط هؤلاء وأولئك وجد الفقهاء والوعاظ مكانة مرموقة ومستوى من العيش كريما للغاية من دون الإلتفات إلى رواتب السلط التي بخلت بها على أمثالهم ، بعض هؤلاء كانت لهم حرفتهم التي يتعيشون منها مثل حياكة الجلد التي برع فيها الحاج فرحات والمرابط العربي والفقيه الأزهري والفقيه المرموري والحاج الغليظ والأسطى ابن خليفة وكذلك الزراعة التي امتهنها الشيخ المختار والفقيه الغول والبعض الآخر توقف عند الصفة دون غيرها ، لقد كان حجم الانفاق العام يسمح للخيارين الاتجاه إلى السلطة والسعي لشئ من فوائدها ، أوالاكتفاء بالاعتماد على الذات بعيدا عن أى ارتباط رسمي .

حتى التمائم التي يتبرك بها البعض صارت حرفة يعوّل عليها وسط هذا الكم الهائل من الناس الذين أوجدوا بحضورهم جميع مايزخر به المجتمع الليبي من رؤى جسدها بمقدرة شديدة ذلك الزخم الكبير من البشر فكل الأشياء مطلوبة ، البلغة البلدي تغرى الرجال والنساء ، الثوب الحريري له بريقه وجماله ،كل البيوت الزائدة أجرت لأولئك القادمين وأصبحت تدر على الناس دخولا ممتازة امكن بواسطتها سد التزامات كثيرة حتى لم تعد هناك -ولا مبالغة في القول - قطعة أرض واحدة من الممكن استغلالها ، ليس ذلك لأن الاراضى منعدمة وإنما لأن الترتيبات الأمنية جعلت الأمورتسير على هذا المنوال . فعبر الشمال خلف القلعة الفخمة زرعت الألغام الخاصة بالمشاة

والسيارات وفي اتجاه الشرق يوجد المطار ومن الناحية الغربية زرعت الألغام كذلك ولم يبق في الحقيقة سوى الجنوب البعيد حين ينتهى السور الحاجز لمباني الايطاليين وتنتهى إلى جانبه المزارع الخاصة لتبتدىء بعد ذلك غابات النخيل التي أحيطت هى الأخرى بالألغام ، بعضها من زرع الايطاليين وبعضها الآخر من زرع الألمان حلفاء ايطاليا والذين يوجدون هنا للمرة الثانية ، كانت الأولى بواسطة الأتراك والثانية بواسطة الطليان وهم على أى حال غير محتكين بالسكان لكونهم لم يأتوا محتلين في المرتين كما أن قدرة هتلر على اجتياح أوروبا وفرت لهم بريقا خاصا لدى الناس فاعطوهم الاسبقية حتى الدعاية التي كانت تحملها الإذاعات عن مذابح اليهود لم تثر اهتمام الناس كثيرا فهم في أعماقهم ، وبصرف النظر عن بعض العلاقات الإنسانية مع تلك الطائفة ، يرفضون اليهود .

كان الزمن خطيرا على أى حال ، والتطورات الحياتية تتضاعف ويتكاثر حجمها كل دقيقة ،اذ لو لم يكن الامر كذلك ، لوقع التفكير في التوسع ذلك أن الواقع كان يسمح بتأجير كل شئ ويتيح أوسع المجالات لفرص الاستفادة عبر حركة البيع والشراء وتبادل المنفعة من جميع الطرق .

شرعت الطوائف الصوفية أو الزوايا تخرج لزيارة الولي الكبير «الحاج عمرو» الذي تقع قبته إلى جانب سى محمد العربي ، شمال البلدة ببضعة كيلومترات ، حيث كان الناس

يسكنون هناك قبل أن تداهمهم الرمال . وذلك منذ مائة سنة ونيف ، تلك الإقامة التي استمرت أكثر من اربعمائة سنة ، بدأت مع التغريبة الهلالية بمقتضى موافقة مكتوبة شملت محرث الطار يوم أن تم التفكير في الهجرة إلى بئر الزعفران قرب المنطقة المعروفة اليوم باسم «بوقرين» المأهولة آنذاك من قبائل الهيشة لولا أن الحاج حسين التيتبوي تاجر الرقيق المعروف وصاحب النفوذ الواسع مع سلطان مرزق، الرئاسة العليا للمنطقة، قد أفلح في الحيلولة دون تحقيق هذه الفكرة . وكانت حجته أنّ الانتقال يحتاج إلى إجراءات جديدة وموافقات مكتوبة على حين إن الإقامة هنا قد تأكدت بحكم الزمن والتاريخ والمصالح والإرادة القوية .

يكتسب الحاج عمرو مكانة عظيمة في الوجدان الشعبي ، فإليه تنسب كرامات وأفضال لا حصر لها شملت الأجيال الموجودة هنا منذ مئات السنين وهي بحسب الرواة ذات فاعليات كبيرة بالرغم من أنّ الأهالي لا يميلون إلى فكرة المفاخرة ببركات الأولياء بل إن عشيرة أولاد الحاج ذاتها التي تنتسب عرقيا إلى ذلك الولي العظيم ، ترفض بقوة التظاهر بالانتساب اليه وتترفع عن أن ترتزق بالبركة . ولهذا فإن الزيارة التي تقام سنويا لاتقف عند الاطار الصوفي أو المظهر الاجتماعي وإنما غدت بالنسبة لأكثر العاملين عليها والداعين لها . مناسبة للقاء السكان جميعا والذين يوجدون عادة داخل المدينة

وكـذلك الذين يأتون من مناطق أخـرى فيلتـقون جـمـيعـا على صعيد التسامح وتوحيد الصفوف ونبذ أسباب الخلاف وعوامل الفرقة ووضع حد لكل شكل من أشكال سوء التفاهم وتفشى الشقاق .

ولهذا تراهم لايعودون من أى زيارة من زيارات الحاج عمرو إلا وقد تغلبوا على كل خلاف من الخلافات المستعصبة على الحل والتي قد تؤدي إلى فتور في العلاقات وتعجز المساعى الحميدة عن حل شكل من أشكال الخلاف فإن الكلمة التي تنهي كل حوار في اتجاه الوعد بالوصول إلى حل .

- نتلاقو في الزيارة

بمعنى أن الزيارة تعنى ضرورة التصالح مهما كان حجم الخلاف ،لأن الزيارة واجبة الحضور وواجبة قبول التبعات ، وأول هذه التبعات القبول بالتسامح إزاء كل خلاف ، غير أنهم مع حرصهم على الزيارة والإسهام في نفقاتها يرفضون تحويلها إلى مناسبة للتسول كما أنهم لايتوعدون أحدا بهدف الترهيب أو الترغيب ليضطر بعد ذلك إلى تزويدهم بما يطلبون على شكل إتاوة كثيرا ما تكون دورية ووسيلة للابتزاز والظفر بقدر من المكاسب فالأمر لايتعدى التبرك واستثمار المناسبة في التخفيف عن المحتاجين الذين حلت بهم صروف الأيام وهدت حيلهم غائلات الزمن ونوائبه ، إنّ للأمر علاقة بالناحية المعرفية على مايبدو ، والتي ترفض فكرة الخوارق وتسخر من ثقافات عصور

الانحطاط، فالكل يعرفون أنهم عرب أقحاح ومن نسب علوان ذلك السُلمي الشهير الذي ينتسب اليه المؤسسون الأوائل خلف الله المناري واولاده الثلاثة شيبون وبديوى وابوغصن ، وعتوم الذي صاهرهم وعبدالكافي وجمعة اللذين كانا قد وصلا في ذات الفترة ومن ثم كان تقاطر تلك الأعداد الكبيرة من الجعافرة والدبارة والشنادلة والشعاونة والجخرات والملامدة .

إن زيارة الحاج عمرو ذاتها تشبه إلى حد كبير زيارة سيدى السائح دفين النواحي الأربع فهم مثل سكان تلك النواحي يؤمنون بأن الشرف الحقيقي هو ذلك الذي يفضي إليه الفعل الحميد أو من حمل كتاب الله ، ومن هذه الناحية كثيرا ما يدخلون في خلافات كبيرة مع من يعتقد غير هذا المعتقد وقد تؤدي خلافاتهم إلى بعض الاحتكاكات التي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات . حيث يدعي كل طرف من أطراف المجتمع أحقيته في التفوق والأهلية وبالذات من حيث شرف النسب والأحقية بالسبق في الدنيا والآخرة هى سنة قديمة من سنن الكون التي لامفر منها ولا مخرج من إسارها .

الدوائر الإيطالية ذاتها لم تهمل قطاع الطوائف الصوفية بل أن بعض مسؤوليها قد أولوا ذلك القطاع عناية تفوق الوصف ومع أن مؤدى ذلك يعود إلى تشبع بعض الطليان بالمسألة الروحية في الأساس إذ تجدهم عندما يحل بهم خطر محدق يطلبون ممن إلى جانبهم من المسلمين :

- ادعوا مربوطكم :

قاصدين بذلك الأولياء الذين يطلق عليهم البعض كلمة المرابطين مع ذلك فلابد من ملاحظة أن بعض الأطراف الإيطالية كانت تحبذ استغلال الحشد الشعبي للدعاية وإضفاء الشعبية على الحكم الذي قيل عن عدم إنسانيته وجبروته وطغيانه الشئ الكثير ، فأراد أن يستفيد من هذا القطاع كلما حلت مناسبة من المناسبات خرجت فيها طوائفه الكبيرة تتحلق في الشوارع حاملة الأعلام والدفوف تنشد قصائد تؤدي إلى استعمال المزود والباز والدربوكة ناهيك من النوبة والطبل .

يرتدي رجالها أجمل الحلل ويطلقون أطيب الأبخرة ويرتلون قصائدهم واذكارهم في مختلف المناسبات الدينية .

إن أقرب دليل على تسخير الاحتفالات الصوفية في أمور اخرى ذلك الاحتفال الذي أقيم بمناسبة قدوم رجال القضاء الذين وفدوا إلى المنطقة من كل أرجاء البلاد بدعوى الزيارة العادية وفي زى موحد لم يتخلف أحد عن ارتدائه ثم مالبث أن عرف السبب الحقيقي وهو الرد على الحملة الصحفية التي نظمها الليبيون المهاجرون بهدف فضح ممارسات الاستعمار الإيطالي تجاه المواطنين العْزل .

لقد تزامن ذلك الملتقى مع زيارة موسوليني لطرابلس وترددت أنباء أنه سيأتي إلى جميع المناطق ثم عدل عن ذلك وأناب عنه الوالي وتم «تجيير» كل شئ في النهاية لصالح

المستعمرين .

لقد كان المخطط سياسيا بكل معنى الكلمة ولهذا كان التشجيع الكبير للقاء الصوفي ، ولكن دون أن يعرف المشاركون فيه حقيقة الأمر . وتلك هى غلطة بعض القطاعات الشعبية حين تُستدرج الى المساهمة في لقاءات موسعة وهى غافلة عن حقيقة التدابير فتسيء من حيث لاتدرى أو كما قيل قديما الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الطيبة .

كل الأماكن في الحقيقة صار لها روادها وأمكن بالتالي استثمارها وتوظيفها كل حسب رغبته وهدفه بما في ذلك المساجد التي لقيت اقبالا شديدا من أولئك الذين وفدوا من كل مكان وصاروا يشكلون حضورا مهما ويبعثون أملا كبيرا في ازدياد الدخل تصديقا للقول الخالد .

- اطلبوا الرزق تحت مزاحمة الاقدام :

وكان أن كونوا بحق قوة استهلاكية فاعلة وقوة شرائية مؤثرة فتضاعف وفقا لهذه الوضعية دور الأئمة وشيوخ الطرق وعلى رأس هذه الطرق الطريقة العروسية أوالأسمرية بالأحرى وهى المنسوبة إلى الشيخ عبدالسلام الاسمر دفين زليتن . إنها أحد فروع الشاذلية كما جاء في سلسلة الشيخ التي تحفظ هنا عن ظهر قلب من قبل الكثيرين فهى تُتلى كل مسائي الاحد والخميس .

فيتذكر الاتباع بواسطة التلاوة أسانيد الشيخ في الطرق

الصوفية من الذين تلقى عنهم العلم والتمس منهم الطريق إلى تلك الينابيع القوية .

إن معظم الناس هنا ينتسبون إلى هذه الطريقة عشما في بركة ذلك القطب الكبير المستحوذ على كل القلوب والأفئدة والمتكفل بحمل مريديه أينما وجد في البر أو في البحر بل حتى في يوم الحشر كما يقول في الوصية وبالتالي فإن وقف العروسية هو من أكبر واضخم الاوقاف وعطاءها من اكبر العطاءات .

إن تاريخ العروسية قديم قدم التاريخ ومشيختها تتوارث منذ مئات السنين باستثناء المشيخة الحالية ولاشك أن قدم الزاوية هو الذي جعل إعادة التشييد ضرورية هذه المرة وذلك عندما اقتضى التخطيط الحديث إزالتها من مكانها لجر الطريق الموسع ولعل بابا علي الذي عرف بلجاجته في الخصام إنما أراد الاعتصام ببركة الشيخ حينما فرض على أبنائه تحمل الجزء الأكبر من النفقات ،عند التشييد ثم الإصرار في تحمل مصاريف الاضاءة في تلك الفترة المبكرة من التاريخ الحديث حين كانت الأحوال الاقتصادية ليست على مايرام ويصعب معها الاضطلاع بأي التزام دائم فالعروسية والحالة هذه تتمتع بوزن أدبي خاص ومن يتقدم صفوفها له الهيبة التي لاتجارى ومن ينتسب إلى طريقتها مبشر بالقبول .

حين يتقرر خروج هذه الطائفة في زيارة من الزيارات والتي

تكون عادة لاشهر أربعة هي . صفر ورجب وربيع الأول وفي شوال في الفطر وهى الأشهر التي يزداد فيها الشعور الروحاني قوة والتهابا لما لهذه الاشهر من ذكرى المولد النبوي الشريف بالإضافة إلى حلول موسم الحج وقبل ذلك نسمات رمضان الكريم وصفر الذي يستعين الناس عليه بالمديح الساكن .. حين يتقرر ذلك فإن الحياة في البلدة الصغيرة توشك أن تتعطل بالكامل بل إن البعض يأتون من الأماكن البعيدة حين يكون اللقاء موسميا ومتفقا عليه إذ من الذي في إمكانه أن يتخلى أو يقصر أو يتقاعس إزاء مهمة يجتمع فيها الهدفان الديني والدنيوي كما تفصح الممارسة ؟ من الذي يتأخر عن الإسهام في ذلك الموكب المهيب من الذي يستطيع أن يجرؤ على التخلف عن تلك التظاهرة الشعبية التي يشارك فيها جميع أبناء الشعب مقبلين عليها بكل فرح منفقين فيها بكل سرور وقد يحدث أن يكون أحدهم يشكو من مرض من الأمراض ويعيش حالة حزن من الأحزان أو أى نائبة من نوائب الزمن فتكون هذه المناسبة فرصته الكبيرة لالتماس البركة والتوسل إلى الباريء طمعا في التخفيف وفي أغلب الأحيان يتيسر القبول .

إن العروسية هنا تختلف عن تلك المعروفة بالشمال والتي يطرح البعض برهانها خلال تقيؤ الأبخرة ولعق الحديد الملتهب وبلع المسامير وضرب المدي في الأمعاء فهي عند أهل هذه البلدة لا تتجاوز الأذكار الملحنة وضرب الدفوف وفق إيقاع متفق عليه

ومجموعة من التسابيح المعروفة التي يداوم عليها من يسلك طريقها ويلتزم بحمل عهدها .

ان مشائخ هذه الطريقة هنا لايترددون في إظهار تبرّمهم إزاء كل اشكال الشعوذة وادعاء البراهين والبركات وجميع أشكال الابتزاز التي يحاول البعض أن يتحركوا من خلالها ومن يتظاهرون بالبركة كما يفعله المتخرطون في سلك العروسية فهي لاتعدو الحرص على الصلاة في أوقاتها والمداومة على بعض التسابيح والحد من سيطرة النهم والتلهف على أعراض الحياة الدنيا بالإضافة إلى الخشوع الذي كثيرا ما يبلغ مداه في لحظة من لحظات الوجد الصوفي كما أن الجذب ذاته لايتجاوز الحركات البسيطة المرتبطة بتأثير النغم الموسيقى على الجسد وما يشيعه في بعض الأحيان من استشعار التألق والشفافية بعيدا عن الحركات البهلوانية التي كثير ما يلجأ إليها بعض المهووسين الذين تمتلئ بهم أراض كثرة .

لقد عرف الناس هذه الطريقة منذ مئات السنين هى لم تأت على شكل دعوة يدعو اليها ويحفز عليها داعية من الدعاة كما هو الحال بالنسبة لغيرها من الطرق التي ارتبطت بالزوايا وكانت على ما يمكن وصفه بالتكتيك المرتبط بالعمل السياسي ، ولم يحفظ لها ما يعطيها في عداد الحركات الرامية إلى إشاعة نشاط فكري ما بل إن معظم رجال العروسية لاصلة لهم بهذه الأمور. وقد اكتسبت هذه الأيام حضورا أكبر حين امتلأ صحنها

بعديد من الرجال الذين كان لهم دورهم في بعض معارك الجهاد كسيدى عيسى بطل الحشادية ومحروقة ورجال آخرين جمعوا بين التوجه الصوفي والحضور العملي والاستقامة الحقيقية في الحياة من صهرتهم العروسية ولقوا من الناس القبول الحسن فكان إسهامهم موضع تقدير وترحيب ومكان الاحتفاء بهم مدعاة إلى دمجهم في المجتمع بالكامل حتى لقد تجاوز وافي انتمائهم معظم الذين سبقوا إلى المواطنة أضعافا مضاعفة ، ذلك أنهم كانوا يجمعون بين التوجه الصوفي والنشاط الاجتماعي عندما كانوا يطوفون الوديان والمدن شرقا وغربا يبيعون مالديهم من مصنوعات جلدية وفضية اتقنوا صنعها وزاد ماأفاء الله عليهم من الهيبة وحسن القبول في جمالها مما جعل القاطنين بالأرياف والبوادي يبالغون في الاقبال عليها والاحتفاء بها وهم الذين تحول بينهم وبين ما يشتهون من مثل هذه السلع التزاماتهم وبعد مسافاتهم لولا مبادرات هؤلاء الرجال الذين طالما قطعوا المسافات الطويلة والبراري الواسعة وانفقوا الايام تلو الايام يجوبون القفار الوعرة في سبيل لقمة العيش وتنمية الموارد ، وتوثيق الصلات الإنسانية مع عديد القبائل التي فضلت البقاء هنا كلما حل الصيف وجف الكلأ واقبل الانسان والحيوان على الماء والظل بالقرب من غابات النخيل الواسعة .

لقد كان الموقع القديم لهذه الزاوية في الطرف الجنوبي للبلدة محققا بذلك الوظيفة الاجتماعية المبتغاة من حيث التكفل

بايواء الذين يقدمون بين الفترة والفترة من دون أن تكون لهم بيوت ياؤون اليها ولاقرابات يعتمدون عليها فتشكل الزاوية النقطة الأولى لإيوائهم ومن ثم تتنادى الصداقات القديمة والعلاقات الجديدة لتقديم ما يجب تقديمه .

وها هو الموقع الجديد يأتي في المنطقة التي تميل إلى الغرب حيث تخف الرقابة الرسمية ولايولى العسس اهتماما كبيرا بما يدور هناك لعدم وجود مشاكل بالطبع ويوجد السكان المتألفون الذين يمكنهم أن يستوعبوا الجميع ، ويصهروهم في بوتقة النشاط العام مما يقلل من وحشة الغربة وضعف الإحساس بالانتماء بل لعله يؤدي إلى تقويته ودفعه نحو آفاق أكثر إيجابية خاصة في فصل الخريف حين يتم جلب التمور التي أوقفها عديد الملاك على الشيخ ويقع بيعها بأثمان رمزية فلا يحرم مدقع أو محتاج أو غير مالك بالجملة من هذه الغلال التي تتعدد انواعها وتختلف جودتها ويقبل الناس على شرائها دون غيرها في ذلك الفصل الذي هو أنسب الفصول للعيش هناك عندما يعتدل الطقس وتتنامى المنتوجات ويأخذ الفلاحون في عرض مالديهم في سخاء ومباهاة جمع مالديهم من إنتاج حامدين ربهم وشاكرين أفضاله على نعمة الصحة وحصول البركة في هذا الرزق الذي يدعونه جلت قدرته أن يكون فيه نصيب للسائل والمحروم .

ومع أن عددا غير قليل من حملة القرآن كانوا يؤدون

صلاتهم بشكل دائم في زاوية العروسية وبعضهم كان يتولى صلاة القيام بطوال السور كما هى عادة أهل البلاد فإن الشيخ حسونه الذي تقدمت به السن لدرجة تعذر عليه معها أن يقوم بواجبات الامامة علي نحو كامل خاصة وأنه لم يكن من الحفظة بالاساس فإنه أصر على التمسك بهذه الإمامة مما أدى إلى التقليل من دور العروسية على النحو المُرضي من حيث القيام بما ينتظر منها وكما اعتاد السابقون أن يفعلوا .

لقد قضى هذا الشيخ فترة من عمره بطرابلس واكن ذلك على مايبدو لم يكن من أوسع الأبواب بحيث لم يفلح في الإلمام بعديد الوجوه في المسائل الدينية وفي مقدمتها الأقوال المتصلة بالجهر بالبسملة في الصلاة فلزم القول الوحيد الذي يرى كراهة البسملة في الصلاة على نحو ماجاء في أرجوزه عبدالواحد بن عاشر وهى من أبجديات القواعد التي تلقن للناشئة الأمر الذي لم يقبله عديد الفقهاء الذين جمعوا بين الاجتهاد والنقل والاتّباع ، وطوال إصراره على العمل بهذا القول كان يقابل بعدم الرضا من معظم الناس وبالأخص الذين خاضوا معارك فكرية كثيرة بصدد هذه الإشكالية فبدأ موقف الرجل وكأنه الحاجز بين العروسية وعديد المواطنين بالرغم من كل ذلك الموروث الكبير وكذلك الحجج التي تذرع بها الأخرون وهم يحاولون اثناءه عن موقفه عن رأيه ويكاد الجميع أن يقول إن حجة الرجل داحضة وإن الأسانيد التي تقابل رأيه أوسع

واشمل ولكنها عبارة التكريه المعروفة والوجوه الأخرى التي لم يستطع الرجل أن يقترب منها أو يلم بها ولكنه أصر على موقفه غير مكترث بأى من أولئك الشيوخ المشهود لهم بحسن الاطلاع بمن في ذلك الضيوف الذين لفت نظرهم موقف أهل البلاد فأثار احترامهم التوسع في الأسانيد والإفاضة في البراهين ولكن الرجل كان يمتلك الشرعية وليس ثمه من أحد يستطيع أن يثنيه وفارق السن يفرض القبول بما يرى ولو لم يكن له أى مبرر أو نصير .

إن الأمر في الحقيقية يتصل بممارسة قديمة دأب على اتباعها الأجداد وكانت لهم بصددها صولات وجولات ومن المهم أن يتم العمل بها بواسطة الآراء الفقهية الدافعة لما تنطوى عليه من إصرار على الخصوصية والتميز ، لقد كان القوم في مواقف كثيرة يعولون على موقفهم المتميز لتلك المنطقة التي هي وسط في كل شئ تجمع بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ويعتمدون علي النوعية أكثر من اعتمادهم على الكم لكن الرجل كان دون هذه الافاق فبقى على موقفه إلى أن أقعده المرض فكان لابد من التفكير في بديل له ، وبالقدر الذي لايكسر خاطره ولاينال من مصلحته .

ويومئذ اجتمع أولو الأمر من الذين وقعت على عاتقهم مسؤولية المعالجة فكان الحل الذي أمكن بواسطته الجمع بين تخلى الرجل وعدم المساس بمصالحه متمثلا في أن يتولى ابنه

أبوالحسن شؤون القيم على العروسية بدلا من الإمامة ، بحيث يمكن المحافظة على النصيب المقرر من الوقف وفقا لما يفرض العرف السائد سواء بقى الشيخ على قيد الحياة أو بقي أبوالحسن من بعده فلقى الاقتراح قبولا من الرجل لولا أن المنية كانت بالمرصاد إذ مالبثت أن انشبت اظفارها بدءا بالمرض العضال الذي اضطره إلى ملازمة الفراش فترة من الوقت وانتهاء بالعجز عن الحركة فالغياب الأخير .

2

مثل غـيـبـات كـثـيـرة كـانت غـيـبـة ذلك الشـاب ، المبكر الوجاهة، باعثة على القلق مثيرة للحزن ، محفزة إلى التفكير ، داعـيـة للتـخـمين ، ذلك أن غـيـبـات مماثلة ، كـانت قـد أدت بمن وقعوا ضـحـيـتـهاإلى مـفـارقـة الحـيـاة في فـتـرة مبكـرة أما بتـأثير العطش جراء طول الطريق . أو نتـيـجة لهـجـمات المرض الشـرس التي توالت في غـيـر مـارحـمـة على أولئك السكان ،عندما اضطرتهم القـوات الغـازية إلى الرحـيل، بعـيـداً عن ديارهم ،مـضـحين بأمـوالـهم، وراحـتـهم ، نافذين بجلودهم ، خـشـيـة البطش، مـفـضلين الهـجـرة على البـقـاء .أو العـيش تحت الذل والإهانة ، أيمانا منهـم أن كل من لديه القـدرة على الرحـيل لا يجوز له البقـاءحتى يدركه العدو ويسومه بعد ذلك سوء العذاب ، خاصة وان ذلك العدو قد تمكن يؤمئذ من الاستيلاء على عديد المناطق ، وضـرب أمـثلة واضـحـة في التنكيل بالأبرياء، بمن في ذلك المسنين من الرجـال ،فـضـلا عن الضـعـفـاء من الصـغـار والنسـاء، الذين تقتـضي كل الأعـراف مسـاعدتـهم والعفـو عنهم .ومع أن أصـواتـا كـثـيـرة كـانت تدفـع باتجـاه عكس هـذا الموقف وتدعو إلى عدم الخـروج بكل قوة ، إيماناً منهـا بأن الغـربة اسوأ من البقاء بكثير ، وأن المرء مهما أصـيب مع أهله وذويه ، فذلك

عليــه أهون وأخف ، فـإن الـغلبـة كـانـت في إتجـاه الأخـذ بـفكـرة الرحيل وهجر الديار والأهل والأحبة ، متى وجدت القـدرة علي ذلك ، فللهجرة بريقها الجذاب وعمقها الراسخ في الوجدان لما وعد الله به القـادرين عليها من حسن الجزاء في الأخرى وشرف الموقف في الأولى سواء بسواء .

كثيـرون أولئك الذين استطاعوا الرحيل وأفلحوا في تحقيق هذه الغـاية المحـبـبـة وأن يولوا وجـوههم شطر المشـرق والمغرب والشمـال والجنوب . مئـات الأسر المتكونة من الرجال والنسـاء والصبيـان والبنات ذهبت في اتجاه الجنوب متـخطيـة الصـحـراء الكبرى لتستقر في تشاد معسكرة حول بعضها البعض مصرة بكل مـا تملك على حـفظ سـلالتـهـا وصـون دمـائها من أى دمـاء غـريبـة تنال من نقـاء تلك السـلالة وتؤثر في قوة ولائها للوطن وعـزمـهـا على العـودة إليـه مـتى يحين الأوان وأخـرى اخـتـارات الاندماج مع ذلك الواقع ودخلت في علاقات من المصاهرة ، بات من المتعذر على أى كان أن يفرق بينـها وبين كل القبـائل الأصلية هناك وأسر آخرى تعذر عليـها الوصـول حين داهمـها الإعـيـاء ، وتوالت عليها هجمـات المرتزقة التى سلبـتها كل ماتملك حتى لقد أصبح إدراكها من قبل القوات الغازية بمثابة الرحمة لها !

فـيـمـا ولت أسـر أخرى وجـوهها نـحو المشـرق انطلاقـا من واحـات زلة ومـرادة وسـيـوة لـتحط بعـد ذلك في الـفيـوم وبقـيـة القـرى المصرية الشـرقـيـة ، حيث قـبـائل أولاد على الـذين يدين

الكثير منهم بالولاء للأرض الليبية وزعاماتها التقليدية والذين لم يبخلوا في الواقع بتقديم كل ما يملكون . على أن أصعب ما لاقاه الجميع هو ذلك المتمثل في غارات المرتزقة والتى يمكن وصفها في ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال إنسان

لكن ذلك الشاب الذي غاب ذات يوم هاهو الآن يعود وليس مثل كل الذين عادوا كانت هذه العودة، في ذلك الربيع المتميز، فبقدر ماكان الربيع متميزا في عطائه وازهاره، وافرا في سخائه ، بكل مالديه كانت هذه العودة مرتبطة أشد الارتباط بإشاعة الفرح والإحساس العارم بالهناء والطمأنينة وذلك عندما حملته إحدى السيارات القادمة من طرابلس عبر مصراتة عائداً بالأساس من مصر التى رحل إليها منذ سنوات عقب إقامة طويلة في مناطق هراوة والنوفلية وإجدابيا وغيرها من المدن التي كانت مأهولة ببعض القبائل العربية وكان الوصول اليها يستنفد الأيام والشهور ويتطلب الزاد والمركوب ، نظرا لطول المسافات ، وضآلة الامكانيات . فقد مكث هناك سنوات طويلة قبل أن يتوجه الى مصر ضمن آلاف الليبيين الذين قرروا أن يخوضوا تجربة الغربة . عندما هاجروا تحسبا لمظالم الإيطاليين الغزاة حين تمت لهم الغلبة وكسبوا المعركة ضد قوات الجهاد غير المتكافئة مع قوات العدو !

كانت بداية الغيبة منطلقة من التوجه إلى النوفلية والنهوض

بتعليم القرآن الكريم ومبادئ اللغة لابناء القبائل المقيمة هناك ، بعد أن نال ما تيسر له من التعليم على يد فقهاء بلدته ، وفقا لما يقتضيه أسلوب التعليم القائم وتمليه بعد ذلك التقاليد والأعراف ، فكانت نشأته الأولى في كنف شقيقه الذى برز في معارك الجهاد بكل مناطق القبلة والوسط التي خاضتها القبائل الليبية مجتمعة . وكانت مساهمة بلدته غير خافية باعتبارها نقطة الانطلاق ، إلى جانب ذلك الشقيق كان شقيقه الذى يليه يقوم بذات القدر ونفر من أبناء عمومته . أما هو وأخوه الأصغر منه ، فقد كانا في بداية الحياة حين قدر للوالد الفقيه أحمد أن يرحل من الدنيا عشية دخول البوارج الإيطالية للساحل الليبى . فأخذ ذلك الشيخ يطلب ربه ألا يحضر مجئ الطليان وكان أن بر الله بوعده فرحل قبل وصولهم إلى هناك وكانت مبادرة عبد الجليل الكريمة بتبنى أولئك الأيتام بحكم العلاقة الاخوية القوية ، والتقدير الذي يحمله للفقيه «حمد» ، وكان أن بادر لمجرد أن أنجز الفتى حفظ القرآن الكريم مع بعض المبادئ العلمية إلى أخذه ضمن أفراد الأسرة ليتفرغ لتعليم شقيقه محمد .

لقد كان العرف يومئذ ، يقتضى أن تختار كل أسرة موسرة أحد الفقهاء القادرين لتوكل إليه مهمة تعليم أبنائها مع بقية أبناء المجاورين من القبائل ضمن المحاولات الرامية إلى مواجهة الأمية وجيش الجهل الغادر ، وكان لهم في ذلك نظامهم السائد والذي يتمثل في حفظ حقوق من توكل إليه هذه المهمة من

حيث الإقامة والملبس والعائد السنوى وهي حقوق تعولٍ دائما على الكرم ، وحسن الضيافة امتثالا لجلال المهمة التي تشترط ضمان حسن الأداء وتوفر الفتح من البارئ جل وعلا إن هذه المهمة ليست بالشئ البسيط كما قد يتصور وبالتالى فهى لاتتاح إلا لمن اختص بنظرة عطف واكتسب شيئا من المقدرة التى لاتدانى ، والشقة التى لاتضاهى لأنه بمثابة الابن الذي يحل بين الأسر ، ربما يكون مسناً وفي أحيان قليلة يكون يافعا كما هو الحال بالنسبة لهذا الفتى وفي جميع الأحوال فإن القوم كثيرا ما يقربون ذلك الوافد من مختلف شئونهم ولا يخشون من أن يكون مطلعا على أدق أسرارهم ، وما يتصل بتاريخهم الماضى ومستقبلهم المنتظر فيصبح واحدا منهم وربما أقحموه في أخص خصائصهم ، وقد يبالغ أحدهم فيضع هذا الوافد في كفة ترجح على كفة الأقارب ذاتهم فهم يعلمون بفطرتهم التى فطرهم الله عليها أن هذه المهمة الجليلة التى ينهض بأدائها ذلك الرجل تشترط أول ما تشترط الكرم المادى والمعنوى . وكان عبد الجليل وإخوته الذين رحلوا الى هذه المنطقة منذ أن حل القائد العلج « كوسة » الذي استلم الجفرة بطريقة عجيبة حين وضعت تحت تصرفه كل الامكانيات من دون أى مقاومة وأخذت الأسرة تحاول أن تدبر شئون الصحراء من هناك وتصرف جل الوقت في تربية الناشئة والاستعداد للعودة

كانت الوفود المهمة تأتى إلى هناك في طريقها الى الشرق

والغرب على السواء فقد كانوا بلا جدال قادة الصف الفوقى الذى تكون منذ خروج عبد الجليل بن غيث عن طاعة

القره مانلى ليقود ذلك التمرد الشهير الذي كان موضع اهتمام وتشجيع من أطراف شعبية ودولية كانت لاتخفى إيمانها بأفول نجم الإمبراطورية التركية وضرورة إعادة توزيع المناطق التابعة لها أو الواقعة تحت سيطرتها وفقا لما عرف بظاهرة نشوء القوميات ومن بينها القومية العربية بالطبع والتى ارتبطت بالمشروع الأوروبى الرامي إلى تخطيط المنطقة العربية بما يحفظ المصالح الدولية أولا وأخيرا ، باعتبارأنَّ القوة الدولية كانت الأقدر والأوعى من حيث الاقتصاد والسياسة والعمران حتى كانت الحرب الشرسة التي خاضتها ايطاليا عقب توحيدها مباشرة واتجاهها نحو شواطئ ليبيا لتحقيق المصالح الاقتصادية أولا وتحقيق جنون العظمه ثانيا فكانت المقاومة وكانت الهجرات وكان الغياب لأكثر من أسرة ولأكثر من رمز من رموز الوطنية والشعبية أعداد كثيرة حلت بذلك المكان . مجموعة كانت تحمل قرارات مؤتمر غريان الذى كان من ابرز المشاركين والمتحمسين لحمل قراراته رجال من أمثال البشير السعداوى ومصطفى الترجمان ومحمود المسلاتى والطاهر الزاوى وعون سوف والمريَّض وغيرهم وأخرى تستطلع الرأى في شأن من الشئون . وثالثة تسعى لإبرام صلح بين قبيلة أو أكثر بهدف إنهاء صراع من الصراعات او فتنة من الفتن . لم يعد امامها من

أمل في العيش الهانيء مالم تتمثل لنداء العقل وتركن إلى صوت الضمير وتجنح الى عوالم السلم وهكذا فعلى مر الأيام لاتخلو تلك النزلة من عديد الرجال الذين يتوافدون من كل مكان ويخوضون في أهم القضايا التى تتصل بأكثرها حساسية وأكبرها شمولاً .

لقد أتاحت هذه الفرصة للرجل إمكانية الاطلاع على جميع ماكان شاغلا للرأى العام في ذلك الزمان ، من حيث خلافات القبائل وأسبابها ومواقفها من الحرب .ومشاريع الصلح والشكل الإدارى المقترح والصراع المنعكس على كل المواقف وقد ساعدته على ذلك الذاكرة القوية التى حباه الله بها وحسن القبول الذى كللته العناية الإلهية له ، ولم يتجاوز في ذلك الزمن السنوات الأولى من شبابه بحيث استطاع وهو في فترة التكوين أن يقترب من كل قادم ويوثق الصلة معه ويمتص تجربته ويطلع على تفاصيل كثيرة من خبرته وما كان يشغل باله ، بكل اليسر والسهولة ، فلا الذين يمرون من هناك بالعاديين ، ولا الإقامة بالتى تقف عند يوم أو يومين ولا الذاكرة التى من الله بها بالعاجزة عن استيعاب كل ما يذكر ، الأمر الذي كون له قدرة فائقة على الرواية وحسن ترتيب الوقائع وعدم التقليل من أى حادث جرى وكان ذلك في الغالب يتم بواسطة شواهد من الشعر الشعبى تناولت أهم الاحداث وأخطر الخلافات وأدق التفاصيل .

فعن طريق هؤلاء كون فكرة مهمة عن«تجريدة حبيب» الشهيرة التى ضرب فيها الأهل القدامى أروع الأمثلة وأشرفها في الدفاع عن الأرض بما قدموه من صمود مجيد وما تميزوا به من استماته في سبيل رفض أى شكل من أشكال الوجود الخارجى ، وذلك يوم أن انطلقت جموعهم من مصراتة وزليتن وتاجوراء والزاوية خلف الفارس «حبيب» الذى عز عليه أن يسود فوق تراب الوطن سوى أبناء الوطن الحقيقيين فخطط لتلك التجريدة التى ارتبطت باسمه في ذلك التاريخ المبكر من التكوين الاجتماعى كما ألمَّ بالأسباب الحقيقة للخلافات الحديثة التى استفحلت أيام الجهاد بين عديد الزعامات والقبائل وأثرت سلبا على تلك الحركة مثل خلافات الجبل الغربى التى ما كان لها أن تستفحل وأن تنحدر إلى المستوى الذى انحدرت إليه لولا الإصغاء لصوت الفتنة والانقياد لتفكير الأوغاد وسيطرة روح المغامرة على العديد من القادة خاصة حين سخروا ملكاتهم الشعرية لتعميق التشرذم والصراع القبلى القاصم لمشروع الوحدة الوطنية وهي ذاتها التى حدثت في مواقع أخرى كانقسام المنطقة الوسطى بين صف البحر والصف الفوقى والتنابز الذى جرى داخل كل منهما بواسطة الشعر تخصيصاً ، كان الذين يمرون يخوضون في كل الشؤون ويعبرون عن مختلف الشجون وكانت حافظة الشيخ تنقل وتمحص وتعيد وتراجع وتفضي باستمرار إلى تكوين شهادة مهمة للتاريخ .

لقد اختلطت تلك الطبيعة وتداخلت، فجمعت بين الإقامة بهذه المناطق التي كانت في النهاية من أعمال قصر سرت حيث مقر السلطة الإدارية وبين مراكز القوة الشعبية ومن ثم إجدابيا والكفرة فالدخول إلى الأراضى المصرية ولم يمض الرجل والحالة هذه سوى القليل من عمره مع أبناء جيلة حتى عاد في هذا الربيع وقد تجاوز الثلاثين من العمر .كان فاره الطول ذا لحية محففة، متميزا في الملبس والمظهر، مجازا في ثلاث طرق صوفيه من شيوخها الأصليين ، يمتلك هذا الرصيد الوافر من الأخبار والدراية الواسعة بأدق الأسرار المحلية بالإضافة إلى فكرة جيدة عن الحياة السياسية في مصر، وما كان يحتدم فيها من صراع بين الكتل السياسية وهو الصراع الذي بلغ أشده عقب وفاة سعد بالرغم من الإجماع الشعبى القوى الذى أحيطت به في ذلك الزمن ، لقد كان الليبيون الذين لجأوا الى الديار المصرية شديدى الارتباط بالواقع السياسى المصرى منحازين بشكل أو آخر للقوى الحية فيه، وذلك لما فطروا عليه من الثقة بأنفسهم ،والولوع بمشكلات الناس في كل واقع يعيشون فيه، ويغوصون إلى أعماق جذوره ، فقد كانوا في الأساس من العناصر المتفتحة التى تستطيع الاقتراب الواعى من قضايا الجماهير ، وتسجيل الموقف الإيجابى من كل ما تلحظ وترى وتعايش وتسمع ، كما أن الواقع ذاته كان مفتوحا والصراع في رابعة النهار .

إن الزعماء المصريين ذاتهم لايخفون تعاطفهم مع القضية الليبية سواء عندما اشتدات المقاومة ، أو بعد أن كتبت الغلبة للإيطاليين الغزاة ، وبدء مسلسل الإعدامات والتنكيل الذى قاده السفاح غراتسياني من غير مارحمة أو رأفة أو تقدير لمسن أو طفل أو امرأة في حالة مخاض لوضع جنينها الصغير وقد كان على رأس هؤلاء عمر طوسون باشا الذي مول العديد من حركات المقاومة . كما ساعد على عقد التجمعات الشعبية التى استهدفت فضح الممارسات الإيطالية تجاه المواطنين العزْل بهدف تحريك الرأى العام ولفت الضمير الإنسانى الصاعد نحو ماكان يجرى وكان من أشهر ماقام به يومئذ تبني ذلك المهرجان الذى أقيم بمناسبة إعدام شيخ الشهداء عمر المختار وهو المهرجان الذى حضره الشاعر الكبير أحمد شوقي وألقى فيه رائعته الشعرية التى رثى فيها ذلك البطل المسن بحضور ألمع قادة النضال في مصر ، من أمثال صالح باشا حرب ، وحمد الباسل ، وعبد القادر للوم ، ومحمد علي علوبة أولئك الذين ارتبطوا بحركة الجهاد الليبى عند اشتعاله في الداخل ثم تولوا دعمه عندما انتقل الى الجهد الإعلامى بالخارج وقد أثر ذلك الموقف الإيجابى الذي تبناه بقوة عمر طوسون في فضح السياسة الإيطالية أمام الرأى العام العالمى الذي كان يتطلع إلى متابعة كل ممارسة غير إنسانية تجري في أى مكان من العالم كجزء من الصراع الدائر بين القوى الدولية المنطلقة للفوز بالوطن العربي وتحويله إلى

مناطق تابعة ، الأمر الذى أدى في النهاية الى إحراج السلطات الإيطالية وفضح مخططها ودحض حجتها عندما تابعت ، وسائل الإعلام مالاقاه الليبيون من صنوف العذاب وألوان التنكيل فلم يكن أمامها إلا أن تبذل الجهد تلو الجهد لتكذيب هذه الحقائق ولو بأى محاولة من محاولات ذر الرماد في العيون ، ومن بين ذلك السعى لدى المهاجرين الليبيين وحثهم على العودة من ناحية وتسجيلهم في القنصليات وحماية مصالحهم لدى الأقطار التى يعيشون فيها والتى كانت مستعمرة هى الأخرى من ناحية ثانية وكان لذلك كله في نهاية المطاف أثره في التخفيف من مواجهة المصاعب التى كانت كثيرا ما تؤدى إليها عيشة الغربة وشح الجهات المستضيفة وظروفها الخاصة .

ولما كان الشيخ يدرك أهمية الكتاب في مواصلة البحث وإعطاء الرأى ، وأثره في ارتفاع مكانة بعض الأسلاف من الذين لم يكن حظهم من التعليم المكتبى يبلغ أى مستوى ، ومع ذلك فقد استطاعوا بواسطة المذاكرة وافتقاد الكتاب أن يسهموا في إعطاء الرأى الفقهى إسهاماً بيناًولعلمه أن مكتبة والده قد ضاعت عند دخول القوات الإيطالية فقد عاد مزودا بمكتبة جيدة ضمت أهم المراجع الفقهية واللغوية وهي كتب تضمن لمن يقتنيها أن يسهم بالرأى تجاه ما يطرحه الواقع من خلافات تتعلق بالأحوال الشخصية ومسائل الإرث والأملاك وهى التى يحتدم بشأنها الخصام وتداخل وجهات النظر بحيث يعتبر من

يمتلك هذه الكتب بمثابة من يمتلك آلة الحركة ، وبالنظر لندرة المصادر وعدم وجودها منتشرة ومتاحة أمام الجميع ويومئذ هرع الناس من كل حدب وصوب فرادى وجماعات ، تحية لهذا العائد المهيبَ بمن فيهم بعض المستخدمين في السلك الإيطالى من أمثال نورى أفندى الذى كان قد استأجر في وقت سابق من والدة الشيخ جزءاً من البيت لغرض السكن ، ووجدت فيه نعم المعين ونعم المساعد . وهى التى فقدت أكبر الأبناء شهيدا في المعركة ومن يليه متأثرا بالعطش في إحدى المهمات الجهادية . فيما كانت منية الثالث إثر مرض عضال تضاعف عندما وقع اللجوء الى آخر الطب المتمثل في الكي وقد كان من أخف الناس دما وأسرعهم نكتة وأوفرهم لطفا حتى لقد بقيت صورته في ذاكرة أقرانه سنوات طويلة ، وهم يستعرضون وجوه الراحلين .

وقد كان احتفال نورى هذا بذلك العائد موضع سرور من الجميع كما لم يخف البعض اندهاشهم وتساؤلهم ، إذ لم تكن ثمة علاقة سابقة ولم يكن هو أيضا كثير الالتقاء بالناس بل إنه كان في حقيقة الأمر منطويا على نفسه إلى حد كبير ومحدودا في علاقاته لدرجة أكبر وربما كان ذلك سلوكه حتى في المدينة التى قدم منها أصلا ذلك أن جذوره الأولى تركية ، وهو بالرغم من عمله في البريد ، إلا أنه على مايبدو على صلة بالدوائر الأمنية ، ومن هنا ارتفع الهمس ولعل هناك من أسرً للشيخ بهذه الفرضية ، ولكنه لم يعرها أى اهتمام فقد كان شديد الثقة

بنفسه كبير الاتكال على بارئه أما نورى ذاته فقد كان على ما يبدو يدرك مدى التقدير الذي تكنه السلط لكل الذين عادوا من الخارج على اعتبار أن العودة تدخل في إطار المساعى الحميده التى بذلت من قبل إيطاليا وما رافقها من وعود بتسهيل مهمة كل عائد .

لقد اضطرت إيطاليا إثر الحملة الدولية التى نظمت بصدد مظالمها وفظاعة جرائمها تجاه المواطنين العُزْل بعد أن كتبت لها الغلبة عليهم إلى القيام ببعض الخطوات بهدف ذر الرماد في العيون كما يقال وكان في مقدمة ما واجهها وجود عدد كبير من المهاجرين في بعض الأقطار العربية التى وصلت إليها وسائل الإعلام الدولية فاضطرت بالتالى إلى العمل على إرجاعهم بكل الطرق والوسائل للحيلولة دون حملات الرأى العام الدولي من ناحية وللتخفيف على الأقطار الضعيفة من الأعباء المالية التى كثيرا ما فرضها ذلك الوجود من ناحية أخرى ، خاصة عندما أثيرت فكرة ضم بعض الأقاليم إلى الأقطار المجاورة تحت مبرر ترسيم الحدود والذي شمل ضمن ما شمل واحة الجغبوب حيث بذلت جهود كبيرة بهدف بترها من ليبيا الأمر الذي ضاق به ذرعا جميع الليبين الذين كانوا في المهجر المصري إذ رأوا في تلك المحاولة نوعا من استغلال الظروف وممارسة للعبة الابتزاز المقيت إذ لم يجد البعض مجالا للرد على ذلك التوجه سوى الاستفادة من الحقوق السياسية التى تمنح عادة للأجانب ومن

بينهم رعايا الأقطار الخاضعة لحكم هؤلاء الأجانب طبقا لما ورد في التحفظات الأربعة التى وردت في وثيقة استقلال مصر . أما الشيخ نفسه فقد أسر لمستقبليه أن رجوعه تم بناء على مشورة مع المعنيين بالقضية الليبية على أن هذه الجزئية لم تأخذ كبير وقت كان مبلغ العلم أن رجلا قد عاد الى وطنه وأن عودته كانت مثل الغيبة في إطار أوضاع عامة . وكما يفعل الجميع شرع في معالجة أوضاعه الخاصة وهمومه الشخصية ، مع تحسس الأمور العامة بالطبع وكان عليه باديء ذي بدء أن يبنى البيت فكل أقرانه أصبحوا أزواجا ولهم أطفال . ومن هو في منزلته لايجوز له أن يبقى عَزْباً مهما كانت الظروف، ويومئذ تزوج من إحدى قريباته زواجا بني قبل كل شئ على الموقف العائلى المتحمس وانجب وليدته الاولى وقد فوتح بذات الفترة في مهمة إمامة الجمعة ، بالنظر إلى الازدحام الشديد بالجامع العتيق ووجود أعداد كبيرة من السكان فنهض بهذه المهمة الجليلة التى أقبل الناس عليها والترحيب بها كخطوة تتمشى مع التطور الذى طرأ على المدينة الناشئة مما ساعد على التجاوب والتنادي للاقتداء بهذا القادم الجديد منتبهين إلى حسن إلقائه ورونق الخطاب الذي تفرد به .

كان المسجد يقع حسب التخطيط الجديد بقلب السوق . وكان قد سمي حين تأسيسه بمسجد « باب الأطرش » وهو باب من مجموعة أبواب كانت تفتح على السور الذي يحيط المدينة

من كل جانب قبل أن تداهمه الكسارات عقب الاحتلال الإيطالى وإعادة تخطيط المدينة وزيادة مساحتها بما يناسب الوجود الأجنبى أن التسوير عادة تقليدية أخذت بها كل المدن الإسلامية في الشمال الأفريقى تحديدا حيث تحرص المدن على الدخول من أبواب محددة تصاحبها رقابة من كل الزوايا للاستعداد لأى طارئ غير طيب عندما كانت الفتن بالمجان والغزوات وأعمال الحرابة لاتعرف التوقف خاصة عقب تعدد الزعامات واشتداد الصراع المرتبط بالأوضاع القبلية حيث ينعكس كل ذلك سلبا على المواطنين الآمنين كلما كانوا عزلا من السلاح أو يسكنون أماكن بعيدة فتستباح الأرزاق وربما تنتهك الأعراض ولا يوجد في الحياة محظور إلا إذا توفرت القوة الرادعة والتدبير الحازم .لقد واجهت المدينة عديد. الغزوات والاعتداءات ولكنها كانت دائما تصمد وتواجه وتعتمد عى حسن التدبير لاسيما بعد أن حسمت موقفها من الصراع الدائر في تلك الجهات وانحازت الى الطرف الذى رأت فيه القدرة أو الضرورة أو الظروف الداعية لذلك منذ أواخر العهد التركى لقد اندرست هذه التسمية التاريخية للمسجد وأصبح ينسب الى الفقيه عبد الجليل الجنجان الذي اضطلع بمسئولية القِّيم فيه طوال أربعين سنة كاملة لم تقتصر فقط على شؤون المسجد بل شملت التطوع بختن الأطفال وكانت هذه التسمية مشابهة لتلك التى أطلقت علي المسجد الشمالي الذى نسب الى الفقيه

« غـمّيض » عنـدما قضى فيه أكثر من خمسين سنة يعلم القرآن الكريم كان خلالها مثالا للعطاء وحسن الرعاية والاهتمام بمعالم المسجد .

في هذا المسجد المتميز بموقعه في قلب السوق ، ولوجود عدد غير قليل من التجار الذين دأبوا على ارتياده ومجموعة العلماء الذين وجدوا في حسن القبول الذى حظي به الشيخ بدأت الرحلة القائمة على تحقيق الشراكة الحقيقية في الرأى الفقهى المتصل بما يثار من خلاف وما يطرح من إشكالات تتعلق بالأحوال الشخصية وقضايا الإرث والحقوق المختلفة المحتاجة الى عديد الآراء بل والتى تقتضى في الغالب اللجوء إلى إصلاح ذات البين أولا أو الإفتاء غير الرسَمى الذي يقوم على التوفيق والحيلولة دون التقاضي وما يتم عنه من أحكام قاطعة ربما يغنى عنها التصالح والضغط الأدبى من أولي الامر داخل المجتمع قبل اللجوء إلى ساحات المحاكم إن الأقوال الفقهية كثيرة ومتعددة ونظم المحاماة غير معمول به هناك فكان التقليد المتبع وقبل طرق باب المحاكم هو اللجوء الى « الميعاد » وهو عبارة عن مجلس يعقد باستمرار وبشكل تلقائي يشترك فيه عدد من أولي الرأى الذي يلتقون لقاء شبه يومى يجمع بين الشخصى والعام يتم فيه عادة نوع من التحكيم غير المعلن قبل الذهاب إلى القاضي فأصبح في حكم المقرر وحين يذهب أحد إلى القاضى بدون رأى المجموعة أن يعمد القاضى ذاته الى إحالة الأمر على تلك الكوكبة من

الرجال إن التقليد قديم قدم المدينة إلا أن العمل به قد فتر عقب الاحتلال الإيطالى وما نتج عنه من كمون وتردد حتى جاء الشيخ الذى استطاع أن يحييه من جديد

لقد كانت طبيعة المجموعة التى تحلقت حول الشيخ العائد تفرض على أي كان احترامها والرجوع إليها قبل البث في أى شأن من الشئون فهي تجمع العالم المقتدر والوجيه الخطيب والغين المتنفذ وذا الدراسة والخبرة في شؤون القسمة وتقييم الأشياء ، فهى كوكبة يستحيل الأستغناء عنها مشورة أو صلحا أو حتى علاقة إنسانية. لقد تكون إذن ما يمكن أن يطلق عليه اسم مجلس الفقهاء دون أن يسعى أحد إلى تكوينه فلم يجد القضاة الذين تواتروا بُدًّا من الرجوع إلى هذا المجلس في عديد الشؤون أحيانا لنقص الخبرة وأحيانا اخرى لدرء الخصام بالإصلاح والبعد عن عواقبه الوخيمه بقدر المستطاع . ذلك أن المجتمع الصغير يفلح عادة في إملاء تقاليده . كما أن انفتاح المجموعة على الضيوف الذين أخذوا يتوافدون من كل مكان مكنهم من فرض تقاليدهم والتمكين لما يرونه صائبا ومجديا . وفي مقدمة ذلك الحيلولة دون التقاضى حفاظا على وحدة المجتمع الصغير ومنع أسباب التصدع والفرقة .

أخذ الشيخ في تلمس طريقه نحو العيش الهانيء وفي هذا الصدد آثر أن يسلك طريق الزراعة ، بالنظر إلى أن الأسرة تمتلك قسطا وافرا من النخيل الذي يتم سقيه بشكل دائم أى

بواسطة الآبار والغريب أن الطريق لم يكن ميسرا نحو هذه الغاية المشروعة بل لقد تخللته بعض المصاعب والعراقيل ذلك أن الملك المراد سقيه من أملاك الأسرة مجتمعة ومع أن العرف يقتضي أن يتولى الفلاحة والاستفادة المقتدر من الأسرة قبل غيره إذ لايصح أن يؤذن لغير أولى العصبية بالاستفادة من السقي ، فقد حاولت أرملة عمه المهيمنة على الملك أن تسند مهمة السقي لاحد أقاربها معولة على وصايتها على ابنها القاصر وحاولت هذه المرأة أن تبقى على ذلك وكادت أن توفق ، لو لم يبادر ربيبها بالإصرار على تمكين الشيخ من ممارسة حقه الذي يتيحه العرف ناهيك من الشراكة وكان السبب الأساسى الذي شجعه على تفضيل الزراعة على غيرها من الأنشطة كون التجارة لاتليق بمثله لما تنطوي عليه من مشكلات كثيرة يعجز عنها في الغالب كل من يريد أن يسلك طريق العلم . كما أنه من جهة أخرى سبق أن خاض تجربة العمل التجارى عندما كان بمصر ولم يستطع أن يحقق فيه أي قدر من النجاح للاعتبارات سالفة الذكر .

ومن الأكيد أنه قد وجد سبيلاً آخر للعيش تمثل في الاستفادة من موقع البيت الذى أصبح نتيجة لما أدخل من توسيع على الشوارع في الواجهة الأمامية للطريق الرئيسى مركز النشاط التجارى الأمر الذى حدا بأشهر التجار إلى السعي إليه للاستفادة من ذلك الموقع الهام ، بحيث شيدت مجموعة من

المتاجر وبإيجار مُجْزٍ للغاية ساعده ليس فقط على أعمال التشييد بل وفر دخلا جيدا انعكس على حياته بشكل ظاهر .

وهكذا ازدادت فسحة العيش واختفى شبح الحاجة وسارت الأمور نحو الأفضل والأجمل ، وكان الشيخ قد تزوج للمرة الثانية وكان زواجه من تلك التى سبق له أن حاول بناء البيت بها قبل الرحيل وآنس ميلا من والدها لو لم تواجه البلاد كارثة الاحتلال الايطالى وتضطره الظروف مثل غيره للهجرة ، عندما تشتت الشمل وتفرق الجمع وتقطعت سبل الوصال بين الناس وحالت دون الكثير من أمنياتهم وأهدافهم وشاءت الأقدار أن يتم ذلك من جديد وأنجبت له ابنه الأول الذى خلد به اسم شقيقه الكبير الذي سقط شهيدا في المعركة تاركاً اللوعة والحسرة فكان للمولود الجديد وقعه الخاص في نفوس الأقربين والأبعدين إذ إن كل شئ يدعو للسرور تجاه الشيخ العائدله مذاقه المحبب كما أن الشهيد الذى لقى حتفه ويخلد الأن اسمه من الفرسان الذين أبلوا البلاء الحسن وكان من المشهود لهم بالشجاعة وقوة العلاقات الاجتماعية حتى لقد ظل الحديث عنه لاينقطع أبدا إن على مستوى قوة الشخصية والثبات في المعركة أو من حيث إدراكه لخطورتها واحتمال الاستشهاد فيها ولهذا فقد كان مايهمه ومركز عمله طوال المعركة وعند الاستعداد لها هو ما يمكن أن ترويه الأجيال من بعده فلم يتزحزح قيد أنملة وإنما ظل يواصل تسديد رصاصاته إلى جبهة الاعداء غير متهيب

من توالي اطلاقاتهم وعنفها وغارات الطائرة التى حلت لأول مرة وأهوالها وكانت كلمته الشهيرة وهو يناقش رفيقه في المعركة حين ذكره بمحبوبته :

غدا «نبقو» في حجائج الميعاد

وذلك قبل أن تصطاده إحدى الرصاصات الجبانة ويسلم روحه شهيدا دون أن يخسر حجة من حجائج الميعاد

لم يكن الشيخ قد فارق سن الشباب حيث قدم وبنى بيته ورُزق وليده هذا فهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر ولكن الوقار الذى حظي به وتجذر اسم الشهيد وطول انتظار العجوز المكلومة جعل من الحدث وكأنه غير عادي بالمرة ولهذا فقد بادر الجميع بتقديم كل مالديهم من أنواع البر . مظهرين بذلك كل ما يجسد السرور والابتهاج بهذا القادم الذي طرق باب الشيخ بعد الغربة الطويلة والأخرى المتلاحقة فوفروا كل الاحتياجات من سلع محتكرة وحليب لم يصرف لغير العاملين في السلك الحكومى . هناك من كان دافعه تقدير الشيخ وهناك من دفعه إلى ذلك الوفاء للشهيد الذى سُمي عليه الوليد الجديد الذى بدت ذكراه وكانها قد بعثت من عالم النسيان .

وقد طرحت يومئذ إشكالية فقهية ، تعلقت بمشروعية التصدق على الوارث وذلك عندما تمكنت إحدي النساء العواقر من إقناع زوجها المسن بالتصدق عليها بإحدى المزارع التى امتلكها بحيث كان كل شيء مهيئاً لحرمان ربيبها الذي عاش

بعيدا عن والده وطرحت القضية يومئذ على القضاء ، وعلى مجلس العلماء بالطبع فطلب من المعنيين أن يدلوا بما لديهم في هذه الإشكالية وفقا لما يقول به المذهب المعمول به في البلاد وكان المتحمس لإقرار فكرة الصدقة هذه أكبر الأئمة سنا وأكثرهم شهرة لولا أن الحساسية حوله كانت ناتجة عن وجود قرابة بينه وبين المرأة موضوع الصدقة وأحد الذين أقدموا على الزواج منها عقب وفاة زوجها العجوز مما دفع بعديد العلماء إلى قدح زناد فكرهم للوصول إلى رأى يتصدى لذلك الموقف المنحاز ومن بينهم بالطبع الشيخ العائد الذي كان موضع ثقة القاضي وصاحب الرأى الراجح لديه فاعتبر ذلك الموقف بمثابة الخروج على الشيوخ القدامى الذين تقتضى التقاليد توقيرهم وتوقير آرائهم ، لولا أن الشيخ قد خالف هذا التوجه إما لأنه آثر أن ينتصر للحق بشكل مجرد وإما لأنه يفرق بين التوقير الشخصى والخلاف الفقهى .

لقد كان لهذا الموقف أثرة الطيب لدى الجماهير العريضة التى رأت في موقف الشيخ العائد انتصاراً اللحق وتنزها عن نداء الهوى . وتَغلُباً على ما تمليه العاطفة فقد كان الهوى واضحا في هذه المسألة والنزعة العشائرية غير خافية مما جعل موقف الشيخ الجديد بمثابة الدليل القاطع عى النزاهة وعدم التأثر بالعاطفة بيد أن أصحاب الرأى الثانى مالبثوا أن حملوا الموجدة في نفوسهم وأسروا البغضاء للشيخ العائد وصديق

عـمـره الذى بادر بالالتـفـاف حـوله والوقـوف إلى جـانبـه ودعم خياراته بالمشـورة والمشاركة وقد واصل الرجل رسالته التنويرية ومهمته الفقهية وتوكيد حضوره في مختلف القضايا وعديد من الشؤون مظهرا كفاءة ممتازة في ترسيخ قاعدة شعبية استطاع أن يتجاوز بها مجايليه بالكامل .

على أن الأمر بالنسبة لسيدى سالم لايخلو من أحقية ، من حيث التقدير ومن حيث المواقف القديمة فلقد سبق للرجل أن اتخذ موقفا جريئا للغاية عشية النزاع الذي خاضته أسرة الشيخ بصدد ممارسة حق الشفعة حول بعض المزارع التي بيعت في وقت مـبكر من قـبل شـقـيق الشـيـخ نفـسـة عندمـا اشـتـراها أبناء عبداللطيف ثم طرحت مسألة الشفعة بدعوى أن أحد الأبناء كان صغيرا ومن حقه أن يشفع متى بلغ مبلغ الرجال لقد بذل المشترون جهودا كبيرة وسخروا أكثر من نفوذ لإقرار موضوع البيع وكانت كل الشروط تدعو إلى تمكينهم من ذلك وكان الصراع شاملا من حيث الآراء الفقهية والمواقف العصبية وقد استغرق ذلك أياما وليالى ، كانت خاضتها لصالح أبناء الفقيه «حمد» وللرأي الفقهى الذى جاهر به سيدى سالم أكثر من غيره ، والذي كان الغطاء الكبير لما يحمله عبد الجليل من عطف على أبناء الفقيه «حمد» وهو العطف الذى غرسته والدة عبد الجليل قبل غيرها . التقى الشيخ عقب عودته ومن ثم استقراره وقيامه بالعديد من مسؤولياته كثيرا من العلماء الذين

كانوا من جهتهم أيضا حريصين على معرفة كل شئ عن ذلك الواقع الصغير والاطلاع عى ما يجرى فيه من نشاط وما يحدث بداخله من صراع مرير حتى لقد بدت المقصورة الصغيرة التى بناها في بيته وقرر لإضاءتها أن تكون من كوة بالسقف حفاظاً على سرية الحوار تجاه المارين بالشارع وما أكثرهم ، بمثابة المنتدى الذى يعقد كل مساء لبحث عديد القضايا الفكرية والفقهية وشؤون الدين والدنيا بالإضافة إلى الاطلاع على الكتب التى أفلح في اقتنائها والمجئ بها من شتى الطرق وكان أكثرها حداثة (حاضر العالم الإسلامى) والذي فتن به مثقفو ذلك الزمان أيما فتنة . إن الجلسة في الحقيقة لاتقف عند حدود النقاش الفقهى بل تتجاوزه إلى المسائل الوطنية وتتوفر على شئ من العصبية المهمة وعلى المنزلة في عديد الأوساط خاصة أنها قد أفلحت في استقطاب الكثير من التجار والحرفيين الذين امتلأت بهم المدينة الناشئة واصبحوا جزءا لايتجزأ من المدينة وهمومها اليومية لقد بادلوا جميعا أهلها ودًّا بودّ وانتصروا لمواقفهم الواحد تلو الآخر . وتصدوا بكل الطرق لما يحاك لهم في الخفاء لقد استوعبوا تجربتهم النضالية بالكامل وما تزخر به من تداخلات وقضايا . هناك من اختار طريق المصاهرة شأن الخمسى والخطرى والزليطنى والقرقنى والورشفانى وهناك من اكتفى بحسن المعاشرة وحق المعاملة والمناصرة شأن سوالم والحسومى ومحمود إدريس وبن رأس على بيد أنهم جميعا كانوا يشكلون فريقا

واحدا شديد الحضور بادئ التأثير والممارسة حتى إن المرء لايكاد يراهم إلأوهم يستعدون للإسهام في إحياء موسم من المواسم الدينية ليالي المولد وقيام رمضان وحلقات الأسمرى الأسبوعية كل يختار الأسلوب الذي يرى والطريق الذي يحبذ ويتوسم فيه الجدوى وكل يسعى ويختار الطريق الذي يحب والشيخ يأذن ويوجه والقبول مؤمل للجميع

إن كل الدلائل تشير إلى أن هؤلاء الرجال لم يكونوا مجرد باحثين عن لقمة العيش وليسوا كذلك من محترفى التجارة فقط بقدر ما كانوا يبتغون البعد عن مناطقهم الأصلية ربما لتفادى ملاحقة العسس وربما للتخفيف من بعض الالتزامات التى تلقى عادة على كل من يقيم داخل مسقط رأسه بشكل يفوق ذلك الذى يختار الغربة حيث تنقص الحساسية وتتضاءل فكرة تصفية الحسابات المعلقة . تلك التى تضاعفت أثناء الفترات الانتقالية التي طالت كل المناطق الليبية قبل أن يستتب الأمن بعض الوقت بمعنى أن سعى هؤلاء الرجال لتوثيق الصلة مع أبناء البلدة قد شكل لهؤلاء الوافدين البديل الوجداني الذى كانوا في حاجة إليه والفراغ الذي كانوا يستشعرونه لقد خفف هذا الجو الأسرى الهادىء من أحزان كثيرة وأندملت بفضله جراح غائرة طالما نشأت عن فقدان الأعزاء وعن بعض المنغصات اليومية التى لايخلو منها عادة مجتمع من المجتمعات ناهيك من أن يكون هذا المجتمع خاضعا لاستعمار بشع وحكم عسكرى

لامكان فيه للقانون بالإضافة إلي وجود أعداد من ذوى النفوس المريضة الذين لاهمّ لهم سوى إثارة الحساسيات والبحث الدائم عن الأخطاء فلاشك أنه واهم أو غير موضوعى في نظرته للناس والدنيا ذلك أن الزمن لايديم الإبتسامة والحياة تسترد دائما ما وهبت . إذ لم تكد تمر فترة من الزمن حتى بدأ الوجه الآخر في الظهور بكل مافيه من قسوة ومرارة وأسى فلقد داهم المرض زهرة التى كانت في ريعان شبابها وقمة تألقها وسعادة الشيخ بها فإذا بها تواجه الكآبة وتشرع في الذبول يومًا إثر يوم . لقد اعتقد البعض في البداية أن المرض قابل للشفاء وأن الابتسامة العريضة ستعود والجسد الغض سيزهو مرة أخرى وأن الموت لن يتمكن من اغتيال ذلك الشباب الفوار والشخصية التى تمازح الجميع وتدافع عما تعتقد أمام الجميع ولكن الأمور مالبثت أن تطورت والمرض الذي عسكر لم يسحب جيوشه وإنما استمر في توجيه ضرباته القوية يوما إثر يوم في شراسة شديدة حتى إنها وعبر أسابيع متتالية مالبثت أن أسلمت روحها الطاهرة للموت ووليدها لم يتجاوز العشرين شهرا منهية فترة من الفرح لم تتجاوز السنوات الثلاث مضت وكأنها بالنسبة للشيخ الحلم الذى داعب الجفون لحظات قليلة مضي بعدها إلى غير رجعة تاركا مكانه للواقع بكل مافيه من مرارة وحزن أن تسيطر على الوجود وتملؤه ظلاما فإذا هى مستنفرة فرت من قسورة واذا بالسامة والإحساس باللاجدوي تعلو كل شئ وبدأ الشيخ وكأنه

قد خسر كل المعارك وأصبح الموت وكأنه الغريم الذي يخطف العروس في ليلة زفافها وسط مشاعر الانتظار والشوق الذي يملأ حياة العريس .

بكى الشيخ يومئذ بكاءً لايوصف وشاركه في ذلك أصدقاؤه وجيرانه وأمضوا الأيام والليالى متحدثين عن المناقب والمآثر كل يحاول تخفيف اللوعة ويسعى إلى المساعدة على تحمل المصاب . مضت بعد ذلك الأسابيع والشهور على نحو لم يألفه الجميع حتى كان يوم حل فيه الشيخ مرفقا بوالدته كما هى العادة لرؤية الوليد فإذا بالحاجة التي يفترض أنها الأكثر شعورا بالحزن وإحساسا بالألم تفاتح الشيخ في ضرورة الزواج وعدم الاستمرار في حياة العزوبة ليس فقط لأن الأمر لايليق بمن في سنه ومنزلته بل ولأن مصلحة الوليد أيضا أن يكون له أخوة آخرون . مشيرة الى إحدى السيدات التى رأت أنها يمكن أن تكون قرينة مناسبة حاثة بكل قوة أن من يوم المسلمين لايحق له أن ينتظر لم تكن بذلك تظن أنها قد أتت بالجديد والشيخ على ماهو عليه من العلم . ولكنها فقط أرادات أن ترفع الإحراج ومعالجة الواقع بما يستحق من الموضوعية خاصة وأنها ستعفيهم من رعاية حفيدها وهكذا وجد الشيخ مفتاحا للتصرف وكان زواجه الذى أثمر مولوده الثانى فخلد به اسم ذلك الذى يلي الشقيق الأكبر حدث ذلك عندما كانت بوادر الحرب الكونية تتضاعف يوما بعد يوم وكانت قوات هتلر في طريقها إلى احتلال أوروبا وذلك بعد أن

احتل موسوليني إثيوبيا منذ مدة وأعلن محور إيطاليا ألمانيا اليابان يوم أن عم الخوف والأسى نفوس كل الناس وفي أنحاء كثيرة من العالم ولكل هواه وتأثيره على حياة الناس جميعا فلقد حل الرصاص محل الحوار وأصبحت القوة خطاب الجميع .

من جهتها حدبت القرينة الجديدة على ذلك الابن الذي فقد أمه لمجرد أن دخلت باب منزل الشيخ موفرة له حنانا أنساه تلك الراحلة والتي لم يعرف سوى ملامحها وإن تكن جدته لأبيه لم تترك أى فراغ في ذلك البيت فصار بالتالي لايطيق الذهاب إلى منزل الجدة الكبيرة إلا قليلاً مفضلاً البقاء إلى جانبها باستمرار لكن الأقدار كانت مترصدة مرة أخرى فلقد تبين أن تلك السيدة تعاني من مرض الصرع وهو يباغتها بشكل مستمر ومن دون أى مقدمات مما أشاع الخوف لدى والدة الشيخ التي خشيت الوراثة وخشيت كذلك أن يلم هذا المرض بالمرأة وهي بصدد الخبز فوق الفرن مما يجعل احتمال وفاتها بتأثير النار من الأمور المحققة فلم يكن أمامها إلا أن تتبنى دعوة ابنها إلى ضرورة الفراق والتخلص من أي إشكال منتظر وكانت مشكلة الشيخ كبيره هذه المرة فهو لا يحبذ أن يقضي عمره بهذه الكيفية زواج وفراق مستمر خاصة أن المرأة على قدر كبير من الأخلاق والعقل ومثال للطاعة والمشاركة وهو كذلك يدرك صعوبة الواقع الذي ينتظر المولود الجديد إلا أنه بالمقابل كان يدرك استحالة مقدرة المرأة على تحمل المسئولية وهى تواجه هذا الداء الخطير الذى

يستحيل معه أى استمرار في المعاشرة لقد مرت به فترة من أصعب الفترات وتعذر عليه اتخاذ قرار في الخصوص فقد أكثر الهيمان والانطواء والخلو إلى نفسه إلا أن الوالدة لم تكن لتسمح له بالمضي في هذا الطريق فغدت تحاصره من كل الطرق وتضغط عليه من جميع الاتجاهات ، وإن الواقع ذاته يعج بالمصاعب ، لقد تزامنت هذه الهموم الخاصة مع الهموم الأخرى العامة بالنسبة للشيخ فهو من الناحية العملية لم ينس زهرة التى حمل لها من الحب ما لايحصى وعلق على زواجه منها من الأمل مالا يوصف كما أنه ما يزال مرتبطا بذلك الجو الذى تركته ومايزال سائدا في البيت الكبير وهو من ناحية أخرى يواجه المشاعر المترتبة على اشتعال الحرب والتى غدت تنذر بهجوم كاسح يمكن أن تتعرض له المنطقة عندما أخذ الطليان يشقون المخابئ في كل الجهات ويزرعون الألغام في كل ناحية والقنابل مخزنة في كل مكان ،كانت المنطقة مقفلة بالكامل والتجوال يتم بواسطة التصاريح وما من شئ في الحقيقة يبعث على الراحة لقد أصبحت الأخبار تتوالى عن دخول بعض المجاهدين الى مناطق محدودة على نحو ما حصل في فزان التى ورد أن عبد الجليل قد دخلها خلسة وأنه قد مر على أحد المتعاونين مع إيطاليا وعرفه بنفسه فعاد ذلك الرجل الى بيته مفجوعا ولم يغادر البيت إلى أن لقي حتفه . ومن جهتها أخذت الموارد في الشح واتجه الطليان إلى الإمساك عن الإنفاق بما في

ذلك الضروري حتى لقد غدا طلب الإحسان من الأمور العادية لدرجة أن غدت حبات التمر من الأشياء التي تدخل الفرحة عندما تعطى من باب الإحسان ، إن المخازن كانت معبأة ولكن الخوف من المجهول الذى تجاوز كل الامكانيات وشبح الحاجة وانقطاع الزاد الذى فاق كل شروط الاطمئنان أدى إلى كل هذه الاوضاع وعندما اشتد الزحف من مختلف المناطق التي تكونت فيها الأهداف العسكرية الكبيرة وفقا لما اقتضته ضرورات المعركة المنتظرة ومواقعها وقوة قصف الطيران لم يجد الطليان غضاضة من اجتياح المزارع للحفاظ على المعدات والدبابات وكل الاشياء الثقيلة مخبأة عن الانظار .

وهكذا تم اجتياح المزارع القريبة الى رؤى أنها تصلح لهذه المهمة العاجلة والمخربة لكل شئ وفي مقدمة تلك المزارع مزرعة الشيخ الملاصقة للحي الأيطالى من الناحية الجنوبية فحلت بها عشرات الدبابات ومئات المدافع والعربات وقد اختيرت الأراضى المزروعة بالقصب والذرة باعتبارها الأصلح للإخفاء والتغطية وكانت الذرة والقصب في موسم الجني وبالتالى كانت الأقدر على تحقيق المهمة ، إنهم ليسوا معنيين بسنابل القصب ولا النخل المثقل بعديد العراجين نتيجة الرى الدائم والتحسين المستمر فما كان يهمهم إخفاء أسلحتهم ولو كان الثمن رؤوس المواطنين الطغاة ولم يكن هناك من يمكنه اللجوء إليه سوى انتظار الاقدار وما يمكن أن تأتي به .

لقد كانت ليلة طويلة حقا من ليالى ذلك الشتاء المبكر والذى اشتد برده وعصفت رياحه حينما ظل الشيخ ساهراً يتضرع إلى السماء . مستنجداً بكل الأولياء الذين عرف أسماءهم ودرس أخبارهم وقرأ أسرارهم وهو يتحرك جيئة وذهابا ومامن أحد معه في بيته سوى تلك العجوز والصغير الذي تركته الأم المتوفاة والأخرى المكتسبة وغدا يدرك بعض الأشياء ويسأل عما يجرى فيعطى له الجواب مرة ويزجر عن السؤال مرات فيهوله ذلك الحزن ويخيفه الإحساس بالألم ويوجع قلبه أن يجد أباه الكبير يبكى ذلك البكاء .

لقد بدأ كل شئ ثقيلا للغاية وحلت المخاطر بالناس من كل جانب وبات شبح الموت ماثلاًولا مهرب منه في كل وقت . . .أخذت إيطاليا تخسر في كل ساعة بل في كل دقيقة موقعا من مواقعها الكثيرة بيد أنها وهى تواجه ذلك المصير سمحت لضباطها الجبناء بأن يفعلوا كل شئ ويستبيحوا كل مكان . . الأموال ، المزارع ، كانت ساعات منع التجوال تتضاعف كل مرة وصفارات الإنذار تطلق أصواتها باستمرار فهى لاتنقطع مرة إلاّ لتستأنف مرة أخرى . وكلما ازداد القلق وكبرت سحابة الحرب لاح في الأفق ما يشير إلى قرب ساعة الشروق المنتظرة لقد امتدت تلك الليلة حتى إنها جعلت النهار يتحول إلى ظلام دامس . .بيد أنها بذات القدر كانت تحمل في طياتها تباشير نور أكبر ومولد ابتسامة أعرض .



3

دعيت الحاجة بهذا اللقب واستغنى به عن اسمها الحقيقي ، باعتبارها المرأة الوحيدة من سكان المدينة الصغيرة التي استطاعت ان تؤدي قريضة الحج في تلك الفترة من الثلاثينيات ، إذ لم تكن أى من مجايلاتها قد تمكنت من تحقيق تلك الأمنية وبالأحرى الفريضة المقدسة ، التي طالما تطلعت اليها لنفوس المؤمنة ، وهفت اليها القلوب الخاشعة وولعت بها الولوع الذي لايداني واشتاقت إليها الشوق الذي لايوصف ، والتي ارتبط أداؤها باليسر ، واكتسب معنى الوجاهة .

إن الرجال أنفسهم كانوا في الحقيقة ، وللأسباب ذاتها ، يعجزون في أحيان كثيرة عن أداء هذه المهمة العظيمة والشعيرة الكبيرة ، حتى إن أكثرهم يخرج من الدنيا قبل أن يظفر بتحقيقها لقد كانت الاستطاعة نادرة للغاية حتي إن عدد الذين أفلحوا في ذلك ، وبسبب صغر المساحة وقلة البشر من السهل جدا إحصاؤهم وتحديد مواقعهم والبحث عنهم بكل يسر .

وقد ترملت في الأربعين إلا أنها من حيث الهيبة تبدو لمن يراها اكبر من ذلك بكثير ، وتعليل الأمر أن الحاجة أو «قنا» كما هو الاسم الحقيقي امرأة متوسطة القامة قمحية البشرة واضحة الجدية لاترى إلا وهي منشغلة في شأن من الشئون

ولاتتحدث إلا هى شديدة الثبات ، صارمة الوجه لاتغشى البيوت إلا في المناسبات المهمة ولاتتوقف أمام واجب المواساة في أى ملمة تلم دون انتظار ذلك من النظائر .

وقد نهضت بمسئولية أسرتها الكبيرة منذ أن أفلح غراتسياني في إعادة احتلال المنطقة فيمادعاه بمعارك الاسترداد في أو اخر العشرينيات عندما قاد حملته الشهيرة نحو الجنوب والوسط ،يوم أن عاقب من رأى أنهم مسؤولون عن استمرار المقاومة ومن بينهم من وصفهم بالمسؤلين عن معركة قارة عافية فقام بشنق العديد من رجالهم أولا ثم أقدم على تهجير بقية السكان في معسكرات الاعتقال الجماعية ، التي أقامها لهم في مدن مصراتة والخمس ثانيا وأجبرهم على السفر سيرا على الأقدام في ذلك الشتاء القارس ، لقد كان دليله الأول ماوجده لدى أولئك المجاهدين من مؤن تأكد بعد ذلك أنها كانت ترسل إليهم من البلدة الصغيرة المرتبطة بأوشج العلائق مع أولئك الرجال الذين آثروا المقاومة ونبذوا فكرة الخضوع والمهادنة ، كانت الابنة الوحيدة لوالدها الشيخ البشير وقد اختار لها ذلك الاسم الغريب على مايبدو من باب التفنن علي اعتبار الكلمة تعني معجميا غمد السيف فهو اسم ربما يليق بالمرأة أي أنها يمكن أن تكون سيفا بسلوكها ، ويمكن أن تكون حاملته باستقامتها وعفتها وربما كان الاسم تيمنا بقناة السويس ، ذلك المجري المائى الخطير الذي عبره الرجل عقب شقه مباشرة عند ما

أدى فـريضـة الحج ، ووقف على مـاترتب عليـه من اختـصـار للمسـافة وسـرعة في الوصـول إلى تلك الديار والعودة منها بما يمليـه الواجب من تعـجيـل الأوبة ، وعلى أى حـال ، فـإن المرأة عرفت بهـذا الاسم الذي رافقهـا طيلة حياتها وحتى بعد أن شاع الحج وتيسـر سبيله وقد بنى بها الحاج العطشـان وهى في سن أصـغر كـريماته ، وذلك عندما توفـيت زوجتـه الأولى بمعنى أن فارق العمر كان كبيـرا للغاية وكان من المفروض أن يعتذر له عن تلك الرغبة ولكن صلة القربى ومكانة الرجل وماتركه السلف ، ومن سنن في هذا الطريق منذ زواج الرسـول بعـائشـة وبقـيـة الصحابة ، أدى إلي أن تكون كل الأمور معقولة ومن النوادر التى تذكـر عنها ، حين سئلت كيف ستدعوه بعد الزواج . وكـانت قـبل ذلك وبحكم التقـاليد تناديه بكلمـة سـيدي وكـان هدف السؤال إحراجها فما كان منها إلا أن قالت :

ـ انقول له سيدي وسويدي !

لقد انجبت من الحاج مايربـو على الخمسة عشـر من الذكـور والإناث ، من بينهم « فـضّيل » الذي جـرى شنقـه ضـمن الذين شنقوا في ذلك اليوم المشهـود وهو الذي يقول البـعض إنه ازاح الكرسي من تحت قدمه ، قبل أن يزيحه شـانقه وكـأنه يريد أن يقول

بيدي لابيدك ياعمرو

وما يرجح هذه الواقعة ماصرح به لوالدته من عزم على فسخ

خطبته التي تمت في وقت سابق من إحدى الفتيات ، حين لاحظ على أهلها شيئا من عدم الفتور أو الضيق بمقدم الإيطاليين وافتتاناً بما رافقهم من بعض السلع التي لاتساوي شيئا أمام ما رافق وجودهم من ذل ومهانة ، الأمر الذي فرض على ذلك الشهيد إحساسا بالندم على تلك الخطبة ورغبة في فسخها لولا أن الأقدار كانت قد جاءت بفسخ أكبر حيث تم اعتقاله مع تلك الكوكبة من الرجال وتقديمه ضمنهم إلى المحكمة الصورية التي قضت بإعدامهم ومن ثم تنفيذ ذلك الحكم. إلى جانب فضيل انجبت الحاجة عددا من البنات والأولاد كان آخرهم ذلك الفتى الذي توفي عقب رحيل والده وهو في بداية العمر وكان الإعدام قد شمل الوالد أيضا إلا أن كبر السن اقتضى تخفيف العقوبة بالسجن المؤبد كما أن صيحات الاحتجاج التي ارتفعت في العالم وداخل إيطاليا ذاتها من جانب القوى الاشتراكية قد أثرت هى الأخرى على مايبدو ويومها اقتيد الحاج محمد لسجون طرابلس إلى جانب عدد من العلماء ، وقد تزامن ذلك مع قرار التهجير الجماعي الذي طال جميع سكان البلدة . وهى الحادثة التي صورتها شاعرتهم خير تصوير ، متناولة جريمة الشنق وجريمة التهجير حين قالت :

خرابين ياوطن مافيك والى / وناسك جوالي / والبعض في المشنقة والقتالى

خرابين ياوطن مافيك حد / وحزنك مجد

وعاد ماقعد فيك غير اللمد / وها المشنقة ماهفتت من ولد /
مثيل الهلالي ولاخلفت زول من لايشالي

ومنذ ذلك الوقت واجهت تلك المرأة مسؤولية تدبير شئون ذلك الخليط العجيب من البشر ، الذين تتكون منهم الأسرة ، ففي هذا العدد البشرى يوجد رهط من البنات والأحفاد ، كما يوجد كذلك المستجيرون والتابعون والأصهار و الرقيق السابق ممن جرى عنقهم وأصبحوا يعيشون أفراد من الأسرة وكان ذلك في الفترة التي جري فيها التهجير فسافرت مع بناتها القصر على السيارات وواجهت يومئذ متاعب كثيرة. ولأنها نصحت بالتوجه إلى طرابلس لمراجعة السلط والاستفادة من الوضع العائلي الصعب ، فقد شحنتهم جميعا إلى هناك لنضع الجميع أمام مسؤولياتهم وليكونوا محرجين إزاء هؤلاء الأطفال علّهم يضطرون للسماح لهم بالعودة من حيث أتوا أو يقرر لهم مايوفر لهم احتياجات حياتهم باعتبارهم قصرا وليس لهم أى دخل سوى مزرعتهم التي أجبروا على تركها والسفر إلى خارج المنطقة ، وقد اضطر الوالي بعد أخذ ورد وتحقيق حول صحة المعلومات التي قدمتها في مطلب مكتوب وتثبت من أنهم جميعا يشكلون أسرة الحاج العطشان وليسوا مستأجرين كما قال أحد المحققين ، وبعد مساع طيبة من بعض الخيرين وتوصية من حسونه باشا تقرر الإفراج عن ذلك الرجل المسن ، ووضع رهن الإقامة الجبرية بحيث تستطيع الأسرة ان تتعيش من دخل

المزرعة وهكذا كان الإفراج وكانت العودة في حين كان تحديد الإقامة في غير محله لأن الرجل كان عاجزا عن الحركة تماما نتيجة السن أولا والمرض ثانيا فقد كان يقضي النهار بالكامل مسجى وفي أفضل الأحوال مُسندا على ظهره على الحائط معتمدا على الحاجة في كل شئ

وقد اشتبكت مع الكثيرين في معارك متتالية شملت التقاليد وشملت السائد ولم يكن لها من معين أو خليف سوى ماجبلت عليه من مضاء العزيمة وقوة التصميم ورجاحة التدبير . وبالرغم من عديد الصدمات وخيبات الأمل ، فإنها لم تتراجع قيد أنملة عن موقفها ولم تتزحزح خطوة واحدة ولم تتأثر رمشة عين فهي بحق امرأة لاتعرف الدموع ، ليس لأنها تمتهن العناء أولا لأنها مجردة من العاطفة وإنما لأنها حين تتخذ قرارها تكون قد وجدت كل مبرراتها المقنعة ومعطياتها الأساسية مما يجعل الأيام تثبت في الغالب سلامة نظرتها وحسن تقديرها

كانت الصدمة الأولى التي واجهتها متمثلة في موت شقيقها الطيب (غشمان) ذلك الذي رحل وهو في ريعان شبابه متأثرا بالعطش في إحدى صحاري فزان بعد أن سلم من الموت حين جرح في معركة محروقة فقطع يومئذ المسافات الطويلة وجرحه ينزف طوال الطريق ولأيام عدة وقد أمكن أن يعيش بعد ذلك ليفارق الحياة من أقصر الطرق ، تاركا وفي حكم الغيب ، خلفه الذي تمثل في تلك الصغيرة التي تولت الحاجة تربيتها على أثر

سفـر الأخ الأكـبـر في الهـجـرة الأخيـرة والذي ترك أيضـا بعض خلفه فشنق فضيل فموت والده وأخيه من بعده .

لقـد اكـسـبـتـهـا الـضـربات المتـتـالـيـة قـدرة على التـحـمل واستوعبت من الأمثال والتجارب والأقاصيص ماشد من عضدها وقوى من عزيمتها بقدر لم يتوفر لعديد الرجال .لقد كان همـها الأول والأخيـر أن تضمن العيش الكريم لتلك الأسـرة وأن تضمن لكل فـرد من أفرادها من الدخل مايصـون لهم ديـنهم وشرفـهم إدراكـا منهـا ألا شَّـرف مـع الحـاجـة ولادين مـع الفـقـر فـبـادرت بالسعي إلى مايضمن الاستقرار مستقبلا ويومئذ استخرجت من البيـت الكبيـر عـددا من الحجـرات التي جرى تأجيـرها لـعديد السكان بمن في ذلك بعض عجائز الطليان ، الأمر الذي وفـر لها بالإضـافة إلى الدخل شيئـا من العلاقـات الإنسانـية التي خـففـت من الأجـواء النفسـيـة التي نتجت عن إعـدام فـضيل وتحديد إقامة الحاج وسفـر كل الأعمام باستشناء بعض القـصر الذين تم اللحاق بهم في منطقة واو حريره ثم إرجاعهم فبدت الأسرة وكأنها قد طرحت من دائـرة من يمكن وصـفـهم بالمغضـوب عليـهم لتـدخل مـستوى المواطنة العادية كأنما كـانت حكمتـها ذلك القول الذي استظهرته وطالما أخذت في ترديده :

اتخذ مع الظلمة سبيلا كي لاتطأك الأقدام

إلى جانب هذه التـدابيـر أحـسنت في اختـيـار من أدار شـئون المزرعة بجدية وثبـات وكذلك متابعة النخيل المنتشر في أمـاكن

كثيرة وقد كانت هذه المزرعة مضرب الأمثال في الجودة ومحط أنظار مختلف الطامعين ، بما في ذلك السلط المحلية التي سيطرت على البلدة طيلة سنوات الجهاد الأمر الذي حدا بالحاج العطشان الى وقفها على الذكور من أبنائه بحيث يتعذر ببيعها وفقا لما تنص عليه بعض المذاهب الفقهية وظلت توالي حدبها وتربيتها لتلك المجموعة من البنات من كن من صلبها أو من أصلاب إخوتها بل وحفيدات زوجها كذلك والزمن يمر ، وفي كل مرة تسعى إلى حل مشكلة من المشكلات وتفلح في تصفية معضلة من المعضلات لتلقي بعد ذلك على عاتقها ماهو أخطر وأصعب ، وقد واجهت في هذه الفترة خصاما مع أحد الذين ربطوا أنفسهم بالسلطة الإيطالية وتهيأ له أن ذلك الارتباط من شأنه أن يتيح له إعادة النظر في عقود بيع قديمة تم إبرامها مع والدته التي كانت تعيش إلى جانب الأسرة فأقدمت على بيع بعض الأملاك التي لايعرف أحد كيف تم الحصول عليها من البداية فما كان من ذلك الرجل إلا أن فكر في الاستفادة من قرابته من أحد العاملين مع الطليان وكذلك عمله هو ليسعى إلى إلغاء تلك العقود بعد أن انقطعت كل المدد التي تجيز مثل ذلك الإجراء غير العادل ، فما كان منها إلا أن رفضت بشدة وحين حاول المسؤول التدخل طلبت إليه أن يبرز وكالة شرعية حتى يمكنه الكلام وذلك علي مرأى ومسمع من كل مرؤسيه وكل الحاضرين لهذا السبب أو ذاك . إن الطلب في الحقيقة من

أبجديات الخصام لكن الذين أرتبطوا بالسلط الإيطالية لم يعتادوا المطالبة به فقد كانوا يفعلون كل مايريدون وحين يواجهون بهذه المواقف فإن ذلك يعني ببساطة شديدة تحجيمهم وهو وضع يأنفون منه ويخشون المواجهة به . ومن هنا فلم يملك إزاء ذلك الموقف إلا أن يلوذ بالصمت ومن ثم الانسحاب من الحديث في الموضوع لأنه بحكم الموقع لايستطيع أن بجرؤ على استخراج مثل تلك الوكالة الضرورية فهو يريد أن يتحيز ويريد أن يمرر برنامجه ويحقق مأربه دون أن يتحمل أى مسؤولية معلنة لأن المباديء العامة بالأساس لاتخوله ذلك وكان هذا الموقف من المواقف المتقدمة التي بدأت تصد ذلك المسؤول عن التدخل وممارسة التسلط في أمور كثيرة طالما حاول أن يتخذ من موقعه سبيلا إليها ، دون أن يكون له الحق في ذلك من الناحية الرسمية . لقد كان يسعى إلى أن يتخذ من مكانه أداة لممارسة التسلط والضغط على أهل البلدة وكان موقف الحاجة من أبرز المواقف التي شكلت البداية بحيث لم يجد أحد بعد تلك الحادثة مبررا للصمت ، أمام أى مظلمة من المظالم المتعلقة بالأمور الشخصية والحقوق الخاصة ، لقد كان الرجل مستفيدا من تردد الناس ومن خوفهم من مواقف أهلهم من السلط الإيطالية في حين كان الأمر مختلفا للغاية ولهذا لم تكد مواقف المرأة تعلن حتى توالت بعد ذلك المواقف المشابهة التي أدت الى وضعه في المستوى المطلوب مجرد موظف مكلف بأمور محدودة

لاعلاقة لها مطلقا بما حاول أن ينتحله من مكانه ظلما وبهتانا .

قامت الحاجة في هذه الفترة بتزويج بناتها الثلاث واثنتين من بنات أخويها .

وكانت الأسرة قد اعتادت أن توفر للبنات كل مايحتجن إليه من الملبس والحلي ، بحيث يكون الذي يختمل على الرجل مؤجلا وفي كثير من الأحيان شكليا لقد كان تقليدا متبعا مع كل الذين صاهروا الأسرة منذ آماد بعيدة لكن المعضلة التي برزت الآن كانت متصلة بابنة أخيها اليتيمة فالحاج محمد ترك كل احتياجات بناته منذ خروجهن إلى الدنيا فكيف يمكن الآن أن يحدث فارق في المعاملة وجميعهن سيخرجن من بيت واحد . وبما أنها لاتقل عن أى منهن جمالا أو عقلا وليس من شئ يحرمها سوى اليتم فقد رأت العمة أن تقوم من جهتها بتجهيز كل الاحتياجات وأن تشترط على من يتطلع إلى الزواج منها مبلغا ماليا تسدد منه تلك التجهيزات . الأمر الذي أثار حديثا ولغطا كثيرا في البلدة باعتبار التصرف لم يكن مسبوقا في الماضي فنظر إليه والحالة هذه كبدعة جاوزت المألوف وخرجت عن الإجماع . وربما ذهب البعض إلى الظن بأنها أرادت بذلك أن تسدد ما أنفقت في الماضي لقد كانت في الحقيقة تدرك تماما أن ما أقدمت عليه سيثير غضبهم ويدعو إلى عدم رضائهم واستهجانهم فكل زيادة في النفقات تعتبر من الأمور غير السارة لكنها لم تدخل معهم في أى حوار ولم تحاول أن ترد على

أى قول من تلك الأقوال غير المسؤولة إلى أن حان موعد الفرح وكان أن فاجأتهم بما أعدت لِتلك اليتيمة والذي لم يختلف في شئ عما أعد لنظيراتها اللاتي جهز لهن من مال والذهن فلم يكن أمام الجميع إلا الصمت

وقد راعت في اختيار أصهارها ما كان الأمر يتطلبه من حسن السمعة والمقدرة والنشأة بحيث جمعوا بين الشيخ الوقور والتاجر الذكي والحرفي الجيد وصاحب المواشي المطلع كأنما أرادت بذلك أن تترك أمامهم الفرصة لاختيار أى نوع من أنواع النشاط يريدون بهدف التعيش من مجموع الدخل كي لاتعيش أي منهن في ضيق ولايواجهن أى صعب لقد كانوا كوكبة فريدة من الرجال ضربوا أروع الأمثلة في التآزر والألفة كلما التأم شملهم عند الحاجة في عديد المناسبات الى تقتضي التقاءهم جميعا وكانت تتفقدهم جميعا وتحرص على أن تقف إلى جانبهم جميعا في كل كبيرة وصغيرة كانت مناسباتهم كثيرة لدرجة أن صار الحديث عنهم وعن شدة انضباطهم مضرب الأمثال حتى لقد وصفوا بـ(عسكرقنا) لقوة ماتميزوا به من الارتباط والتعاون والحرص على الحضور، وعدم التخلف في كل مناسبة من المناسبات لقد كان عالما جميلا ذلك الذي أفلحت تلك المرأة في تأسيسه في ذلك الزمن المبكر من عمر المدينة الصغيرة التي خرجت لتوها من عالم الأحزان وسيطر فيها اليأس على عديد الرجال في حين كانت هذه المرأة تتحدي كل

مظاهر الفشل والانكماش واللاجدوى، تدبير دقيق وتآلف جميل، وتعاون ظاهر في كل الميادين ،امرأة تفلح في تكوين هذا الفريق من الرجال الذين لارابطة لهم من قرابة أو جيرة عدا هذه المصاهرة التي خلقت هذا الجو الحميمي فيتنادون جميعا حاملين اسم القبيلة التي شتت ولم يبق في ذلك الزمن من أهلها إلا من أقعده المرض أو حالت بينه وبين الرحيل عوامل السن حتى إنه لم يكن أحد يمر بالمدينة الناشئة يفصح عن أى علاقة بالأسرة ، حتى يجري استقباله وتقديم جميع ماعساه يكون في حاجة إليه، الأمر الذي ساعد علي بقاء اسم الأسرة في الوجدان من ناحية وعلى حماية الناشئة الجديدة من استشعار اليتم وغياب الأهل من ناحية اخرى

وعند ما أعلن عن فتح باب الحج في تلك الحقبة من الثلاثينات لم تجد غضاضة في التقدم بطلب إلى الجهات المسؤولة لتكون ضمن المتوجهين لأداء فريضة الحج مرجحة بذلك الرأي الشرعي الذي يبيح للمرأة أن تحج عند وجود المحسن بين المسلمين.

إن الأمر لم يجر به العمل في الماضي على صعيد المنطقة وكانت أول امرأة تصدت لهذه المسؤولية والنهوض بالحقوق التي تبيحها الشرائع ويحول دونها التردد وضعف الإرادة وبالأحرى عدم القدرة على حمل المسؤولية وهكذا سافرت ضمن الموكب المتوجه الى مصراتة لتمخر بعد ذلك عباب البحر

في تجربة مثيرة ورحلة استمرت بضعة أسابيع وسط ظروف سياسية صعبة وبوادر حرب لم تعد بعيدة الوقوع بأى حال من الأحوال ، إلى أن عادت وكأنها البطلة التي أذهلت الرفاق بما توفر لها من القدرات وحمل ماعجز عنه الرجال لقد انجزت مهمتها وأدت فريضتها دون أن تثقل على احد . وكانت العودة وسط مظاهر الفرح مقرونة بأجمل الهدايا وأوفرها شاملة بذلك ليس فقط أبنائها وأحفادها بل لقد شملت المسنين من الرجال والنساء يوم جاءت إليهم بقناني ماء زمزم للاحتفاظ بها إلى حين دنو الأجل وهكذا فقد كانت هذه العودة غير عادية لما درجت عليه المرأة من مراقبة الله والغيرة في كل كبيرة وصغيرة والتفكير المستمر في اليوم الآخر الذي لم يفارقها منذ نشأتها الأولى وأصبح الآن يقوى ويتطور لمجرد أن تمكنت من أداء هذه الفريضة المقدسة لقد سر الناس جميعا بهذه المقدرة التي تحلت بها الحاجة وظل الحدث مثار اهتمامهم لفترة ليست بالقصيرة فهدية السرور من المستجدات التي أوصى بها الشارع وتعجيل العودة كذلك وشمول السرور لكل الناس هوالهدف الأسمى والأجمل لقد كانت جميلة بحق تلك الحقبة الزمنية التي عاشتها تلك الأسرة والتي كانت في حقيقة الأمر تمثل النموذج الأفضل لتحقيق صيغة من التعاون المثمر والتكامل المفيد حين كانت لقاءاتهم تصل أحيانا إلى الولايات البعيدة وأحيانا أخرى إلى المزارع وفي بعض المرات أبعد من ذلك وكان التاثير يبدو

ظاهرا في عديد الأنشطة وعديد الممارسات حتى إن المكان غدا يتسع للقاءات لاتتوقف عند الأدوار الأسرية وحسب وإنما تتجاوز ذلك إلى المسائل العامة والهموم الكبيرة وكانت بعض اللقاءات تغطي بغطاء الزردة . وهي عبارة عن وليمة تقام مشاركة بين المجموعة كما نعلم جميعا وكان معظم الذين يلتقون تربطهم صلة من صلات القربى مع أحد الأصهار أو معهم جميعا .

لكن سنوات الفرح دائما محدودة . وتكدر الأيام من طبيعة الحياة وسنن الكون ، إذ سرعان ماامتدت سهام الموت لمجموعة البنات اللاتي كن قد تزوجن متتاليات فكان الموت هو الآخر متتاليا أيضا شأن الفرح الذي كان متتاليا ، بحيث لم يكن القوم يكادون أن ينتهوا من عزاء حتي يبدأ لديهم عزاء آخر ، بيد أن المفارقة كانت في البداية بالصغرى والتي شرعت في الانهيار يوما بعد يوم حتى أسلمت روحها تلتها بعد ذلك الوسطى التي لايتعدى فارق العمر معها إلا قليلا من الزمن تلك التي كان ابن عمها حامد فرحا بها فرحا جما عندما أسندت اليه رئاسة قسم المياه بالبلدية وبمرتب مجز للغاية ظل ينفق منه في سخاء واضح أمكنه بواسطته أن يجلب الفرح الغامر لتلك الحسناء التي مالبث المرض أن فتك بشبابها وأدخلها في دوامة من الحزن والقلق حتى كانت نهايتها المؤلمة في ذلك الصباح وكان أن جاء دور زهراء التي لم يمض على إطفاء الشمعة الاولي لطفلها سوى

بضعة أشهر وإذا بها تواجه المنية التي أناخت بمطاياها عليها وهى في عنفوان الشباب وقمة الفرح بذلك القادم الذي ملأ حياتها فرحا وزهوا وملأ حياة ذلك الزوج الذي ملأ البلدة بعلمه وشهرته وسر الأقربين بمكانته وألجم الحاسدين بهيبته وحسن قبوله. لقد كانت الحياة غادرة حين أنشب المرض مخالبة الشرسة فتحولت الحسناء المتقدة حماسا وذلك الشيخ الممتليء أملا وحبورا بتلك المصاهرة التي تطلع إليها منذ حياته الأولى وها هو الآن يظفر بها بعد ذلك الانتظار الطويل فلم يستطع أمام توالي المرض واشتداده إلا أن يوافق على نقل تلك العزيزة إلى بيت أهلها لعل ذلك يساعد على تحسن أحوالها وفاعلية علاجها ليبقى هو متنقلا هنا وهناك إلى أن حل ذلك المساء الذي لم تكن شمسه تؤذن بالغروب حتى جاء النذير يدعو إلى البيت وقبل أن يتمكن من أداء صلاة المغرب ليجدها عندما وصل وهى تواجه الحمام وجها لوجه فلم يسمع منها سوي كلمة واحدة

«لامين يامختار»

لتسلم بعذ ذلك روحها لمن بيده الأرواح كافة ورحمته وسعت كل شئ

كان شبح الحرب قد أطل وبدأ العالم كله مسرحا للأحداث المؤلمة والهجمات الشرسة وغدا منظر الأكياس المعبأة من الرمال مألوفا بكل مكان والمخابيء التي شقت من الأمور العادية أيضا بيد أن ذلك لم ينل من مسيرة الحياة ، ولم يحل بين الناس

ومصالحهم . ولم تسيطر عليهم كذلك أحزانهم ومن يغيبه الموت فإن أغلب أهله ينسونه كل يوم بمسافة المقبرة التي واروا جسده فيها هكذا يقول المثل الذي تناقلته الأجيال ولأن المقبرة تبعد مئات الأمتار فمن السهل على الأحياء نسيان موتاهم ، مهما كبرت المعزة وعظمت مصيبة الفقد فالاستحالة كفيلة بأن تجعل كل حى قادرا على نسيان موتاه

كانت إجراءات التقشف قد طبعت الحياة وبات من المناظر المألوفة أن يوجد أحد الطليان يطلب مايسد به رمقه من المواطن البسيط والذي كان الى وقت قريب يحتاج لكل شئ حتى إن سيد الأمس لايستنكف من طلب حبات من التمر لقد اعتاد القوم أن يتركوا التمر مخزونا بمزارعهم وبيوتهم وقد عملتهم التجربة أن إخفاءه داخل إكوام التراب من شأنه أن يحميه من جميع الآفات وتفشي الحشرات .

لقد ألفوا معالجة النخلة . اكرموها فأكرمتهم .. حدبوا عليها بعناية ففاضت عليهم بسخاء .. ولهذا فقد أمنوا الشر ولم يخشوه يوما منذ أن امتدت جذوعها رمزا للخلود والكبرياء وكان القصير منها دليلا على استمرار الحياة وعمق الارتباط والحرص على التجديد والاستعداد لعاديات الزمن وماتنذر به الحادثات من نفاد الزاد وخلو الوفاض .

عندما انعدم السكر عوضوا عنه بالتمر .. ويوم أن شح الكبريت عولوا على جذوع النخل فبقيت لديهم النار مشتعلة

طوال الأيام والليالي بل إنهم استطاعوا أن يشعلو شرارتها من احتكاك العراجين لقد كان ذلك ديدنهم قديما وأصبح الآن ملاذهم مرة أخرى حتى عندما نفد التمر كان لهم من ذلك الماء الذي يسكبه جمارها الغذاء الجيد .

أقدمت الحاجة عقب توديع الأحزان على ختان حفيدها وفقا لتفاهم سابق مع الشيخ غير أنه نسي ذلك أو تناسى فاظهر احتجاجه ولم يخف غضبه وكاد الأمر أن يتحول إلى قطيعة لولا حكمة الحاجة وقدرتها على احتواء الأمور وما جبل عليه الشيخ كذلك من سرعة الغضب وسرعة الرضا إن الأمر في حقيقته ليس مقتصرا على هذا الموضوع وحسب ولكنه أبعد من ذلك فهو متصل أساسا بالمزرعة التي أوقفها الحاج على الذكور من أبنائه حارما بذلك أحفاده لبناته من أى إرث وهو رأى تقره بعض المذاهب وترفضه أخرى . وموضوع الطعن أن الوقف لجوازه لابد من المباشرة وطالما أن فضيل قد توفى قبل أن يباشر أى مسؤولية تجاه تلك المزرعة وقبل أن يموت كذلك كما أن أخاه الذي خلفه كان قاصرا فإن الوقف والحالة هذه يعتبر في حكم الباطل وكان الشيخ قد استخرج أكثر من فتوى في الخصوص ولديه شهادات من عديد الرجال الذين أكدوا حقيقة عدم المباشرة وكان ممكنا أن تدفع الحاجة الأمر في ذات الاتجاه ولكنها ولأمور لاعلاقة لها بالفتوى رأت الإبقاء على الوقف مما جعل العلاقة تصاب بشئ من البرود الملحوظ انعكس الى حد كبير علي حياة الصغير

لقد كان الزمن ينذر بصعوبات جمة إذ لم يبق من عائل سوى النخل فهو الحصن الحصين وهو الزاد الوحيد ، إن الناس هنا لايملكون المواشي باستثناء القلة القليلة التي اتبعت نظام الشراكة مع بعض القبائل التي تعيش على الكلأ وتعيش عليه أينما وجد. إن نظام الشراكة أو الموالة كما يعبر المصطلح بسيط للغاية فهو عبارة عن مبلغ مالي يتم تسديده من الممول تشتري به مجموعة المواشي المقررة مضافا إلى ذلك مايحتاج إليه المتكلف بالمهمة من الاحتياجات اليومية بعضها يوجد عينا وبعضها يقدر نقودا بحيث يكون دور الممول محصورا في المصاريف والطرف الثاني من مشمولاته المتابعة واختيار المكان بالإضافة إلى تحديد السلالة وهذا النشاط لايتم إلا عندما يتأكد وجود الكلأ أى عند حلول موسم الأمطار أو بدء هطولها أو ظهور علاماتها ،لأن المتتبعين لهذه الأنشطة والقائمين عليها يعرفون المنازل ويقدرون العلامات ، وحساباتهم في الغالب تكون دقيقة رغم أن أيًّا منهم لايقطع برأى ولكنه يقدم أولا وأخيرا الاتكال على البارىء. إن القاعدة المعروفة تقتضي تسديد المبلغ الذي دفع ويبقى بعد ذلك الناتج شراكة ربما يتطور الأمر إلى كميات أكبر وقد يشمل الإبل بالإضافة إلى الأغنام علي أنه في الغالب لاينقطع أبدا ، وإنما يستمر السنين الطويلة . حتى إن بعض العلاقات يتوارثها الأبناء عن الآباء أو لنقل الأحفاد عن الأجداد فهى بداية الصداقة وربما انتهت الشراكة

وبقيت الصداقة أوالصحبة كما كانت تعرف، والصحبة في الحقيقة نوع من رأس المال فمن يسكن الوادي لابد له من مكان يركن إليه عند حلول الصيف، ومن يسكن القرى يحتاج إلى إصابة في فصل الربيع ايضا . وقد كان الحاج محمد أحد الذين خاضوا تجربة الشراكة إذ لم يتوقف على الفلاحة وحدها بل حرص على أن يكون صاحب مواشٍ وقد دخل في شراكة استمرت سنين طويلة حتى لقد أدت الى مصاهرة أنجزت بعد وفاته احتراما لكلمة سبق له أن وعد بها إلا أن تناقص المطر في تلك الربوع كثيرا ما يحول دون استمرار هذا النشاط أو يحول دون جدواه .

بلغت أصغر بنات الحاج وآخرهن سن الزواج وكانت يومئذ قد استأثرت بكل شئ من سمعة ومحصول دخلها فاقتضى نظر الحاجة ان تزوجها لميلاد ، ذلك الفتى الذي حل بالبيت منذ كان يافعا وتمت تربيته وتدريبه في شؤون الزراعة لقد كان فقيرا معدما للغاية وكان والده قد نزح في سنوات سابقة خارج البلدة مما جعله يحسب من سكان المنطقة المجاورة وقد كان من حيث المقدرة والمهارة والأمانة من العناصر النادرة وأظهر كفاءة واضحة في متابعة النخيل المنتشر في أماكن كثيرة حيث تكثر الأملاك المشاعة والشركات المتداخلة ويحدث أن يحصل الخطأ والضياع مالم يوجد مثل هذا العنصر الذي يفلح في المتابعة والملاحظة ومراجعة كل شئ كان في الحقيقة جديرا بهذه المصاهرة فالمرأة

التي آلت إليها كل هذه الاملاك تحتاج إلى من يتحمل عنها الأعباء وما من سبيل إلى ذلك دون بناء عش الزوجية إذ من الذي يستهدف بمسؤولية متابعة نخيل الحطايا حيث اصطلح الناس على ألا تتجاوز الملكية مساحة ظل النخلة كما يقولون سوى أخ عاصب أو صهر صاحب مصلحة ناهيك من أن يكون على قدر من اللياقة ومتابعة مايكلف به بعيدا عن أى شكل من أشكال الخصام الفاجر والصراع البغيض

لقد كان شابا متوسط القامة واللون والهيأة ولكنه لايملك أى عصبية فالذين ينحدر منهم عضهم الزمن بنيوبه ولم يكن لديهم مايوفرون له فكانت صورته والحالة هذه لدى الزوجة المنتظرة لاتخرج عن هذا الإطار في أحسن الفروص هو بمثابة الأخ في نظر تلك الحسناء أي أنه حسب هذا التصور لايمكن أن يكون زوجا لامرأة ورثت أسرة كاملة لكن الأم القوية والمرأة الحديدية التي اعتادت أن تقرر فتنفذ وأن تأمر فتطاع كانت قد اتخذت قرارها في الخصوص ظنا منها أن الزمن سيتكفل بتسوية كل شئ بما دامت كل الخدمات والواجبات ستؤدي فما الذي يمنع من إتمام الزواج ومن الذي سيحول دون نجاحه .

كانت تقديرات الحاجة مادية للغاية ونظراتها منطلقة من المصلحة وذلك هو التفكير السائد على كل حال إلا أنها لم تقدر المتغيرات التي حصلت في الحياة ولم تلحظ نظائر ابنتها ممن كن أقل جمالا وأضعف تأثيرا وإثارة وتم زواجهن من شباب

ذوى ركائز اجتماعية ولهم بتعبير أدق كيانهم الخاص

لقد أغفل تفكيرها وهي المرأة الواعية أكثر من نظيراتها والعاقلة أكثر من غيرها أن أول ما تحتاج إليه الفتاة حين تبلغ سن الزواج هو الخروج من بيت أبيها والذهاب الى بيت الزوجية المغاير بالضرورة لبيت أهلها كى تكون صاحبة شراكة في ذلك الكيان الجديد وربما كان أول خطأ ارتكبته حين لم تدبر لذلك الفتى بيتا ينشأ باسمه بعيدا عن الأهل الذين سينظرون إليه دائما نظرة العامل ولايمكن أن ينظر إليه كما تريد هى نظرة الابن كما أن خطأها الثاني اعتقادها أن الزمن سيكون دائما لصالحها عندما أكرهت ابنتها على ذلك الزواج غير المتكافيء غير متفطنة إلى أن للزمن تأثيراته وللآخرين كذلك دورهم في تحديد الأمور وتقييم التصرف مهما بدأ للمرء فيه من سلامة .

كانت السنة عند الحاجة تنقسم إلى فترتين أساسيتين إحداهما شتوية تعيش خلالها إلى جانب الأهل مباشرة حيث تتمكن من مواساة من يحتاج إلى المواساة من الأسر كما تواصل كبار السن الذين تفرض واجبات الحياة مواصلتهم ولها في ذلك فلسفة تقوم على عدم التطلع إلى المعاملة بالمثل وقد استطاعت بهذه الفلسفة أن تتجاوز محنا كثيرة وتتجنب عثرات كثيرة كما أفلحت في إقامة شبكة من العلاقات الإنسانية مع المتساكنين قربها والذين كانوا من غير أبناء البلدة من فرض عليهم العمل مع السلطة الحلول هناك حتى إن بعضهم كان

بالنسبة لها بمثابة الابن مثل الترجمان سالم أفندي الذي قدرها كما تعدر الابن أمه ، منذ قدومه من يفرن واستقراره هناك إلى جانب الكولونيل الإيطالي مسخرا نزعاته الخيرة للحدب على مجموعة القصر الذين كانت تؤيهم بجناحها حتى لقد ظل حفيدها يذكر ماكان يقدم إليه من احتياجات الطفولة التي لاتنتهي ولايمكن تلبيتها لمن لادخل له

أما الفترة الثانية فهي الصيفية كما يقولون حيث تقيم مع كامل أسرتها إلى جانب النخيل حيث الريف الجميل وجموع الفلاحين الطيبين الذين يعيشون في المزارع مكونين حيا شبه منفصل له تقاليده وأعرافه وأسلوبه في الحياة

إن المعيشة هناك بسيطة للغاية إذ لايوجد بيوت متواصلة بل توجد مزارع متعددة يعيش داخلها الفلاحون ، الليالي مقمرة والنجوم زاهية متلالئة عبر فصول ثلاثة تحلو فيها الحياة إلى مالانهاية تبدأ عادة من الربيع عند بدء موسم اللاقبي ذلك الشراب اللذيذ الذي تجود به النخلة حين حجمها أوقصها كما يقال هناك فيستخرج منها ذلك السائل اللذيذ الذي يمكنهم بواسطته أن يضمنوا غذاء جيدا فترة تتجاوز الثلاثة أشهر من النخلة الواحدة وهو لايستخرج في الغالب الإ من النخلة المصابة بعاهة من العاهات فتحتاج بالتالي إلى هذه العملية بمعنى أنه يحقق أكثر من غرض شفاء النخلة من ناحية وتوفير ذلك الغذاء من ناحية أخرى وهو يشرب ليلا ونهارا على السواء وألذه ذلك

الذي يصب ليلا والذي يدعى (العتم) اشتقاقا من الفترة على مايبدو على أن الذي يتجمع عقب ذلك فإن مذاقه يتغير نسبيا في حين أن مايبقى للمساء فيتحول الى ما يشبه المسكر ، إن الناس تحرص على تناول ذلك السائل في يومه وكذلك الاهتمام بالنظافة لأن البكتيريا لاتأتي إلا من عدم الغسيل وبالتالي فإن عدم الغسيل جزء من الرغبة في تحويل ذلك السائل الى مسكر ولم تكن ثمة مايدعو الى ذلك على كل حال .

إن هذا الفصل يمتد عادة إلى الصيف حيث يحلو المبيت في ضوء القمر وفوق الرمال النظيفة والمفيدة لتنقية أي جسد من آثار الرطوبة المؤدية للبرد بالضرورة ويختتم الموسم عادة بفصل الخريف الذي ينضج فيه الرُّطَب أولا . ثم يتحول إلى تمر واجب الجني والتعريف إلى جانب الرُّطَب ينضج الفواكه والخَضراوات وبالجملة كل المنتوجات المهمة ، فالصيف هو الموسم الأساسي للفلاحين ولهذا فإن من أراد أن يغير شركاءه في السقي من أملاكه فلابد أن ينذرهم قبل حلول فصل الشتاء لأن من يفلح الأرض في الشتاء فلا يمكنه الاستغناء عنه في الصيف لأن صابة الصيف وهى الأشمل ولهذا يقول الفلاح :

«اللي بغا صابة الصيف يحمل سهور الليل»

يحل في هذا الموسم عادة سكان البوادي وذلك بعد أن تفرض عليهم ظروف المناخ العودة بهدف تصريف مالديهم من انتاج فائض والتزود بما يحتاجون إليه من عديد السلع

ـتوجـات عن طريق نظام المقـايـضـة إذ يأتـي هؤلاء مـزودين
ـيهم من قـمح وسـمن وشـعـيـر ليـتمّ تزويدهم بالـتـمـر
لماطم والفلفل وكذلك الملبوسات المختلفة ليس بالضرورة أن
ـ كل الأشـياء مجتمعة ولا مجيء هؤلاء يتم مرة واحدة فهم
ددون في فـتـرات مـتـفـرقـة وإن يـكـن فـصل الصـيف مـوسم
ـمهم جـمـيعـا ، إن النقـود في الغـالب لاعـمل لهـا ولكنهـا من
ـة أخـرى تـكـون وحـدة القـيـاس حين يتـأمل المرء اخـتـلاف
ميات فحين يكون مقدار القمح مثلا يستبدل بأربعة أضعاف
التمـر فإن ذلك يعني ببساطة شديدة أن الأمـر قـدر بواسطة
ـمن والأمـر ذاته في سلع أخـرى كلمـا في الأمـر أن الموسم
ـفل بوجـود كـل الأشـيـاء المطلوبة بما فـي ذلك قـديد الغـزال
شـتـقـات الحليـب على أن المروءة بين الناس لاتنتـهي وخـيط
ـملة يزداد في كل مرة قـوة جديدة وثمـة إصرار على التـوسيع
ـ المعسـر . إن الحـيـاة في هذه الفـتـرة تتـمـيـز بـكـثـرة الولائـم :
ـ أعلن نذرا للشيخ عـبدالسـلام ، والآخـر يلتـمس بركـة من
ـيخ الجـيـلانـي وهناك من يعـمـد إلى زيارة الحـاج عـمـرو ،أو
ـب قـراءة قصة المولد وربما ختمة القرآن والإنصات إلى تلاوة
ـيخ محـمـد التي تنفـرد عن الجميع بما وهب الله ذلك الشـيـخ
جمال الصوت وعذوبة القراءة.

إن العـلاقـات الإنسـانـيـة بين بعض البـدو وسكان البلدة قـوية
ـاية بعضـها يعود إلى الأرومة الواحدة التي ينطلقـون منها فهم

جميعا هلاليون وسُلميون وبعضها يعود إلى تلك اللحمة التى حققتها مواقف لاحقة تجاه الوجود التركى وما ساده من مظالم أدت ببعض الرموز الوطنية إلى إعلان العصيان والاعتماد على تأييد القبائل العربية وبعضها يتجاوز الأمرين إلى المصالح اليومية وإلى التعاون إزاء نائبات الدهر ومصاعب الحياة انتجت في نهاية المطاف مجموعة من العلاقات الثنائية الرائعة حتى لقد بات من المستحيل أن يوجد من أولئك العرب وليس له من سكان البلدة صاحب يعود إليه كلما صافت أيام الربيع

إن الاعتماد على معيشه الرعي وتربية الماشية وحرث الوديان يرتبط هو الآخر بالظروف في أحيان كثيرة وفي الفترة التي ابتليت فيها البلاد بالسيطرة الإيطالية تاثرت فئات كثيرة بذلك الواقع القائم على اقتصاد الخدمات وشاع التعويل على المرتب بالاخر حين تناقصت الأمطار وذاقت البلاد ويلات الجفاف وقد كانت الحرب الكونية يومئذ تطل برأسها وتوالي نشر أخبارها في الأفاق ويطال أثرها كل مظاهر الحياة وألا أحد يعرف كيف ومتى يمكن أن تتوقف وإلى متى ستستمر والبلدة مكتظة بالسكان الذين جاءوا من كل مكان وذات مرة ارتفع العويل إلى درجة لم يألفها الناس ولم يعرفوها يوما وعندئذ وردت الأخبار عن وفاة البليدري الذي يعرف بالامباس محمد منذ أن حل هناك من سنين طويلة وقدم للأهالي من جليل الخدمات ماقدم يوم أن كانوا معدودين في دائرة المغضوب عليهم

فكان من القلة التي بادرت بالخير ولم تتأثر يوما بالأحكام المسبقة ولم تغمل بأي سبيل على ترسيخ الحساسية

لقد تزوج من البلدة وصاهر أسرة الولي الصالح سيدي جناح الذي تقع قبته بين ثلاث قباب شهد قبة كل من سمي بوالظويرات وابن سرتية وهذا الأخير نسبت اليه مأثورة تخص البلدة وذلك قبل أن يسلم روحه إلى الموت وهو مارٌ من هناك

إنها السابقة إنها اللاحقة

لقد هرع الناس من كل مكان لتقديم العزاء في البليدري وبادر الفقهاء بتلاوة القرآن ترحما على ذلك الفقيد باعتباره من ضمن المواطنين المنتسبين إلى البلدة ومن حقه أن يتمتع بهذه الهدية التي تهدي عادة لكل مواطن وفي المسجد الذي يؤدي فيه الصلوات الخمس

غير أن صفارات الإنذار كانت في طريقها إلى الارتفاع حين كان زاكي اليهودي بهمس لمحدثه بأشياء كثيرة وهو يفتح دكانه الخالي من كل شيء في مدخل الحارة الكبيرة ويقسم بأغلظ الإيمان أن إيطاليا لن تقوم لها قائمة وأن المانيا خسرت المعركة وأن سيارات الإنجليز ستحل بين لحظة وأخرى فإذا ما لاحظ أن شخصا ماقد قرب بادر بتغيير حديثه نحو البيع والشراء وعن التمر ناسيا أن موسم البيع والشراء قد انتهى بالنسبة لمنتوج التمر

كان زاكي هذا يشتري كميات من الشعر والصوف وبعض

الأنواع الرديئة من التمر قيل يومئذ إنه يصنع منها بعض
مشروباته الروحية لكن اللافت للنظر أنه كان يدخل بيته مساء
فلا يخرج إلا صباح اليوم التالي ولايمكن أن يفتح الباب لأى
كان مما دفع بالكثير إلى الإسراف في النميمة بصدد سر هذه
الحيلة لكن الأكثرية كانت ترى أن للأمر علاقة بدنيا الأسعار
وعوالم الحياة المعروفة لدى الكثيرين

كان شتاء صعبا للغاية ذلك الذي أكمل يومئذ شهره الأول
جالبا والخوف باعثا على الانتظار لجميع الكبار الذين كانوا
يعرفون حقيقة مايجرى عكس أولئك الصغار الذين ربما هرعوا
مسرعين حين رأوا والآخرين يهرولون في الشوارع لكنهم غير
مقدرين لما يمكن أن يحصل فيغدو وهو من بين أولئك الصغار
لاهثا لاستسلام حذائه من الأسطى الغليظ الذي وعده بذلك في
اليوم السابق فيلتقى به وهو يحث الخطى مسرعا في اتجاه آخر
فيما يقفل هو عائدا من حيث أتى فإذا ما ولج باب البيت أخذ
كل من الوالد والجدة والفقيه العربي في عناقه فقد تجمعوا يومئذ
مع بعضهم بعضا هالهم ماكان يملأ كل الجهات من لهيب
النيران وقتامة الدخان في حين بقي وحده غير متهيب مما يجرى
فهو لايدرك على وجه اليقين ماكانت تحمل تلك الطائرات التي
تملا عنان السماء محلقة في ارتفاع منخفض للغاية وتخرج عند
مشاهدتها مرتفعة أصواتاً مجهولة .

4

تتداخل الأمور أمامه وتتوالى الأحداث وتختلط الصور وتصعب الرؤية وتبدو الحياة تندر بأشياء كثيرة ، غامضة ومثيرة ، بات يطرحها ذلك الغياب الذي أخذ يتوالى وينال من أعز الذين ارتبط بهم .

لقد غابت عزيزة التي كانوا يختلفون في تسميتها بحكم انقطاع الصلة بين الوالد والوالدة ، فلقد اختارلها من الأسماء «سعده» تخليدا لاسم شقيقته وقبلها جدته لأبيه وسجلها في الأحوال المدنية كذلك ، وظلت الجدة عائشة تدعوها بهذا الاسم كلما جاءت نهارا إلى منزل الشيخ لكن جدتها من الأم ، أصرت على تسميتها «عزيزة» تخليدا لاسم شقيقتها ، أو والدتها ، وقد شاع هذا الاسم لعاملين ، الأول إصرار الجدة والثاني كون الاسم يمت بصلة لمنزل أقرب الجيران والامر في جميع الأحوال لايخلو من النكاية ، فطالما أن الشيخ قد استبدل زوجته الأولى بدون سبب مشروع سوى المزاج الشخصي ، فلا أقل من أن يكافأ بتسمية ابنته الأولى بغير الاسم الذي يحب ! لقد كانت الصغيرة لاتأتي باستمرار ، غير أن الحاجة حين لاحظت تعلق حفيدها بأخته شرعت تحضرها له وتحملها معه إلى مزرعة القصير حين كان ذهابهم يتم باستمرار كجزء من إلهائه عن الأم

التي غابت قبل ذلك .

لقد داهم المرض عزيزه وأقصاها أياما محدودة مالبثت بعد ذلك أن أسلمت روحها ، وذهب الشيخ مرفوقا بابن عمه وجاره بالجنب ، حاملين الفتاة الجميلة بين أيديهم وأخذ هو في السير خلفهم ، حتى إذا ما قاربوا الخروج من السياج طلبوا إليه الرجوع مرفوقا بابن عمه الذين يكبره بعض الشيء والانتظار ببيت الخالة القريب من هناك .

في طريقهم مروا ببيت تسكنه نساء كثيرات ، كن يقفن إمامه حاسرات الوجوه ، يرتدين لباسا يختلف عن لباس من عرف من النساء ويتناولن السجائر في الشارع ، حين وقف إلى جانب بعض الصبية نظرت إليه باهتمام ، حملته احداهن بين يديها قائلة :-

- محلاه .

لكن ابن عمه تفوه بكلمة من الكلمات فابتعدوا جميعا .

رحل أيضاً ابن عمه «محمد» الذي كان شابا ملء السمع والبصر فرغ لتوه من بناء القسم المخصص لسكنه بعد الزواج من أم السعد التي خطبت له منذ مدة وتنادى الناس من كل مكان يبكون ذلك الراحل ، ويحملونه من ذات الشارع ، مانعين الأطفال من السير خلفهم ، وعندما سأل عن الغياب ، قيل له إلى الجنة وكرر متى نلتقي بعزيزة ومحمد قيل :

- بعد عمر طويل

أدرك أن ثمة حاجة إلى الحياة . وأن الموت شيء غير سار ولا يقبله الناس جميعا وأن زهرة «والدته» التي رحلت قبل أن يحتفظ بشيء من ملامحها وقيل له قبل ذلك إن اللقاء في الجنة سيكون كذلك بعد عمر طويل .

لقد عمقت لديه هذا الإحساس «فطومة» الرائعة التي لاتقول مثله ياأبي وإنما تقول «عمي» فمنها أدرك ان أمهما قد ماتت وأن والدها كذلك مات وانه الوحيد بالنسبة لها ، فهو أقرب حتى من الجدة التي تولت حضانتها وتربيتها منذ افتراق أمها من عامر عندما أحسنت هذه التربية ولم تترك لتلك الصغيرة أي إحساس بالغربة سواء وعامر على قيد الحياة أو بعد رحيله هو الآخر .

لقد كانت مشتاقة لفظ كلمة «أبي» وحرمت منها إلى الأبد ، بالرغم من أنها لم تفقد سوى جسده كما يقولون وعدا ذلك فقد وجدت كل شيء مع ذلك فقد كانت تشعره بأنه الوحيد وتبوح له بكل مالديها من مشاعر وأسرار لعلها لاتناسب عمره ، بل من الأكيد أنها لا تناسب ، لكنها كانت تحتاج أن تودعه ذلك السر لقد كان الامل والزاد بالنسبة لها ، ربما لاحساسها أن الجدة هي الأخرى بدأت تكبر وأن علامات الكهولة قد أخذت في الظهور أو أن استشعار المسئولية قد ولد ذلك الإحساس .

ثمة بعض المتغيرات التي بدأت تظهر .. المدرسة التي كان

يتطلع اليها ، قفلت أبوابها أسراب الطلبة الذين كانوا يسيرون حاملين حقائبهم على ظهورهم ويرتدي بعضهم الملابس السوداء لم يعودوا يذهبون لقد يمموا وجوههم جيعا شطر المسجد ، وشطر بيت الفقية محمد الأمين الذي نهض بالتعليم في بيته ، لم تعد أي ألحان تعزف ولا نواقيس تدق ، وصار المكان مهجوراً ، لقد خيل للبعض أن الأمر يتصل بموت «عبدو» الذي سقط يومئذ في ذلك الحفر الكبير الذي منع بسببه المرور بالشارع وظلت صورته موشومة في الذاكرة منذ أن كان يعود برفقة ميلاد من القصير فوق ظهر ذلك الحمار الأشهب الذي ينظر بعين واحدة .

الترجمان سالم افندي رحل من الزقاق هو الآخر ، ووزعت لعب صادق على أبناء الجيران حتى عبدالمنعم وعبدالحكيم ومحمد العارف رحلوا من الزقاق وقيل يومئذ إنهم قد عادوا إلى بلدهم (الزاوية) فعرف يومئذ ان هناك بلدا اسمه «الزاوية» ولم يعد اسم الزاوية يعني فقط ذلك المكان الذي يصلي فيه الوالد وتخرج منه الحضرة لتطوف بالشوارع في الأعياد وليس فقط طرابلس التي قيل له ذات مرة انه ذهب اليها في حين أن الأمر كان لايعدو محاولة إخفاء تلك الزيارة التي قامت بها الجدة «للا حليمة» زوج عبدالجليل وكريمتها حينما تم الإفراج عنهما وأذن لها بالسفر واللحاق بالأسرة وكان أن أعاد لرفاقة تلك الكذبة البريئة حين قال لهم إنه ذهب إلى طرابلس وغدا بعد ذلك في

حكم من يروى كلاما غير صحيح .

لفت نظره بشكل ماكثرة المترددين على البيت في ذلك المساء ، ابتداءً من مجيء ابن عمه الكبير ومعه بندقية على ظهره ماليث أن تركها لوالده ، كان اسم تلك البندقية (دقره) وكان من الممكن أن تعتبر الأمور عادية لولا أن عمه قد جاء هو الآخر بقطعة مماثلة ، كما توالت بعد ذلك زيارات كثيرة ولقاءات مختلفة بعض الذين ترددوا كانوا معروفين من أمثال الحاج الدبري والفقيه البصير وبعضهم الآخر من الشباب الذين كانوا . كما لوحظ - يدخنون أمام الكبار خلافا للعادة ، كان حديث الجميع همسا ومتصفا بالأهمية .

على أن الأمر لم يطل كثيرا إذ لم يكد يحل اليوم التالي وتشرق شمس ذلك اليوم الشتائي حتى ملئت البيوت بأكياس الدقيق وعديد المواد الغذائية والملابس وحتى الأثاث والمواد المنزلية ، حين شاع الخبر في البلدة الصغيرة . أن كل المخازن غدت مفتوحة أمام الجميع ، وكان مصطلح الجميع غينه .. ياغمه .

فلقد انسحب الجيش الإيطالي بالكامل وقرر وفقا للعادة العسكرية - فتح المخازن للناس جميعا كي لايستفيذ العدو من مخزونهم .

لقد تم الانسحاب قبل أن تصل القوات الغازية فواجه السكان وضعا غريبا اقتضى منهم أن يهتموا بأمنهم وأن يحتاطوا لأمورهم وبالتالي فإن انشغالهم لم يكن فقط منصرفا للاستيلاء

على تلك السلع الكثيرة التي وجدت في المخازن ، بل كان عليهم أن يلتفتوا إلى واقعهم ، ومن هنا لم يكترثوا كثيرابذلك الموظف الذي حاول أن يعظهم عقب صلاة الجمعة التي صادفت اليوم التالي ، وإنما خرجوا إلى مكان آخر التقوا فيه كمجموعة اهتمت على الفور بتشكيل جماعات كلفت بالحراسة وأخرى طلب إليها الاستعداد لإبداء المشورة ، ووقع على الفور احكام الحراسة على المنافذ المؤدية من وإلى البلدة .

وحتي لايتعرض القوم إلى ما سبق أن تعرضوا له عشية الاحتلال الايطالي من مظالم وانتقامات كانت إلى حد كبير نتيجة الوشاية وتضخيم الأخطاء ، طرح موضوع الاتصال بالسلطة القادمة فور وصولها ، وذلك عندما اتضح أن الوصول سيكون من الجهة الشرقية ويومئذ تشكل وفد برئاسة الشيخ طلب إليه الاتصال بالإنجليز والاستقبال باسم البلدة جمعاء حتى لايبقى الباب مفتوحا لمن توسوس له نفسه أن يعطي صررة مشوهة عن الناس ، ولم تكد سيارات الإنجليز تصل وبرفقتها ذلك الموفد وتتمكن من رفع علمها على مقر الإدارة في ذلك الضحى الذي صفت شمسه وتبدد غيمه حتى قدمت مجموعة أخرى من السيارات دخلت من الجهة الغريبة ولكنها بقيت بعيدة عن مقر الادارة ولوحظ أن راكب السيارة الأمامي قد عض اصبعه تعبيرا على الحسرة ويومها عرف أن السيارات التي وصلت متأخرة كانت تحمل الفرنسيين الذين دخلوا التراب

الليبي من الحدود التونسية والتشادية وأخذوا يواصلون زحفهم في اتجاه الشمال لولا أن سبقهم الإنجليز إلى هنا .

لقد فرح الناس كثيرا حين وجدوا القادمين يتكلمون العربية ، ذلك أن الجيش الإنجليزي كان مزودا بعديد الخبراء والمهتمين بشئون الشرق أولئك الذين شرعوا من البداية في بحث مختلف الأمور وبالذات المتعلقة بالتصوف وشؤون الدين كان عدد غير قليل من الناس لديهم فكرة عن الإنجليز ، وذلك عندما عرفوهم في المهجر المصري ، وأسلوبهم على أي حال يختلف كل الاختلاف عن المستعمرين الإيطاليين ، فضلا عن ذلك فإن أكثر من قدموا كانوا جميعا من المرتبطين بمراكز البحث الجامعي الذين يهمهم كل ما يتصل بمستقبل المنطقة وماينتظرها من ترتيبات قادمة مماجعلهم ينكبون من البداية على جمع المعلومات ودراسة أحوال البلاد وطبيعة تكوينها وعلاقاتها بالقوى الوطنية والأسماء المعروفة بحضورها في التاريخ المعاصر عبر النشاط السياسي الذي كان معروفاً بالشام والمغرب العربي تلك التي ينتظر التعويل عليهم مستقبلا وقد أدى هذا الفهم إلى الدخول في حوارات معمقة مع كل الفئات وخاصة المستنيرة ، بهدف الوقوف على ملامح تفكيرها وخطوط توجهاتها ومواقفها المتطورة ، في الصراع السياسي القادم الذي يبدو أنه كان مقررا سلفا من قبل الإنجليزي فحتم عليهم ضرورة معرفة صفوة سكان الدواخل ، وطبيعة تكوينها كعينة من عينات

المجتمع الذي تشكل الواحات ملمحا من تكوينه الاجتماعي .

ولهذا لم يعد للسياج الذي أقامه الطليان ذات يوم لعزل مصالحهم ومسؤوليهم أي وجود لمجرد وصول القوات الإنجليزية وغدا الناس يغشونه صباح مساء ومن دون أي ترتيب أو استئذان من أحد ، الصغار يحاولون رؤية تلك المباني والكبار يجمعون بين قضاء مصالحهم ومراجعة شؤونهم والمستخدمون يؤدون واجباتهم الوظيفية .

حتى الدورة التي نظمت لبعض المستخدمين في اللغة الإنجليزية اختير لها أحد المباني هناك ، أسندت إلى مجموعة من الشباب مسئوليات جديدة ،، دعي الأطفال إلى الذهاب للمدرسة عندما كلف كل من خضور والفقيه والعربي بتعليم الصغار .

حين آلمته ثنيتة الأمامية بعض الشيء وهو إلى جانب الجدة عائشة وإلى جانبها شقيقها الفقيه علي بادر هذا بالإمساك بتلك الثنية وتلها بقوة غير مكترث بالألم الذي أحدثته ، فهو لايعرف الأسلوب القائل بترك الإسنان تسقط من تلقاء نفسها ، إذ يخشى أن تظهر الأسنان الأصلية وتبقى اللبنية إلى جانبها ، ويومها أدرك أن كل هذه الأسنان ستستبدل ، وعليه أن يأخذ في خلخلة أي سن تبدأ في الألم حتى لا يتعرض لماتعرض إليه الآن .

كان الرجل مسنا للغاية ، ولكنه ينطوي على شئ من التشبث بالحياة كانت الجدة تكبره بعض الشيء وتحدب عليه

حدبا كبيراً ولكنه شخصية قلقة ، يتلو القرآن كثيراً ويسرع في تلك التلاوة بطريقة عجيبة .

دخل الشيخ هذه الآيام بزوجه الرابعة كانت بكرا ، والعرف يقضي أن يقيم الرجال عرسا عمومياً ، لكن مكانة الشيخ ووقاره حالا دون ذلك ، وكذلك الأمر بالنسبة لوالد الزوج فترك الأمر للنساء فقط لكن ذلك لم يمنع من إعداد البيت إعدادا جيدا يليق بالمناسبة وتلا أصدقاء ، الشيخ وعارفوه واتباعه قصة المولد النبوي ، وحضر الكولونيل الإنجليزي وعدد من المستخدمين الذين جاؤا مرافقين للإنجليز ، وهم مجموعة من غير الليبيين ، كان موقف الأفندي تجاههم متشددا وذلك عندما لاحظ عليهم شيئا من التطاول .

وكما هي العادة تلت ليلة الزفاف ليالي العراسة والتي تستمر بحسب المشاركين فيها ولما كان الشيخ محط أنظار الجميع وتقدير الجميع فقد استغرقت (العراسة) ليالي طويلة أثارت حفيظة البعض .

تجاوزت الأسابيع إلى الشهر والعراسة عبارة عن وجبة ، تقام في فترة أيام العرس ليلا بمنزل المتزوج يدعى إليها في الغالب أي ضيف مهم يكون في البلاد وهي تجمع بين شيء من الطرب فضلا عن الأحاديث المتعلقة بالهموم التي تعيشها المجموعة المنخرطة في هذه الدورة انها تربط أولا واخيرا من حيث عدد المشاركين والأهمية بمكانة الرجل ولأن هذه العراسة خاصة

بالشيخ فقد تجاوزت ماسبقها ولم يصل إلى مستواها من لحقها أيضاً ، فقد كانت جامعة لأجيال مختلفة واهتمامات مختلفة أيضاً ، كانت في حقيقة الأمر عبارة عن اجتماعات دورية منظمة اتخذت من المناسبة غطاء لها إن صح التعبير فثمة يومئذ أكثر من نشاط ، كما أن الصراع كان كذلك على اشده بين دعاة السكونية بالمنطقة والمتطلعين إلى التغيير وإلى الحد من العناصر التي ارتبطت بفترة الحكم الإيطالي وما مارست مارؤي أنه لايصلح للزمن الجديد .

وقد كان الفقيه العربي صديق الشيخ وجاره وعضده الأول أكثر الناس احتفاء بتلك المناسبة وأشدهم حماسا لإحيائها بكل الطرق أعطته المناسبة فضاء للتعبير عما يكنه لصديقه من محبة وحماس لما يمثله الزواج بالأبكار من المعاني الجميلة ولما عاشته من لحظات الحبور والانطلاق والتمرد على الوقار الذي فرضته المكانة الاجتماعية وما كان له أن يطال لولا هذه المناسبة التي لايستطيع المشتاق أن يبلغها ولورصد لها كل مالديه من مال .

لقد عاش الرجل فترة شبابه في برقة واتصل بفئات اجتماعية كثيرة أتاحت له بالإضافة إلى ماسافر من أجله وهو الإسهام في التعليم والتعيش والاطلاع على الأنشطة الفنية التي كان فن الغناء من أبرزها ، مثل الكشك والحجالة والعلم ونصوص الشعر الخاصة بالغزل ، كان قريبه مصطفى أبرز

الشـعـراء هناك قـد أطلعـه على الـكثـيــر وظل يرسـل اليـه كل النصـوص الشعـرية الحديثة المتعلقة بالتـجارب الحيـاتيـة المعاصـرة مثل رحلة الليبـيـين إلى أثيـوبيا ومـا ارتبط بهـا من تجـارب مـريرة ورؤى مـتعـددة ، ومـا لقـيه المسـافـزون من أنواع الهـوان على أيدي الاثيوبيين «الأحباش» الذين كانوا يواجهـون غزوا لاقبل لهـم به ، غـيـر انهـم حين يظفـرون بأي أحـد من الغـزاة فـان الويـل سـيكـون مصيره الذي لافكاك منه وكان مصـطفى قد بعث في تلك الأيام أحدث نـص شعري كتبه الشعراء الشعبيون مجتمعين تناولوا فيه الحـرب التي دارت رحـاها بين قـوات مونتـوغـمـري وروميل الألماني وكـان الخطاب مـوجـهـا بالأسـاس إلى غـراتسـيـاني ذلك السـفـاح الايطالي الـذي عـاث في الأرض فـسـادا ومـارس صنوفـا مـن الظلم والعـدوان تجاه جمـاهيـر الشـعـب الليبي الأمـر الذي بقى محـفـورا بالذاكـرة الشـعـبـيـة حـتـى كـانـت هزيمة إيطاليـا المنكـرة هناك التي أتاحـت للـشـاعـر الـشـعـبي أن يـعـبـر عن مـشـاعـره تجـاه الطليـان الفـاشـست وقـد تضـمنـت تلك الأهزوجـة تصـويرا دقـيـقـاً لمسـار المعـركة ووصـفا لما دأب عليـه العسكريون الإيطاليـون وضبـاطهم خـصـوصـا من تعال وغطرسـة واعـتداء على الأبرياء يقـابل ذلك جبن مـخـز أمام نظرائهم من الأوروبيين والذين عـبـر عنـهـم بقـوة مـونتـوجـمـري الذي لم يسـتطع الإيطاليـون الوقـوف أمـامـه ولا إظهار أي نوع من أنواع المقاومة تجاهه لولا القوات الألمانيـة .

كان أكثر الحاضرين لايعرفون الجانب الفني لدى ذلك الشيخ

ولعل بعضهم قد أحرج حين أخذ الطار بين يديه وربما خيل للبعض أن قصيدة من القصائد ستلقى وإذا بالشيخ على ينشد كلاما معدا وغناء مؤثر اللغاية .

ياماشي قل لغرسياني

ياطاغي وين البراني

وكان ذلك اشارة إلى معركة «سيدي براني» التي واجهت فيها قوات المحور ماواجهت ، والتي لم يستطع الإيطاليون منها تقديم أي شكل من أشكال المقاومة بها لقد انهار ضباطهم انهيارا كان ومايزال مضرب الأمثال لكل من تابع تاريخ معارك الحرب العالمية الثانية .

وقد كان لذلك أثره الجيد في التغلب على سنوات الحزن التي مرت ، وسيطرت على النفوس ردحا من الزمن نتيجة لسيطرة الطلبان وطغيانهم من ناحية ، وما أحدثته الحرب الكونية من مصاعب وهموم من ناحية أخرى ، أما المردود الأشمل ، فقد كان متمثلا في بعث اللحمة بين الأجيال المختلفة لتتعاون جميعا على مواجهة الواقع الجديد الذي ترتب على انسحاب إيطاليا ومجيء الإدارة البريطانية وماأحدثته من تغيير في الهيكل الإداري المحلي .

وقد أبدى الضابط الإنجليزي ، أو الميجر كما كان يدعى سروره بتلك المناسبة وما تخللها من فرح ولهو ويبدو وأن الترتيبات قد اتخذت لكي يحضر باستمرار ، فلقد كان الشيخ

صاحب الكلمة الأولى ، أعداد كبيرة من المواطنين كانوا يحضرون بين الفينة والفينة والبعض يختلي مباشرة بالأفندي ويرجع من حيث أتى والبعض الآخر يطلب الشيخ من الخارج فيشير هذا عن تبليغه باي قادم - توه يظهر له سيدك محمد .

ظهرت مجموعة من الأشعار التي كانت تصف أحوال الناس وما ظهر عليها من تغير بما في ذلك الغنائم التي جرى الاستيلاء عليها عقب خروج الجيوش الايطالية .

وماجسده ذلك الاستيلاء من معاني الرجولة وإمكانية الظفر بكل الأشياء والقدرة على الدفاع إذا لزم الأمر .

كانت هذه الأشعار من انتاج الشباب الذين تفتفت عبقرية بعضهم عن مقدرة فنية لافتة للنظر فقد جمعوا في الحقيقة بين النشاط الفني والسياسي وأظهروا من الانضباط والحرص على الأهل الشيء الكثير لقد كانت تجربة فذة بحق تلك التي قادوها وعبروا عنها أحسن تعبير ، وبالذات عبد الحفيظ الذي تفتقت ملكته الفنية والشعرية بقوة وكان أشد مايؤلمه ويؤرقه أن البعض قد شك في قدرته وظن أن الكلام لغيره من كبار الشعراء السابقين فانشد يومئذا أشعارا كانت أكبر من سنة بكثير تناول فيها هذه الإشكالية التي يبدو أنها أثرت في نفسيته وقد حث زناد شاعريته والهبت حماسها فجاءت أشعاره بالغة الدلالة قوية التعبير صادقة التجوية .

إن كل الأمسيات كانت في واقع الأمر مشغولة بتلك

الأشعار، خاصة أن أفراحا كثيرة قد أقيمت إذ أفلح كثير من الشباب الذين وصلوا سن الزوجية من أداء هذه السنة المحببة والفطرة الإنسانية اللازمة لاستقامة الكون ، وكانت الألحان تجمع بين الاشعار الشعبية التي تناولت المرحلة وعبرت عنها والأغاني التي كانت تسمع من الإذاعة وبواسطة الجرامافون الذي طالما أذيعت بواسطته إسطوانات عبدالوهاب وفريد الاطرش وأم كلثوم التي عرفها الناس في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الفن العربي .

ومن المؤكد إن هذا الأسلوب قد خفف من الإحساس بالفراغ في البداية خاصة عندما أخذت تلكم النسوة اللاتي يعشن في ذلك البيت في الدخول إلى البلدة والاستفادة من الفترة الانتقالية ومن بعض العلاقات الإنسانية القائمة مع البعض .

لم تكن أي منهن تضع على راسها أي قناع ولاتتحرج من مناداتها باسمها وهي تجلس إلى جانب الرجال وتتناول معهم السجاير في عديد الأفراح ، هناك بالتأكيد من كان يواري وجهه وهناك من يعرب عن سخطه وهناك من كان يسره مايجري ويحرص عليه ويدعو اليه ويتشبث به .

وهو يلحظ ذلك كله ويرصده بدقه شديدة .. في العرس الذي أقيم في بيت خال الوالد ، حيث ذهبت الجدة وظلت مقيمة أياما طويلة استغرب أن يكون اسم المرأة مشابها لاسم النخلة : (برنيه) التي نودي عليها في ذلك الفرح وانشأت

تغني وترقص مع رفيقتها تعني اسم تلك النخلة ذات الرطَب الجني ، والذي اعتادت الجدة أن تبعث به إلى عديد البيوت للدعاء بالمغفرة لذلك الفارسِ الأول كما تقول الحاجة باستمرار ، وهو لهذا السبب تمني أنِ يكون اسم المرأة المرافقة «خضراية» مثلا ولكنهم نادوا عليها باسم آخِر وكان الاسم مرتبطا بأغنية جميلة انشأها أحد الشعراء على لسان احد اصدقائها الذي اشترى منها «كاط الملف» فاشتراه عبدالقادر ذات يوم وأخذ يفاخر به دون أبناء جيله وهو يتميز عنهم جميعاً بذلك المظهر المهيب تماما مثلما فاقهم عشية انتصاره في لعبة الصراع كان يمتلك أعرض صدر بين أبناء جيله يقابله ساقان في منتهى الرقة حتى لقد استحق لقب «المحيقن» ومافتيء أن تغلب على الاسم الحقيقي كان من القلة التي لاتمل المزاح ولاتفرق في العلاقة بين القريب والبعيد ، بل والتي ترى في كل سكان البلدة من الأقارب وقد ساعده ذلك على أن يكون صاحب دور إيجابي في كل الأحداث التي حصلت في تلك الأيام .

كان وصول الإنجليز في بداية السنة الميلادية وبما يوافق عيد الفطر فتأجلت بالتالي منافسة الصراع ، تلك اللعبة التي اعتاد الناس تنظيمها طوال ثلاثة أيام كاملة من كل عيد من أعياد الفطر ومثلها من الأضحى .

في هذه المنافسة ووفقا للتقسيم المكاني الذي يحدده شارع الوسط المؤدي إلى المسجد العتيق تنقسم البلدة جهتين : شرقية

وغربية وتبدأ المصارعة عقب صلاة العصر حيث تبدأ المنافسة من الصغار فالفتيان لتصل أخيرا إلى الشباب القادرين بحيث يتقدم اثنان في كل مرة الصدر أمام الصدر واليد تقابل اليد تعلو اليمنى لكل من المتنافسين اليسرى المقابلة وتبدأ المبارزة بالقوة بعيدا عن الخدعة واستعمال اللكز ، أي أن يحاول كل واحد طرح صاحبه أرضا دون أن ينال من أي عضو من أعضائه ان اللعبة لاتعتمد على القوة فقط وإنما تجمع إلى القوة الحيلة أيضاً فهي إذن تحتاج إلى مهارة خاصة أما الانتماء إلى الجهة فلايتحدد من خلال السكن وانما من خلال المولد بمعنى أن من كان مسقط راسه في جهة لابد أن ينتسب إليها ولو تغير سكنه، حتى أن عديد الأمهات حين ينتصر أبناؤهن ويؤتي بهم محمولين على الأعناق وفقا لما يفرض العرف ، فإن تلك الأمهات لا يزغردن لهؤلاء الأبناء الفائزين فيخرج الأباء وحدهم للقاء أبنائهم وكذلك الأخوات إن وجدن إن القرابة تتعطل في هذه الأيام ولاتبقى سوى الإقامة والاقامة وحدها وعندما حل عيد الأضحى أقيمت المنافسة وكان الإقبال شديدا هذه المرة من كل الناس وقد اشتد هتاف الناس طويلا وهم يحملون المنتصر على الأعناق لقد كان هذا المنتصر هو المرموري الذي استطاع أن يطرح منافسه أرضا هو الذي احتفظ بالبطولة نحو ثماني عشرة سنة كاملة ، لكن الاحتفال بالنصر اكتسب صبغة عائلية لأول مرة ، والواقع أن الأمر لم يكن مرتبا سلفا ولكن الصدفة اقتضت ذلك،

فالمرموري يقيم في شارع أغلبه من عشيرته ، وكانت هذه العشيرة منتشية بعودة السنوسي من تشاد أو السودان كما كانت تدعى وكان بعض أبناء العشيرة قد حققوا دخولا جيدة من التجارة أثرت على مستوى معيشتهم ومكنتهم من اقتناء عديد السلع ومن بينها المصابيح التي لم يمض كبير وقت على انتشارها ، ومن هنا فقد بادر الكثيرون عند حمل المرموري بوصفه المنتصر على الأعناق ، وكما يقتضي العرف ، بادر هؤلاء بحمل مصابيح الغار بالشوارع الأمر الذي لم يحدث في الماضى فكان بالتالي سابقة جديدة تضمنت أمرا يتجاوز المالوف والمعتاد .

إن عودة السنوسي كانت باعثة لسعادة الجميع ، فقد كان يومئذ في مرحلة الرجولة المكتملة وكان الوحيد الذي بقي من أبناء عبدالرحمن بالنظر إلى وفاة محمد وغياب عبداللطيف وهو أكثرهم علاقة بأبناء جيله وأقدرهم على صنع العلاقات الاجتماعية ، وكان مرفوقا بأسرة كونها لتوه عقب الهجرة مباشرة قوامها مسعودة المتقدة نشاطا وحركة والتي استطاعت في أيام معدودة من مقدمه أن تشق طريقا فريدا في اقتحام الناس جميعا والارتباط بهم كما لو كانت مولودة بينهم تواسي وتطبب وتغزو المشاعر بطريقة لاتظير لها ، حتى انها تجاوزت كل سابقاتها في الأسرة وكانت لهن في مستوى الحماس الذي أظهره القوم في الاحتفاء بتلك القادمة ، والذي حرص بما تبقى

من عمره على مواصلة مجايليه إينما كانوا لقد تنادوا للاحتفاء به والجلوس اليه ، وسارع هو بالذهاب إليهم في كل الأماكن بل أصر على التحامل على نفسه فلايترك للحزن سبيلا إليها وعلى جسده المقروح بالورم فلا يتوقف أبداً في البداية كان يتحرك بلاعصا وأخيرا صار يتحرك باثنتين ، إلا أنه لايتوقف أبدا حرصا على التمتع بكل لحظة من لحظات العمر وحتى آخر شهقة من الحياة .

نحر الرجل يومئذ الجيد من إبله التي جاء مرفوقا بها ، عندما حل ركبه بالقصير في تلك المزارع الفريدة في الخصب وأنواع النخل من حيث الكم والأنواع ، فقد جرى غرسها في سنوات مضت وكانت يومئذ في ربيع العمر ، وهي بحكم أكرم العهود قبلة الزائريين جميعا إن الرجل لم يأت من هناك مرفوقا بأسرته فقط ولكنه جاء مرفوقا بالعديد من أصهاره الذين إرتبط بهم وارتبطوا به ، عندما بنى وأخوه والفقيه الشاكر أمتن العلاقات في تلك الهجرة التي كان همهم الاول فيها الحفاظ على نقاء الدم وعمق الارتباط بالوطن والأهل بعيداعن أي نعرة من نعرات الجاهلية وضرب من ضروب العصبية البغيضة ، فلاشيء لديهم يمكن أن يثير الشحناء فيما بينهم وليس لدي أولى الأمر إلا مايدعو لتقوية اللحمة والحيلولة الدائمة دون تفشي أي شكل من أشكال الفتنة فالوحدة هي القوة والفرقة هي الضعف ولا أمل في أي دخيل .

الدراجيح (الأراجيح) نصبت بالقصير وفي الأزقة أيضا وأينما وجدت الفتيات وهي العادة المتبعة في ترتيب اللقاءات المنظمة بين الجنسين ببعضهم البعض حيث تكون الرقابة مخولة بالعجائز وكبيرات السن بينهن وفارس الأحلام إن هذا التقليد قصد به على مايبدو تخفيف الكلفة وإقامة العلاقة البريئة وتوثيق الصلة بين الأجيال حتى إذا ما انقضت ساعة أو بعض الساعة ذهب كل إلى طريقه من دون أي أساءة أو نيل من أي شيء .

كانت نائلة قريبة السن من فطومة وقد تطلعت إليها كثيرا وهي تمتطى الأرجوحة التي عقدت بين نخلتين «قرينتين» كما هي العادة حين أخذت تنشد .

مرحب اما

يامرحبا اما

يادور دائر

في حد السودا والسوادينا

عينان سوداوان ، شامة جميلة فوق ذلك الخد الحنطي يقولون إن أباها رحل وتركها لأمها ونهض بالتربية ذلك المزارع الطيب الذي عمل عند السنوسي وأصبح منتسبا إلى الأسرة .. تفتر عن ابتسامة خجولة ، ولمي جذاب ، إلى جانبها بالطبع فتيات كثيرات ، لكنها الأشهر والأكثر قربا لكل القلوب .

يحضر للقاء ابوبكر ومنصور وبلعوط وكثير غيرهم ،

يشكلون تجمعا قريبا من الفتيات وربما اختلطوا جميعا لإنجاز عمل مشترك تسوية الأرض بعد زرع القصب درس الحبوب بالأرجل عقب الحصاد إلى غير ذلك من الأعمال .. يسوقون بالمناسبة عديد الأغنيات لتمضية الوقت والاستعانة على الفراغ بعض الأغنيات معاد وبعضها جديد، إنهم يحاولون أن ينظموا من قرائحهم، إن الكلفة تنتفي عادة في هذه المناسبات تختلط المشاعر عند النظر إلى أولئك الفتيات وتثأر الاسئلة حول أشياء كثيرة قد تخطر فطومة التي لم تغادر البال وقد يرى في بعضهن صورة وربما لالتقاء الصدر بالصدر.

لقد كان صغيرا فلا حرج من دخوله وكذلك بعض رفاقة ، خلافا للآخرين ، إن خيط الأخوة مايزال قويا ومؤثرا ويفوق ماعداه ، لكن الأحاديث ونشاط والجسد والحركة المستمرة تثير بعض المشاعر وتحرك في الغالب سِّراما ، سِّرا يفشل في التعبير عنه ولكنه يبقى موجود على كل حال .

كانت كل واحدة تثير شيئا يخاطب اللحظة يخرج أحيانا باعثا إلى عوالم أخرى عوالم تحيا وتعاش وبلذ للمرء ان يذكر تفاصيلها الكثيرة فالحياة في دنيا الفلاحين عقدة متتالية الحلقات شديدة الارتباط ولاشيء يخفى على الناس باستمرار قد يحدث ذلك بعض الوقت لكن أبدا يتضح ابدا لايبقى سرا محفوظا .

تبدأ احتفالات عيد الفطر بعطلة الأسبوع الأخير من رمضان

حين يأتى الطلبة جميعا بكمية من الحطب لحملها إلى بيت الفقيه الذي يوجب العرف تزويده بحطبة واحدة كل يوم من كل طالب يقرأ ، وعلى ذلك فإن العطلة توجب توفير الكمية مسبقا فالفقيه يحتاج إلى الحطب طيلة أيام العطلة التي يطلقون عليها صفة (التعوشير) .

قبل أن تقفل الكتاتيب ترسم الخاتمة للمبتدئين إن الهدف على مايبدو تدريب الطلبة الصغار على الزخرفة باعتبارها من شروط كتابة المصحف وغيره من الكتب إذ مايزال المصحف المكتوب بخط اليد هو الفيصل في أي أشكال يحدث تجاه الرسم ، بمعنى أن القراءة من الصاحف المطبوعة تعتبر من الأمور المساعدة للطالب أما الرسم فهو ذلك الذي ينقله من المقريء،لأن رواية البلاد المعتمدة لم تطبع في مصحف بعد ....
إن العطلة تبدأ قبل يوم الخامس والعشرين من رمضان ، اليوم الذي يعطي فيه الأطفال كل الأطفال «القلية» من البيوت وهي عبارة عن حبات من القمح تحمص وتخلط لدى القادرين شيء من بذور الحنظل الشهية التي تجلب عادة من مرزق لهذا الفرص .

عندما ذهب إلى بيت «للأفضولة» التي انتقلت منذ فترة من الشارع وقالت له .

- بلغت بمعنى أن الكمية نفدت وأخبر الجدة بذلك ، تحول الأمر إلى مشكلة وهي تقول .

- شن جاب الصغار .

ويومها عرف أن خلافا قد حصل وأن من واجب الصغار البقاء بعيدا عنه .

كانت فضولة امرأة فارهة الطول كبيرة العينين ، ذات صوت رخيم للغاية تقضي الساعات الطوال في نسج الصوف ، كل ما تنسجه يكون محجوزا سلفاً إلى جانبها تقف ابنتها زينب التي تقترب منها في كل شيء ومع كل رنة من رنات الخلالة ترسل ألحانا ذات معاني مؤثرة تجمع كلمات أغانيها بين مايغنيه الرجال والنساء على السواء وكان ذلك محط استغراب البعض من الذين يفقهون الكلمات .

لها في الحديث لوازم خاصة تستشهد بها عند الجدل المشوب بالعتب ، مثل قولها حين تلحظ على صغار السن كلاما يفوق أعمارهم :الباقيل يسمعن من الخوابى اي الصغار يسمعون من الكبار

يقول البعض إنها في عمر زوجها العم بلقاسم ، ذلك الرجل الطيب الذي يثير الراحة لدى كل من ينظر إليه وهو يولي عناية بكل أطفال الشارع حين يعود في نهاية الدوام ويخرج في الصباح واضعا قلمه في الجيب الأمامي من سترته وكان في نهاية الحكم الإيطالي يقف إلى جانب الكولونيل بالشرفة المطلة على الميدان ويترجم الأوامر التي تصدر للناس والكلمات التي توجه في المناسبات ولكن بمجرد مجيء الإنجليزا اختفى من

الشــارع وهجَــر ذلك الـبـيـت الذي لاينـسـب إليـه ولايعـزه وإنما ينسب إلى المالك الذي لم يره أحد من الأطفال ويطلقون عليه اسم (العكروت) الصـغـار لايعـرفـون ذلك العكروت وأغلب الظن أنهم يتخيلونه على هيأة مختلفة من الناس جميعا حتى إنهم يخشون من الكلمة إن باب البيت يكبر كل أبواب الزنقة حتى الجرون الذي يفترض أن يكون في آخر البيت حيث تخزن الغلة هو بهذا البيت يفتح في الممـر الأول وعندما اختـفت من البيت للافضولة والعم بلقاسم من الزقاق ، حل هناك بوشينة الذي كان يقود السيارة الوحيدة التي بقيت بعد انسحاب الإنجليـز من المنطقـة عندمـا أصـبـح يزود المناطق الثلاث بالمياه وذلك حينما أصلحت بعد إصابتها بشظية في الغارة كادت أن تقضي على حياة الرجل نفسه فغدا فيما يشبه القدر يجلب عليها الماء من نبع الحمام لإرضـاء كل الناس ، والجيران أولى بالمعروف وعندما يخلص الماء لايتردد الأطفال من الدخول إلى بيت السيدة زوجة بوشينة والشراب من هناك ، فماء الحمام يختلف كثيراً عن ماء البلدة والسيدة أم الجميع .. أليس اسمها سيدة الكل ؟

في أكثر الأحيان تكون السيدة منهمكة في غزل الصوف ، وربما تجهيز خيوط الشعر ، فهي تحضر لكل هذه الأشياء جز الصوف ، العباء ، حمل الشعر ، لزوم الخرج وتتحدث بإفاضة عن تجربتها في الغربة ، منذ زواجها من الرجل عشية حلوله

بمنطقة زلة التي تنحذر منها ، حين أخذ ينتقل بين المنطقة وبونجيم والقداحية ، مرورا بالجفره طبعاً ، ومع أنها قد اختارت السكن إلى جانب العجوز عائشة التي سافر ولدها إلى الجبل الاخضر وأقام هناك ، فإن السيدة تحرص على دعوة إحدى العجائز الاخريات لتستمع منها أو تتحدث اليها ، وهي تنفق من كل ما تملك بما في ذلك لحم الغزال الذي يأتى به الرجل في أكثر الايام، لم يكن لها من الأطفال سوى فاطمة الشقية أكثر من الجميع لقد كان ملك الموت دائما في انتظار ماترزق به من مواليد ، وقد صممت هذه المرة على تسمية ذلك الذي تنتظره «بالعجيلي» وستقطع التابعة ليعيش وتذبح للشيخ ، هكذا قررت بعد أن نصحت بذلك وقيل لها إن الفقيه العربي نفسه قد فعل ذلك عندما توالى موت مواليده ، وها هو ابنه الآن ملء السمع والبصر وقد كان اسمه الأول «عجيلى» لقد قالت لها الجارات ذلك وأمنت على قولهن وهي الآن تقصُّ مالديها من قصص أمام الاطفال وعلى الأخص ذلك «الصل» الذي طالما ظهر للناس حين يمرون بطريق «زلة» وماجرب من أدوية من الأشجار التي جئ بها من الهروج ومن مدوين ومن بن جحا ، كل ذلك قبل أن يكتشف الديف علاج الديدان التي تؤلم بطون الأطفال من وقود الطائرة ، حين شرع فى إعطاء نصف كوب شاي لكل طفل يشكو من ألم في بطنه ليخرج بعد ذلك كميات كبيرة من الديدان كانت موضع استغراب السكان جميعا .

لقــد سـكن في بيت العكـروت وفي تـلك الأيـام بابـا لامين ، حين رجع من طرابلس وترك عـمله في المحكمة التي كـانت تسـمى نحتـاً أو تحـريفاً من الإيطاليـة (التـريبـنار) ذلك الرجل القـصيـر الأسـود الذي ينظر بصـعـوبة شـديدة ، وقـد كـان زوجـا لامـرأة شديدة البيـاض تدعى عائشة ومعها عدد من البنات ، اللاتي كن ينظـرن إلى أطفـال الشـارع بمثـابة الأشـقـاء ، حـتى إن إحـداهن لاتتـردد في حـمل البعض على كـتفهـا خاصة حين تحتـاج إلى بعث إحـدهم إلى السـوق لشراء حاجة من الحـاجات ويومـئذ استـمعنا إلى أغان غريبة اشهرها أغنية كلماتها

صـارت عـملة في الاوطان

في شارع ميزراني

دبحو زوز انعاج سمان

وخريّف سوداني

ويومـهـا تحـدثـت تلك المرأة كـثـيـرا عن قـصـة الأغـنيـة وظروف العـملة ، ربما اخـفـت بعض التـفـاصـيل عن الأطفـال ، وربما أفلح البـعض فـي التـوصل لمعـرفـة الخريّف السـوداني الـذي ذبح وحـتى المكان الـذي تمت فـيـه العـملة لقـد نقـلت المرأة «أجـواء» المدينة كاملة إلى ذلك الشارع واسـتطاع الجمـيـع استـظهـار بقية كـلمات الأغنيـة والشـخـصـيات التي أشـارت اليـهـا عندمـا كـانت ليـالي الشـتـاء طويـلة ومـا من سـبـيـل سـوى قـصـص الخـالة عـيـشـة التي تحـدثـت بـإفـاضـة عن «فـيـجلة» التي خطفت ذات يوم وعـيـشـة

الغالية، أطفال الشارع يحنون كثيرا إلى جميع من سكن ذلك البيت ، لكن الحنين إلى للافضولة يتجاوز كل حنين ويومئذ مر العم «بلقاسم» وقضى في البيت فترة لابأس بها تناول فيه الغذاء كان الشيخ قد استقبله في جلسة اتسمت بالجدية والتحدث الطويل ، لقد اكتفت الجدة بتقديم الأكل واكتفى هو بحمل كمية المياه الخاصة بالغسل والشرب فقط .

اجتمع في تلك الأيام عدد من الرجال في بيت الشندولي ، الذي لايبعد كثيراً عن المنزل ، كان الشندولي قد انفصل يومئذ عن زوجته الثانية . فى ذلك الاجتماع كانت الأصوات ترتفع وكان أكثرها الفقي العربى الذى هب فى الجميع قائلاً :-

ماذا تريدون من الشيخ أن يفعل ؟

وعندها لم يفه أحد بكلمة ، لقد كان اللقاء مدبراً بهدف الإساءة للشيخ ولكن بعض المواقف حسمت الأمر .

وقد مات الشندولي بعد اللقاء بقليل ولحقت به ايضاً الجدة التى كانت كثيرة الانشغال عليه وشديدة الاهتمام بأخباره بالرغم من البرود الذى انتاب العلاقة والموقف غير الودى الذى انزلق إليه ، وقيل إن قنبلة قد ألقيت على بيت العم ابي القاسم الذى مالبث أن رحل من البلدة وجاءت الأخبار عن وفاته ، وكانت نزعة الأسى حول موته كبيرة والحديث عن خصاله الطيبة يملأ أوساط كثيرة ، اذ لم يتخذ من عمله الإدارى فى أى يوم سبيلا للاساءة لأى كان .

وصل إلى البلدة عدد كبير من الرجال برفقة شيخ يدعى البي حمد ، كث اللحية والعارضين شعره أبيض بالكامل يرتدي ثيابا واسعة ويضع على رأسه طاقية بيضاء مكث مع جماعته في بيت خاص يطلق عليه بالايطالية بيت (الانجنيري) المهندس توافد عليه الناس من كل مكان . أراد بزيارته رؤية الناس والبلد بعد أن تخلص الجميع من السيطرة الإيطالية ، كان قدومه من فزان التي حل بها منذ أيام وأصبح له شأن بها ، فقد حل إلى جانب الجيوش الفرنسية التي اشترك معها في مقاتلة الإيطاليين ، كان الجميع يتحدثون عن طيبة الرجل وعن تنزهه عن جميع المظالم والتجاوزات ، كان الإجماع منعقد على تفرده وارتفاعه على جميع الصغائر التي وقع فيها غيره ، وقد تباري القوم في اقامة الولائم له ولمرافقيه حين يقترب المرء منه يحس أنه في حفرة، جده ، وقد جاء الكبار بأطفالهم جميعا للسلام على ذلك الرجل المهيب .

وكلما قدم اليه اسم من الأسماء بادر من جهته بالترحم على الاسم ، فكانت كل الأسماء على مايبدو تكرارا لأسماء سابقة عرفها الرجل وارتبط معها بوشائج قوية ، فهو يعرف كل الأهل ، وفي الغالب تنهال دموعه وهو يترحم على تلك الأسماء .

عندما جاء دوره لم يترك أحدا لم يترحم عليه ، شهيد عافية ، فضيل الذي شنقة الطليان الجد الذي رحل ، لم يتركه يفارقه منذ تلك اللحظة وظل يطلب اليه البقاء ساعات طويلة، كانت

سنه في حكـم الحفيـد ، لولا أن الرجل لم ينجب في ذلك الزمن اي طفل .

لكن الركب مالبث أن عـاد من حـيث أتى ، وتحـول البـيت الذي سكـنه الرجل إلى مـخـزن من مـخـازن المزرعـة الحكومـيـة وكـذلك حصـل مع بيوت أخرى بدأت بعض الأصـوات تسـخـر حتى ممن اقترب من الرجـل ، إنَّ الناس في الغالب لايستقر لهم حال ، وكل تغـيير في البنيـة الفوقيـة لاتسلم منه معظم البنى الاخرى .

بدأت مـلامح السـيـاسة الإنجليـزية تتـضح بسرعـة ، وكـان شعارها التقشف ، وترك الناس يواجهون مصائرهم بأنفسهم مع الإسراع في الاستفادة من كل ماهو موجود في المستعمرة وكان لذلك أثره في نفسيات الناس ، الذين ليس لديهم تصـور لما كان يجري في العالم ، فقد كان الشعور العام أن الانجليز سيتولون الإنفاق مثل الطليان ، لكن الذي حصل كان مخالفا لذلك وبالتالي فقد جاء الواقع أكثر تاثيراً .

وقد ظهر ذلك بطريقة عجيبة ، اذ شرعت المتاجر في قفل أبوابها ، وأخذ الناس في التناقص يوما بعد يوم ، وقد وصلت وقتئذ سيارات كثيرة قيل إنها لليهودي (حنونة) وآخر اسمه (ناحوم) لأن الشركة المذكورة أشترت كل الموجودات بدعوى أنها خردة في حين أن بعضها قد تم إصلاحه وتم سفر الركاب محملين عليها ، ورأى الناس صورة جديدة لليهودي الذي لم

يتجاوز في الماضي شراء الأصواف والجلود والشعر وكل الأشياء القديمة والذي اعتاد ان يبيع المواد المنزلية ويلبس أردأ الملابس ، فاذا به يرتدي أحدث الملابس .

خلا الحي الذي يطلق عليه اسم «الكانبو» من تلك الأعداد الكبيرة من السكان و لايعرف أحد كيف ومتى جرى ذلك ، ولم يعد إلا الريشي ومختار وعدد من الأطفال الذين انتقلوا إلى جوار الناس وصار من المخيف أن يتوجه الاطفال إلى هناك فالبيوت الخالية قرينة الشياطين .

المدرسة التي طلب من الأطفال أن يتوجهوا إليها قفلت أبوابها ، وعادوا جميعا إلى الكتاتيب ، وذهب خضور إلى بنغازي ، وعاد الفقيه العربي إلى الجامع لتعليم الأطفال .

وتحول ذلك المبنى إلى مخزن يستغل من الشركة التي استلمت بيع المواد المحتكرة والتي تشتري في ذات الوقت ثمور المزراعين .

كل الإنجليز ذهبوا وتم قفل كل البيوت التي كانت مجاورة للسانية والمكاتب التي أطلق عليها في الفترة القصيرة عديد الأسماء والعناوين وكل الأماكن أصبحت شبه أثرية كأن لم تعرف يوما من الأيام حركة أو نشاطا ، أعداد من الشباب رحلوا إلى مصراتة ، ضمن قوة البوليس ، تاركين فراغا موحشا لدى الناس ، إذ كانوا في مقتبل العمر ، وكان التصور في البداية أن تجنيدهم لن يؤدي إلى سفرهم بهذه الكيفية ، ويومها وصف

الشاعر الشعبي تلك الرحلة فيما يشبه الرثاء والحسرة من الواقع الجديد الذي بدأت علاماته غير السارة تظهر من خلال الكساد والسفر الاضطراري .

وحده محمد عبدالرحمن الذي أوكلت اليه الخفارة يطوف باستمرار حول تلك المباني وعصاه في يده ، ولم يكن ثمة من أحد في الحقيقة يمكن أن يمر من هناك ، فالعدد معروف ومن الممكن معرفة الجميع من خلال أثر الاقدام فوق الارض ، لاشيء من السلطة يقى ، عدا القاضي والمدير الذي عين لتوه ونائب العريف أو «الامباشي» كما يقال .

لم يبق من أثر لسوالم والأشهب والوش ، وحتى الحاج رحومة الذي رحل وأبناؤه كذلك المكي وعبدالحميد وآدم وأمهم «المرابطة» التي تزوجها ها هنا وكان الامل في بقائهم جميعا أبد الدهر .

لقد غدا كل شيء ينذر بالكساد والخوف ، وقد زاد هذا الشهر ذلك الانفجار المدوي الذي هز الأرض وملأ لهيبه ودخانه عنان السماء في ذلك المساء الكئيب من مساءات شهر صفر الذي طالما تطير منه الوجدان الشعبي ، باعتباره الشهر الذي تخرج فيه العفاريت إلى سطح الارض ويلحقون الأذى بأبناء الإنسان مالم يتحصنوا بالاستعاذة من الشيطان في كل وقت وعند اقتراب الغروب بالذات ، فالاستعاذة هي السلاح الوحيد لمواجهة أولئك المردة المتربصين ببني البشر قاطبة .

لقد اهتزت الأرض هزة أدت إلى أن تنفتح الأبواب والنوافذ ، قبل أن يدوي ذلك الصوت المرعب ، حتى لقد ظن الكثيرون أن الزلزال آت لاريب فيه ، أما عقب الانفجار وبعد أن عانقت النيران عنان السماء وملأ الدخان جميع أرجاء البلدة فقد خرج الناس على بكرة أبيهم إلى الشوارع تاركين بيوتهم واسقفها وحيطانها مؤثرين أن يلقوا الردى - إذا كان لا مهرب منه ولاحاجة في الهواء الطلق وربما فكر بعضهم أن يغادر المكان تحسبا من حرائق يمكن أن تعم الجميع وكوارث لوحصلت فمن المؤكد انها لن تبقي أو تذر .

لقد استمرت الانفجارات تتوالى طوال المساء وصباح اليوم الذي يليه ، في ذات الوقت الذي كان فيه المذياع الوحيد في السوق يوالي إذاعة اخبار اولئك الذين مايزالون يموتون بالالاف المؤلفة بهيروشيما وناجازاكي ، فضاعف ذلك من خوف البسطاء من الناس تحديدا من الذين وسوس لهم تفكيرهم المحدود بإمكانية ان يكون الألمان الذين عاشوا فترة من الوقت هناك قد خزنوا نوعا من تلك القنابل ، وقد تنفجر الآن لقد تبين بعد يوم كامل أن الضحية هو الدبيري ، ذلك الشاب الذي اختفى من بيته قبل ساعات من الانفجار وعجز الجميع عن الاقتراب منه ، كثيرون كانوا يعرفون أنه توجه إلى ذات المكان ، فقد كان من القلة التي تعرف كل الأشياء المتروكة هناك ، وقد كان كثير التردد على ذلك الموقع ، وما أن بدأت النيران تخمد

وأصوات الانفجارات تنقطع حتى أخذ البعض يقتربون ولكن ماحدث هالهم جميعاً .

لقد تقطع الرجل إربا أربا ، ولم يبق من دليل سوى بعض ملابسه وهي ملابسه العمل ، فضلا عن غيابه من دون الجميع ، اذ إن الكل يعرفون بعضهم ومن يغيب يترك مكانة ، وهو على أي حال أحمد الذي كان ملء السمع والبصر فني الكهرباء الشهير الذي طالما مدها لكل البيوت وطالما بادر بإصلاح المحرك كلما أصابه عطب من الأعطاب ، أحمد الذي كان ينتقل فرحا لاينقطع وابتسامة لاتتوقف وهو يدأب على أداء عمله ، خلقه جميل ، ومثابرة دائمة هشاشة في السلوك وبشاشة في الحياء ، لتوه كان قد تزوج وأقيم له فرح شارك فيه جميع الفنانين ، بحيث لم يتأخر أحد عن الحضور ، كانت ليلة حافلة تلك التي أحيوها منذ أشهر ، لان اجتمَاع تلك الكوكبة يعني أن شيئا غير عادي قد حصل وهاهي الأشهر مضت وكأنها الحلم ، وهاهو حبيبهم جميعا يموت بهذه الكيفية لماذا ذهب إلى هناك ياترى ؟

لقد أخبرهم أنه بصدد إحضار بعض الأدوات التي تستخرج من بعض الأسلحة في حين ظن آخرون أن القطعة جزء من أدوات الزينة ، وهناك من يقول لكن الثابت أن الدبيري قد خرج الآن من الدنيا ، وأن فطومة التي كانت إلى حين محط أنظار الجميع ومثار إعجابهم ومدعاة لمناقشتهم ، ودخل بها في فرح أسهم في

إحيائه الجميع هي الآن أرملة وهو كومة من اللحم الملفوف في قطعة من القماش مسجى ينتظر القبر وعلى هذه الصورة المؤلمة ... ومثلما تنادى القوم إلى فرحه يتنادون الآن إلى ليالي مأتمه، وسط مشاعر الاحساس بالخسارة والإحساس بالخطر الذي ينتظرهم جميعا ... وثمة وساوس بأن الانفجار قد ينطلق في أي لحظة من اللحظات ؟ كانت أصوات تؤكد أن الانفجار لايحدث دون الاقتراب من الموجودات وبأي صورة من الصور، لكن اللحظة في أحيان كثيرة تتجاوز المألوف ويحدث أحيانا أن يسود نوع من التفكير الذي لايقبل بالمنطق أبدا ، كما أن النار يمكن أن تشتعل من أي احتكاك ، كل من لديه قول يقول مايعتقد ولاشيء إلا الخوف على أن ما ضاعف من الإحساس بالفجيعة كون الدبيري بدون إخوة ، فقد كان وحيد والده الذي مات ضمن شهداء تاقرفت وتركه في رحم أمه ، مما جعله يحمل اسم والده ، وهاهو الان بعد أن كبر واشتد عوده وفتح بيت أبيه يموت بهذه الكيفية وقبل أن يترك خلفا من صلبه.

ولم يبق بعده سوى عدد من الأخوات وتلك العجوز التي أنفقت عمرها في سبيل تربيته وبقية أخواته ،ليواجهوا جميعا الحزن والفراغ الموحش لغيابه .

جميع الأئمة حضروا ذلك المساء بمن فيهم الأئمة الذين اجتمعوا عنده منذ أيام قليلة، حين دعاهم للوليمة التي أقيمت بمناسبة مغارسته للشعواني ، تلك المغارسة التي أذنت بالشراكة

بين من يملك ومن لايملك ، من يملك الأرض شـأن الدبيـري ومن يملك الخبرة وقوة العمل وحسن التدبير شأن الشعواني .

إن مـعظم الملاك ينفـرون من هذا الأسـلوب ، ربما لما ينتـج عنه من اشتـراك في ملكيـة الأرض الأمـر المقدس لدى الأغلبيـة ، أما القلة الواعية المتسلحة بسعة الصدر وبعد النظر والإيمان بالتطور الذي طرأ على الحياة فانها تحث عليه بقوة وتدعو إليه بحماس ، لما يفضي إليـه من تقوية العلاقات وتقوية اللحمـة بين الأسـر المختلفة .

جميع أعمام الدبيري الكبار اعترضوا على توجهه هذا ، عندما فاتحهم في الأمر ولكنه اختار هذا الموقف لأنه لايفكر بتلك الطريقة العقيمة التي تسعى إلى أن يبقى الفقير فقيرا ، إلى الأبد ، فهو من المؤمنين بأن القادرين بالأرض والقادرين بالامكانيات العضلية والامكانيات المالية يمكنهم جميعا أن يتعاونوا ويعمرو الأرض وغير الأرض ، خاصة عندمايكون المتقدم للشراكة من أمثال الشعواني وإخوته ، خلقا وقدرة ونقاء، ليس على مستوى الفلاحة وحسب بل وعلى المستوى الوطني أيضا والمشاركة الفاعلة في الشأن العام ، فالدبيري من الذين تعنيهم هذه المسألة ومن المدركين أنها لاتتعمق وتقوى الا عبر العمل المشترك ، كانت حكمته حين سئل :

- بيت رجال ولابيت مال .

لقد كانت البداية حسنة للغاية إذا انجزوا منذ الفترة الأولى

فلاحة كانت حديث الناس جميعا وموضع رضاهم وتثمينهم ، حتى إن الشعراء الشعبيين قالوا بصددها الكثير باعتبار الفلاحة اساس البناء وطريق الاستقرار وكذلك الزواج من النساء ، فالشعواني وإخوته كانوا في سن الزواج ، والفلاحة هي الطريق /

الشعواني يادار سواني
يخمم في ايخاذ النسوان

كان الناس يذكرون ذلك كله عندما لقي الدبيري مصرعه في ذلك المساء وطوال تلك الليلة الشتوية ، وهو الذي ذكرهم بمن رحل على مثل هذه الصورة كالحاج حسين الذي أودى بحياته ذلك الغم الماكر والأعداد الاخرى من الشباب الذين ضاعوا بذات السبب ، ومعظمهم كانوا نهاية الخلف بالنسبة لآبائهم أوامهاتهم الحاج حسين الذي لم يترك سوى فاطمة ، تاجوري الذي كان وحيد والده ، محمد سليم الذي كان الوحيد أيضا ، محمد السنوسي الذي رحل قبل الزواج وغير هؤلاء كثير ، من أخذ المغنون يذكرونهم في المآتم والأهل يذكرونهم في البيوت ، كان الشعور السائد أن إيطاليا لم تذهب حتى تركت من يقوم مقامها في الشر وهو هذا المدفون في الأرض والمزروع في كل مكان .

لكن الأحزان لاتوقف الحياة ، ولا الأموات يظفرون من الدنيا بغير ذكراهم الطيبة ، والأحياء لابد أن يتحركوا و بسرعة

شديدة، وإذا بلغت الأحزان ذروتها بوفاة الدبيري ، أعلن عن فتح باب التقدم لأداء فريضة الحج ، للمرة الثانية بعد خروج الإيطاليين واستقرار الإدارة البريطانية وذلك عندما وقف المدير عقب صلاة الجمعة معلنا عن الموسم وعن الذين تقدموا وقبلت طلباتهم وعلى رأسهم الشيخ ، وهو الذي هم بأداء هذه الفريضة في السنة التي سبقت واضطر إلى التاجيل مؤملا أن يتمكن من حمل والدته أيضاً ، في حالة توفر الاستطاعة وإذا بهذه الاستطاعة تتوفر بطريقة مختلفة وذلك بأن وا ت هذه العجوز المنية ، وابنها مصمم على اصطحابها .

كانت الترتيبات وقتئذ تقتضي أن يسافر الحجاج برا إلى مصر ، ليعبروا بعد ذلك قناة السويس ، وفق تفصيلات ذكرها المدير الذي كان صوته متهدجا وهو يعلن النبأ على هيأة بشارة بالنسبة للخبر والتقدم والقبول ، فالحج ليس من الأمور السهلة ومن يتوفر لديه الاستعداد يستحق التهنئة بحق وهو ك ما يقولون عزيمة قبل أي شيء آخر ، اذ ما أكثر الذين توفرت لديهم الاستطاعة وتأخروا ومالبثوا أن فقدوها لهذا السبب أو ذاك، وهي لاتشمل المال وحسب ولكنها تشمل الصحة والوقت وعلى ذلك فهي توفيق من الباري قبل كل شيء شريطة وجود العزيمة .

لم يتجاوز عدد الذين تقدموا لأداء الفريضة أصابع اليد ، فالسكان قلة والظروف صعبة والتهيب من السفر مايزال

مـسيطرا على الناس ،وكـذلك ضـآلة الامكانيـات أو اتعـدامهـا بالأصح ، فـموارد الفـلاحـة بالكـاد تكفي لاحـتيـاجـات الإنفـاق اليـومي وبأقـل المسـتويات وليس ثمـة مـدخـرات يمكن الرجـوع اليـها مـايهم الجـميع أن هنـاك من سـمحت له ظروفـه بالعزم على أداء هذه الفـريضـة وطالما وجد من يتـوجـه لأداء فـريضـة الحج فإن الفضل سـينوب الجـميع عند التوديع والاسـتقبـال ، فـما بالك أن يكون العـازمون على التـوجه من أمثـال الشـيخ الذي يجـمع الكل على تقديره والاقتداء به ، والمرابط بشـير الذي ينحدر من سلالة الولي الصـالـح «جناح» وكـذلك الشـيخ رحـومـة ، وكـانت فـرحـة المدير أكـبر من أن توصـف ، إذ كان حـديث العـهـد بمنصـبه وكـان يحـتـاج إلى سـفـر أحـد من بـني قـومـه، فـضـلا عن أن يـكونـوا من الذين أخذ رأيهم عند اختيـاره .

ولم يكـد الخـبـر يعلن في المسـجـد حـتى أخـذ النـاس فـرادي وجـمـاعـات في التـردد على بيت الشـيخ وعلى الـزاوية التي ألـت إليه إمـامتـها منذ فـترة ليست بالبعـيدة مهنئين بالعزم على الـسفر داعين ببلوغ المقصـود والعودة المرفوقة بالسـلامة ودوام المسـرة .

بدأت عـديد النسـوة في التـطوع لتـحـمـيص الشـعـيـر وطحنه على الطريقـة المنبـعة عند الجـميع في الاعـتـمـاد على ذلك الغـذاء طوال الطـريق ، إذ لاتـسـمح الامكـانيـات بالطـهي إلا نـادرا وفي أمكنة مـعـينة وربما يقـضـي الناس الأيام الليـالي مـعـتـمـدين على (السـويقة) وحدها .

إنها الفطرة التي فطر القوم عليها منذ أن وجدوا على هذه الأرض النائية والمنقطعة عن شروط الحياة ولعلهم قد جاؤا بها أثناء تغريبتهم الكبرى ضمن الهلاليين .

لقد تصادف أن تم ذلك مع إعادة النظر من قبل السلطات الإنجليزية في النظام الإداري المقرر تطبيقه في المنطقة ، والذي تحدد في سلطة محدودة لم تتجاوز عددا قليلا من رجال الأمن ومسؤول إداري شمولي ، وعدد من المديريين ، وتم بالتالي إلغاء كل المناصب التي شرع فيها عند البداية ، فلا مستشارين ولارئيس كتبه ولا أي توسع ينتج فرصة العمل ، إن الأمر بطبيعة الحال يتصل بتوجهات السياسة البريطانية التي أدركت مبكرا أن مستقبل المستعمرات السابقة لن يكون من مشمولات تلك الدولة منهوكة القوى من جراء الحرب ، كما أنه من ناحية أخرى يتفق وطبيعة المنطقة التي لاتوجد فيها أي موارد نتيجة توالي سنوات الجفاف وانعدام أي دخل يمكن الاعتماد عليه في مواجهة ما تحتاج إليه من خدمات ، الأمر الذي يقتضي أن يقتصر الصرف على رواتب المستخدمين وباقل من القليل غير أن الأمر بدا وكأنه قد تم بترتيب قصد به فريق معين من الناس ، فكان الحج يؤمئذ بمثابة طوق النجاة التي أمكن اللجوء اليه ، لاسيما بالنسبة للشيخ الذي بدا وكأنه قد خسر الكثير ، كما واجه بعض التطاولات التي لم يعصمه منها سوى زاده الصوفي الذي أحسن اختياره .

لقد عادت الأمور القهقري بالنسبة للحج من حيث الزمن ، إذ تضاعفت المدة من الأسابيع إلى الأشهر مما يوجب علّى من يعتزم القيام بهذه الفريضة أن يؤمن قوت اطفاله أولا ، ومع أن الأسرة لم تكن تتجاوز المرأة التي دخل بها الشيخ لتوه واثنين من الذكور وإحدى العجائز التي طلب اليها أن تبقى في البيت مع العائلة من باب المؤازرة ، كما أن شيئا من المؤن قد أمن إلا أن الأيام اثبتت أن الظروف لم تكن مناسبة وذلك عندما حل عيد الأضحى وكانت الأضحية تيسامن المعز ، وأخذت الأمور تتضح أكثر من ذي قبل .

لقد كان ذلك التيس الذي اضطروا لذبحه قد اشترى ليتم ذبحه عند عودة الحجاج ، أما الاضحية فقد كانت مؤمنة في ذكر من الضأن ، لولا أن الموت قد اصطاده ذات ليلة من ليالي ذي الحجة والأسرة تنتظر العيد ولأن الشيخ لم يترك نقودا إذ لم تكن موجودة لديه من الأساس فكانت الأضحية ذلك التيس الذي لم يكن سمينا بالمرة ولكنه أضحية على اي حال .

اصبح يؤمئذ يواجه الواقع بإدراك يختلف عن الماضي ، فلقد عرف أن ثمة شيئاً مابالنسبة للعيد وذلك عندما قدمت إليه الخالة تلك القطعة اللذيذة من اللحم ، فهي على إي حال تحنو عليه كثيرا ، ونتحدث إليه دائماً عن المهدي والريفي ابنيها الذين ذهبا إلى تشاد مع والدهما عبداللطيف ، وكانت الأخبار قد أخذت تتواتر عن وصول الريفي إلى فزان ، هكذا جاءها

البـشيـر ذات ليلة ، لم ينظر إلى المرأة التي دخلت بيت الشيخ كمرأة فهي إلى البنات أقرب ، ونساء الشارع كلهن كبيرات السن ولكنهن لايمكن أن يخاطبن بالاسم المجرد ، الجدة اضطرت إلى الإقامة بالمزرعة فميلاد لم يعد يطيق البقاء هناك ، لان فاطمة تصر على الطلاق ، وليس أمام الحاجة الا مواجهة الواقع وما كان ينذر به من مشكلات بالنسبة للمزرعة التي أخذت نتقادم مثلما تقادم أهلها وذهب بهم الفناء .

كان يؤرقه أيضا ما تتناقله الألسن من هجاء تناول المجموعة وطال بعض علاقات الشيخ ، سواء هو يسمع إلى بعض المترددين على الحاجة والخالات ، او ما كان يقوله بعض الذين يخرجون من بعض البيوت التي يشعر أنها مجندة ، كان يسأل فاطمة التي كانت بالنسبة له بمثابة الأخت لماذا لاتجئ إلى بيتهم وهي تقول له قريبا ، وربما قالت عندما يعود الوالد من الحج فصار ينتظر كثيرا .

أصبح الآن يكتب بواسطة الإملاء ، وبدا يتوقف عند النص يوم أن أملى عليه الشيخ سورة «الحشر» لم يكن لديه مصحف بالمرة ، هو يكتب ويستظهر ومن ثم يمحو ماكتب في اللوح ومن الذاكرة أيضا فقد كان هم المقرىء على ما يبدو أن يعلمه إتقان الكتابة .

كان اليوم مشمسا للغاية في ذلك الضحى الشتائي عندما وقف عزالدين أمام البيت مناديا بأعلى صوته ، وقبل أن يصل

إليه هتف مبشرا بوصول الحجاج ، فترك جميع ماكان لديه من أشياء ليجد مرتفعا ولم يتبين شخصه .

– اللهم اغفر لنا ولكم التي كان يرددها كلما امتدت يد تقبل لتتلوها لحظة عناق طويلة .

وعندما بادر الأفندي لحمله على كتفه ليمكنه من السلام على ذلك القادم المتميز ليختلط الترحيب مع البكاء لم يستطع أن يدرك على وجه اليقين كيف تختلط الأمور لكن الذي حمله على كتفه ولم ينزل من فوق تلك الهامة ، فقد كان في الحقيقة يعبر عن معزة عميقة ، ظلت بعد ذلك تتطور وتسابق الزمن وتصمد أمامه أبدا .

كثيرون هم الذين تنادوا بعد ذلك في اتجاه البيت ، وكانت الطقوس تقتضي أن يمكث الحاج في مكان منعزل عن الأهل للإبقاء على الروحانيات بعض الوقت لما يفرضه الحرص على الاستجابة للدعوة من الأخذ بهذا الفهم ، ويومها كان البقاء بالزاوية القادرية المجاورة والتي توصف بالمدرسة وإليها ينسب الشارع بالكامل ، منصتين إلى عديد الحكايات التي حرص الشيخ على روايتها ، و إلى ما دعاه الشوق إلى نظمة في حق الرسول وآله الكرام ، وعديد الكتب التي أمكنة أن ياتي بها من هناك مع الإحاطة بما جرى للبلدة في غياب الحجاج من أحداث ومستجدات .

5

عنيفة في تأثيرها واثرها سحابة البؤس التي سيطرت على حياة الناس كل الناس خلال الأيام العصيبة من تلك الفترة الحرجة من حقبة الأربعينيات ودفعت بهم إلى تجرع كؤوس من المرارة وصنوف لاتحصى من الأسى والحسرة فملأت حياتهم كآبة ولونت واقعهم قتامة لقاء ماران على حياتهم من كساد وانعدام الجدوى في كل شئ

فعلى أثر التحقيق الذي أجري عقب إلقاء القنبلة المشؤومة على بيت العم بلقاسم وخروج للافضولة وأطفالها مذعورين إلى الشارع وحولهم عديد الجيران الذين رافقوهم في تلك الظهيرة من ذلك الصيف القائظ وانتصار قوات الحلفاء نهائيا في الحرب ونشوب معركة حول الغنائم وما أدى إليه سقوط القنبلة من المسؤولية في عدد من الناس والتهديدات التي أطلقها الكولونيل مللون عندما قال في حشد من الناس إن الحكومة ستضرب بقوة وإن قوتها تشبه الحديد والرد الذي بادر به الاستاذ كامل الذي قال فيه إن قوة الشعب تشبه المنشار الذي يستطيع أن يفل الحديد فقد حصلت مجموعة من المستجدات أبرزها أن الإنجليز قد امتطوا سياراتهم الصحرأوية وقفلوا راجعين إلى مدن الساحل ، مصراتة الخمس وغيرها فبدت المدينة

الناشئة شبه خالية ولم يعد ثم من أحد يشيع الحركة فيها إذ لم يبق سوى أولئك المنحدرون منها أصلا وهم لايشكلون في حقيقة الأمر أى ثقل بشري كما لم تكن لديهم أية مداخيل يمكن أن تؤهلم لذلك وقد أتى القوم على كل شيء مدخر لديهم من المؤن ولم يعد ثمة ما يأتي من هنا أو هناك فلا النقود متوفرة لتشغل في نشاط من الأنشطة ولا المنطقة قادرة على إنتاج أى منتوج بسهولة وأقصى مايمكن أن يقوم به الشاطر هو تأمين احتياجه اليومي الذي يسد به الرمق ويقيه شبح الموت كما أن الناس في الشمال ايضا صاروا لشدة حاجتهم يأكلون الفكريس فما بالك الوسط والجنوب الأقل قدرة بشرا وأرضا على السواء .

لقد تقلصت السلطة المحلية لدرجة كبيرة إذ لم يبق في الدوأوين سوى مالايتجأوز أصابع اليد الواحدة من المستخدمين جميعا ، حتى إن الخريصى الذي كان ضمن مجموعة البوليس القليلة صعد إلى مبنى الادارة وظل يصرخ (أنا وحدي السلطة) وكان ينطق بالإيطالية .

كانت السلطة المحلية مشكلة من المدير الذي عين لتوه والقاضي الذي حل منذ فترة قصيرة وقيل إنه تقلد مسؤولية المتصرف وهي تجربة لم يسبق العمل بها في أى مكان سوى هذه المنطقة بالإضافة إلى نائب عريف بوليس وعدد من الأفراد ، ومكتب البريد الذي أسند للأفندي إثر إلغاء وظيفة الباشكاتب واعتذاره عن قبول وظيفة حارس أملاك العدو

لقد اغلقت بقية المكاتب مجتمعة بما في ذلك الضروري وتركز كل شئ في ذلك المبنى الواقع في الميدان الصغير ومضى كل الذين كانوا يعمرون المباني قبل ذلك إلى سبيلهم كما لو كان ثمة انقلاب قد حصل ، المزرعة الحكومية التي تسقى من ذلك البئر الارتوازي الوحيد والتي تدعى (الفوار) وهى التي استوعبت أعداداً لابأس بها من المواطنين الذين كانوا يعيشون على الزراعة بها استغنت عن هؤلاء الناس، وذلك بعد أن أجرت بثمن بخس بواسطة تدبير سري مع سلطات المقاطعة فكان لذلك الإجراء أثره المقيت على حياة الناس الذين طالما افلحوها ودرت عليهم دخولا جيدة وقدموا للسلطة مردودا حسنا فاذا بها تواجه ذلك المصير لقد استقر هذا التوجه مع إسناد المسؤولية الإدارية للقاضي الذي أطلق عليه البعض يومئذ لقب (بوشنبه) وهو لقب أطلقه الزرقولي الذي لاحظ على هذا الرجل ما يتصف به من حب للذات وإصرار على أن يكون صاحب النصيب الأوفر من كل شئ وصاحب الحظوة الأولى في كل جمع لدرجة أنه كان يؤثر نفسه بأكثر من نصيبه بما في ذلك مسافة الجلسة إذ لوحظ أنه لايكترث بمن حوله من الناس ولو بقى محروما

إن الزرقولي شخصيته ذات ملكات كثيرة فهو شاعر شعبي متميز ، وهو كذلك على قدر وافر من المعرفة وقد تلقى في بداية حياته دورسا كثيرة في اللغة حين عاش إلى جانب الشيخ

مـصـطفى فـالـشـيـخ مـعـروف حين أقـام بمدينة طرابلس طوال العشـرينيـات والثلاثينـات ومن ثم عـاد إلى مـسـقط رأسـه . وهو بالرغم من إهداره لملكته الشعرية في الهجاء وفي عديد الأمور الساخرة ، وعدم توقفه كثيرا نحو مايجب أن يتصف به العلماء من الوقار والرزانة والجدية فإنه من حيث التأسيس العلمى يتوفر في حقيقة الأمر على مستوى جيد للغاية : سلاسة في الحديث قدرة على التخطيط دراية في تحقيق المطلوب ، كل ذلك في إطار أساليب خاصة لايتفطن إليها إلا من لديه خبرة بمعرفة الرجال وقد أسندت إليه في تلك الفترة من انزياح الاستعمار الإيطإلى وظيفة كاتب المحكمة كما أن دوره كان خطيرا في التخطيط لتوزيع المسؤوليات في البداية وكذلك الالتفاف عليها من جهة أخرى ، إلا أنه ما لبث أن تخلى عن وظيفة كاتب المحكمة عندما تبين له ألاّ مناص من الخلاف من ناحية ولدخوله في شراكة مع أحد التجار المنافسين للفريق الاقتصادى من ناحية أخرى من جهته بوشنبه يعتبر شخصية لافتة للنظر ومجيئه للمنطقة أيضا بالرغم من أنه في البداية كان عاديا إلاّ أن توإلى الأحداث ما لبث أن أشار إلى أن الأمر ليس كذلك وبعد التوجهات التى كانت سائرة في اتجاه ترشيح مجموعة من الرجال لاستلام عدد من الوظائف وصل هذا الرجل الغامض الذى لم يكن ـ غداة مجيئة ـ يمتلك مجرد اللباس اللائق فتسند إليه بعد ذلك جميع هذه المسؤوليات ، القضاء الإدارة الشرطة ، مما جعل الشك

يقوى لدى الكثير من أنه على صلة ما بالانجليز وأنها تعود إلى فترة الاحتلال عندما كان بدرس بمصر أثناء تكوين الفرق المدنية ومجموعة الخبراء الذين جاز تحت تسميات مختلفة عند دخول الجيش الثامن ، والتى جاءت من الجهات الشرقية بتسمية معينة ومن الغربية بتسمية أخرى . .مكث في أيامه الأولى مفردا ثم اصطحب في وقت لاحق أسرته واختار منزلا مفصولا عن الناس وقريبا منهم بذات الوقت كان المنزل بالأساس قد شيد للكونيل الإيطالي الذي حكم المنطقة ، وهو منزل حملت نفقاته على الجامع العتيق الذي أعيد تشييده قبل الحرب بقليل وكان ذلك ضمن محأولة جرت لتحسين صورة إيطاليا الفاشية بواسطة مشاريع لم تسلم من الاستغلال من قبل كبار مستخدميها العسكريين والفنيين لتحقيق مكاسب مالية لهم جرى الحديث عنها في حينها حين بدأت بعض الأسرار في الظهور أو الاكتشاف

إن المنزل في الحقيقة ليس بعيدا عن الجيران ولكنه كذلك لا يتصل بهم فهو يوائم نزعة الرجل والمتصفة دائما بالحذر. إن الذي ضاعف من هذه المشاعر وساعد على تقويتها بصدد الصلة مع الإنجليز هو أن المخطط أو النظام الإداري الذي طبق تسربت المعلومات عنه من قبل العاملين مع الجيش البريطاني المشارقة واليونانين الذين قدموا من المشرق العربي من الذين لم يخفوا تبرمهم من أى عنصر محلي يلحظون عليه أى شكل من أشكال

النزوع نحو الأستقلال على نحو مافعلوا مع الباشكاتب الذي اختار طريقا مستقلا في العمل وأطلق عليه المتصرف الإنجليزي لقب الأفندي وفقا للتقاليد المعروفة فما كان منهم إلا أن بذلوا عديد الجهود للإيقاع بينه وبين العاملين وعدد من المواطنين إلى أن وصل الأمر إلى إلغاء الوظيفة كليا بالمنطقة عندما اعيد التنظيم الإداري الذي حمل أصابعهم وكان مثار استحسانهم جميعا

وثق الرجل صلته من البداية مع المجموعة الأقتصادية الناشئة التي أفلحت في استئجار المزرعة واضطلعت بمسئولية توزيع المواد المحتكرة السكر والتبغ ، كما تبني بحماس شديد فكرة احتكار تصدير التمر من المنطقة إلى مصراتة تلك الفكرة التي قوبلت بمعارضة شديدة من معظم الأهالي يتقدمهم التجار بالطبع ، وتحقق بسببها إجماع بين الأكثرية لما ينتج عن الاحتكار من قصر للمكسب على المحتكرين من ناحية ومايؤدي إليه انعدام المنافسة من انحطاط سعر الشراء من ناحية أخرى

ويومها تنادي الجميع إلى تقديم تظلم إلى السلطات ، تم تحريره باللغة العربية والإنجليزية ، وجرى التوقيع عليه من جميع المعنيين، تجارو ملاك ومختارين وأئمة كان التصور في البداية أن الأمر يتصل بخلاف بين التجار ، ولكن اتضح بعد أول محأولة اعتراض أن الرجل علي صلة قوية بالتوجه وصار بالتالي يواجهه بكل قوة ، عندما بدأ بالتحقيق مع الموقعين على التظلم

لمعرفة محرره ، إذ عمد إلى مساء لتهم عن عبارات معينة ليصل بواسطتها إلى معرفة المحرر الحقيقي للتوجه. إن الأمر ليس عسيرا على كل حال ، ففي كل مجتمع يمكن الوصول الي أدق الأسرار فما بالك المجتمعات الصغيرة وفي أمور يتحدث بصددها الناس كثيرا

كانت النية متجهة إلى ملاحقة الزرقولي بوصفه موظفا عموميا أقحم نفسه في خلاف بين السكان ولكن الرجل انتبه لذلك سلفا وذلك بتقديم استقالته من الوظيفة المذكورة إلا أن السلطة لاتعجز حين تريد ، ولذلك فقد اعتبر من مثيري الشغب ، وصدر قرار بإبعاده من المنطقة نهائيا لقد كان القرار غريبا للغاية ، فهو من مواليد المنطقة فبأى حجة اتخذ القرار كان ذلك سؤال الكثيرين ومع ذلك فلم يكن له الوقع الذي يوازي خطورته وتقدير ذلك أن الزرقولي قد أظهر في البداية ميلا نحو هذا الرجل وآزر التوجه الرامي إلى إلغاء بعض المراكز وترسيخ الفكرة القائلة بضرورة أن يكون المسؤول المحلي من خارج المنطقة كما أن أخرين لم ينسو ما ساق من هجاء نحو الشيخ وما أظهر من تعبيرات فاحت منها رائحة الشماتة الأمر الذي لم يكن في حقيقته سوى تعبير عن موجده رخيصة وتنفيس عن فشل مني به تجاه المنزلة المرموقة التي حظي بها الرجل والتي يمكن أن تبلغ من كل من عمل بما علم الغريب أن قرار الإبعاد قد تم بناء على شكوى موقعة من عديد العناصر ،

ومع ذلك فقد كانت خالية من كل الذين أساء اليهم ونال من سمعتهم في لحظة من اللحظات بمن فيهم الشيخ الذي امتنع عن اتخاذ أى ردة فعل شخصية مكتفيا بما أبدى السكان من قناعة بأنه لم يلق مالقي لو لم يقترب من ذلك الرجل

الدراسة كذلك لم تستأنف كما جري في بقية أرجاء البلاد حيث شرعت المدارس في استقبال طلبتها عقب الاحتلال البريطاني مباشرة إذ بقيت الأمور معطلة بالكامل ويقول بعض المقربين أنه قد عمد إلى تعطيل الدراسة بحجة عدم وجود العدد الكافي من الطلبة كلما طلبت السلطات منه رأيا في الخصوص أما السر الحقيقي فمرده إلى الرغبة في عدم مجئ أى عناصر متنورة فالمدرسة تحتاج تحت أى ظرف إلى عدد من المعلمين وهؤلاء سيكون لهم تأثيرهم في حركة الحياة لقد كان شديد الضيق من أى عنصر واع بمن في ذلك الموجودين في بلادهم ، فكيف لايحول دون مجيئهم من جهات أخرى

لقد ظهرت هذه النزعة من البداية ومن الأشياء الصغيرة ثم أصبحت تتطور مع الزمن .

ظهرت من جديد لعبة الشيزا التي كان بعض القوم يستعينون بها على قضاء أوقات فراغهم في زوايا الأسواق كل يوم والتي جرى تطويرها والخروج بها من البدائية إلى شكل اكثر جمالا . وذلك عندما تم حفرها على لوحة من الخشب وأصبحت توضع فوق المناضد بدلا من التراب ، ويتبارى القوم

والمستنيرون خصيصا على لعبها كل مساء فتغريه الجلسة في بعض الأحيان بالجلوس والمشاركة فيظهر حسرة لانظير لها حين يعجز عن كسب المعركة ويأخذ في المعأودة المستمرة إلى أن يحقق أول كسب فيذهب إلى بيته، حتى أن البعض أصبح حين يمل من جلسته يمكنه من تحقيق نصر مفتعل ليضمن بعذ ذلك ذهابه المسرع

لقد كانت كل الممارسات توحي برغبته في أحكام العزلة علي المنطقة ومحأولة الحيلولة دون التعرف على أى طرف من أطراف صنع القرار وقد كان أشد ما أغتاظ منه عارفوه والقريبون منه، ذلك البرود الذي قابل به قرار السلطات البريطانية (غير المكتوب) والقاضي بنقل محرك الكهرباء إلى إحدى مدن الساحل، والذي كان الأول من نوعه الذي مدت منه الكهرباء بالمنطقة من المناطق الليبية وشمل ذلك التيار القادرين من الناس وأمكن الحفاظ عليه بعد خروج الطليان بواسطة الفنيين المحليين إذا به الأن ينقل إلى مكان آخر دون أن يعلم بذلك احد ، وهو الذي كان مثار إهتمام المجتمع بمن فيهم الشعراء الشعبيين الذين كتبوا عنه أجمل الألحان في فترة الأربعينيات لقد كان التواطؤ واضحا للغاية حتى أن أحد الناس صاح أمام الجميع حين كان ذلك الرجل مارا بالسوق أيده فيها للباط .

أخذ بعض المهاجرين يعودون إلى الوطن وأخذت الأخبار

تتوالي عن عودة أسماء كثيرة البعض يمكن من السفر والبعض الآخر يكتفي بارسال خطاب لمن يريد فكان بعض هؤلاء مصحوبا بمرافقين كثر وكان أكبر ركب مرّمن هناك ذلك الذي قدم فيه الحاج يوسف والذي هاجر في وقت مبكر ربما قبل إنسحاب عبدالجليل وقد أثيرت يومئذ مسألة ترجيع الأملاك التي صادرها الإيطاليون وابتيعت من قبل البعض إما لأنهم يملكونها من البداية أو جرى الاستغناء عنها ومن بين الذين دعوا إلى ذلك وبإصرار شديد الشيخ محمد، الذي عاد يومئذ ودخل في مناقشات كثيرة وجدل لم يراع ما أظهره الأهل من ضيافة وحسن استقبال .

لقد كان المؤمل عبر الأحاديث التي سيقت أثناء جلسات الضيافة بصدد الفترة التي انقطع فيها الأهل ، وتفرق الشمل وتشتت الجمع يوم أن تألم الصديق وشحت الموارد ألا يثار هذا المطلب الذي هو بالتأكيد في غير وقته وليس ثمة مايدعو إليه خاصة وأنه لم يرتبط بتسديد مادفع إلى الايطاليين ولكن محدودية النظرة وانعدام التفكير وغياب الناصح زين هذا التوجه لقد كان القوم على علم تام أن هناك سلطة تدير شؤون البلاد وأن مابادر به البعض من قبول الطلب هو من قبيل الوفاء للماضي بأكثر مما هو مراعاة للحاضر هو احترام لتاريخ فيه الإيجابي الكثير وفيه السلبي الأكثر، ولكن الرجل لم يضع في اعتباره تلك المتغيرات فما كان يهمه أن ترجع الاملاك لا أقل

ولأكثر لقد قبلَ الفكرة من قبل ورفض من رفض ولم تكد المعلومة تصل إلى القاضي حتى كان موقفه الصارم الذي بلغه لكل الناس والرامي إلى عدم إرجاع أي شئ تم بيعه وسدد ثمنه لقد كان يحمل في أعماقه عداء كبيرا لهولاء جميعا لافرق لديه بين من هو هنا أو في مكان آخر وعندما تناهتِ إليه بعض المعلومات عن الامعان في المطالبة بالترجيع واللجوء إلى بعض التهديدات ، ماكان منه إلا أن أصدر أمرا بإلقاء القبض على ذلك الرجل غير متهيب من أى مكانة تاريخية كاد الأمر أن يصل إلى مرحلة التنفيذ لولا أن رأى المدير وبعض الوطنين ضرورة تسريب المعلومة مما دعاه إلى الخروج ليلا ومغادرة المنطقة في اتجاه الشرق بحيث لم تشرق شمس اليوم التالي حتى كان الركب قد تجأوز حدود المنطقة نهائيا في اتجاه سرت وسط معلومات مضللة أن السفر كان في اتجاه فزان لقد تم التحايل على السلطة منعا للإحراج وحتى لايحمل سجل التاريخ أن أحد من أسرة الشيخ محمد قد أصيب باذى والبلدة على علم بذلك ولقد كان ذلك في إطار سلطة أخرى وهكذا تم السفر وتم بعد ذلك ماروته بعض الأخبار من أن الرجل قد أقدم على عملية ثأرية خطيرة أودت بحياة مجموعة من الناس ظل الحديث عنها يستوعب السنين والسنين بين مستهجن للتصرف وبين مقر له بوصفه ردا لفعل سابق وبين الرأيين يوجد بدون شك رأي أقرب إلى الحكمة وموقف أدعى إلى الفهم .

شرع الممرض الوحيد (علي ميلاد) الذي يدعى تجأوزا بالطبيب في تطعيم الأطفال ضد مرض الجدري . عند مأوصلت الأخبار عن ظهور حالات منه ، متنقلا في البلاد من أقصاها إلى أقصاها مستعينا على المناطق البعيدة بحمار اشتراه خصيصا لهذه المهمة الإنسانية التي يضفي عليها من إنسانيته ومن حبه للناس جميعا مايزيدها جمالا ورحمة وحده الذي يمرّض وحده الذي يطعم وحده الذي يختن أيضا كل ذلك دون أن ينتظر من أحد حسنة واحدة بل ولاكلمة اثناء أودعوة خير ، فهو ...يبادر بالدعاء للصغار والكبار على السواء وذلك منذ اضطلاعه بهذه المهمة الإنسانية التي طرق بابها في الثلاثينيات وهويعمل بالسلك العسكري الإيطالي فإذا به لمجرد أن أنس في نفسه شيئا من القدرة أثر دورة تدريبية أقيمت لهذا الغرض يتفرغ نهائيا لمهمة التمريض ويتولى مسئولية كل السكان

على أن مرض الجدري وبالرغم من حملة التلقيح التي شملت كل الأطفال مالبث أن ظهر في البلاد وشمل معظم الأطفال وكذلك عددا من الذين لم يصابوا به في الثلاثينيات كان عدد المصابين كبيرا للغاية كما أن آثاره ظلت باقية على وجوه كثيرة

لم يكن الإدراك هشا ولم يكن كذلك قد بلغ مايجب أن يبلغه لكن الإنصات لما يسمع والملاحظة لما يجري من الأمور الواضحة .

بعض الأشياء تفهم بسهولة وبعضها الآخر يتعسر بعض الوقت وكان الصراع من أجل العيش على أشده وكذلك هو بالنسبة لأمور كثيرة .

كانت المهمة الأساسية كيف يتحقق مستوى الإتقان في الكتابة والسبيل إلى ذلك هو القرآن الكريم إن الفقيه العربي لم يكن تقليديا لا في الكتابة ولا الأسلوب بل هو من المعاصرين في كل شئ بالرغم من تبحره في الأمور التقليدية وهو يمتاز بالقدرة على التوصيل وإستثمار الحافظة في بث أكثر من معلومة حين يأنس الكفاءة ومن يأخذ منه يلقنه دفعه واحدة وعبر الآية الكريمة الجملة والرسم وعلامة الضبط وكلما تقدم الطالب في قراءة السور كلما تقدم في بقية الأمور .

كانت الرواية التي يحفظ بها السابقون غير موجودة في المصاحف المطبوعة وبالتالي فإن المرجعية لاتوجد إلاّ في الصدور، وهو من هذه الناحية قدوة وأى قدوة ولديه طريقة في الإشارة إلى المعطوف الذي يعمل فيه الفعل جميلة للغاية كان يقول لمن يأخذ عنه بصدد (خلق السموات والأرض) مثلا

لماتقرأ خلق السموات انصب الأرض على طول !

بمعنى أنه يأخذ بطريقة من الجملة إلى القاعدة وليس العكس كما أنه من الداعين إلى الكتابة بالحرف المشرقي بدلا من الحرف المغربي الذي كان سائدا في عديد الكتاتيب .

ويومئذ بذل بعض السابقين جهودا كبيرة لتحسين الخط الذي

كان قبلهم رديئا للغاية وفي مقدمة هؤلاء المدير ذاته حيث كرس جل وقته المسائى لتعليم الخط لعديد الطلبة بواسطة إملائهم المقرر عليهم من القرآن الكريم وقد وفق لذلك لمالاحظ على الحجج القديمة من رداءة في الخط الأمر الذي كان أثره في صرف أنظار عديد المسؤولين عن الاعتداد بتلك الحجج تبعا لنقيصة سوء الخط والميل إلى حجج أخرى توفر لها حسن الكتابة وإن يكن ذلك نقص في الصياغة .

لقد كانت هذه المهمة تتفق كثيرا مع طبيعة المدير الذي تقلد مسؤوليته وهو في عنفوان شبابه ففرضت عليه أن يعتزل كل ما تميل اليه النفوس الشابة فوجد ضالته في مهمة التعليم ليجمع بين الخدمة العامة وأداء الرسالة التعليمية للأجيال الجديدة ليحقق بذلك مايحتمه عليه مركزه من نزوع نحو الوقار وشغل فراغه بشئ مفيد وقد كان لهذا الأسلوب أثره الفاعل في تنشئة الأجيال الجديدة التي استطاعت أن تواكب مسيرة التعليم من حيث الكتابة قبل استئناف الدراسة النظامية بسنوات إذا أصبح عدد غير قليل منهم وكأنهم قد تلقوا تعليمهم في هذا المجال بأحدث المدارس العصرية .

كان المفروض يومئذ أن يخلص كل طالب السلكة الأولى من القرآن دون إصرار على الاستظهار كلية بمعنى أن يكتفي بالاستظهار أولا بأول ويكرس الجهد كله لإثبات الرسم كانت الحافظة لاتحتاج في استظهار المقرر اليومي أكثر من خمس مرات

وكثيرا مايحدث أن يتم ذلك في عدد أقل خاصة في السور المكية ذات الإيقاع الخاص ولهذا لم يكد يبلغ الحادية عشرة حتى فرغ من إكمال السلكة الأولى ويومها جيء بشاة من بيت الجدة تم في وقت لاحق نحرها ودعى عدد من الفقهاء والأقاررب لتنأول وجبة الغذاء وكانت آخر نصيب له من إرث الماشية التي آلت إليه من أمه كانت الحالة الأقتصادية سيئة للغاية لكنه لم يكن مدركا لهذه الحقيقة إذ مازال راسخا لديه أن كل من يتمكن من أداء فريضة الحج هو في عداد الأغنياء وأن من يشتري النخل يعتبر كذلك أيضا ولان الشيخ قد فعل الاثنين فهو إذن لن يواجه أية مصاعب وبالتالي لم يكن مستاغا لديه مطلقا أن يجد غذاءهم من «عيش القصب» أو من دون لحم وقد كان الشيخ شديد التألم حين يراه يتجنب الأكل وفي حالة نفسية سيئة ولم يكن يحلو له أن يشكو إليه بسؤ الحال وقد اصظر أخيرا إلى السفر والغياب لفترة طويلة حين شحت الموارد وتعذر الحصول على أى مردود من الزرعة .

لقد وجد ضالته في الخلود إلي المكتبة الموجودة في تلك المقصورة ليقرأ كل شئ الأوراق المحفوظة المجلات القديمة الصحف المطوية الكتب المختلفة ، لم يدرك في البداية تلك المطبوعة الملفوفة على هيئة كتاب والتي كان عنوانها (أبوللو) والتي كان من بين عنأوين ماكتب فيها (ألا ياطائر الفردوس ان الشعر وجدان) والتي عرف بعدها أسماء ابراهيم ناجي وبلقاسم

الشابي وآخرين لم يكن يفقه كثيرا ما يقرأ لكنه كان يدأوم، وكذلك فعل مع أمثالها من مجلة المختار أما السفر المكتوب عليه (ديوان مصطفى بين زكري الطرابلسي) فقد كانت الفرحة به كبيرة وتفوق الوصف

في مربوعة الخالة التي تزوجت لتوها وجد ضالته في مجموعة من الكتب خزنت هناك حين رحل الأستاذ كامل لبنغازي وطلب من أحد أقاربه أن يخزنها هناك فقد كانت بحق نفيسة للغاية وكان مجال القراءة متاحا أيضا فما كان يهم الخالة والتي كانت بمثابة الأخت أن تراه يقرأ ويقرأ ولو بقي الساعات الطوال وهى لاتبخل لتوفير أى شئ يحتاج اليه .

كانت متعته اللامحدودة تلك التي وجدها في كتاب (المستطرف من كل فن مستظرف) الذي حوى عديد المعلومات والطرائف ونصوصا جميلة من الشعراء كان اشهرها تلك التي جاء فيها :

علو في الحياة وفي الممات لحق تلك إحدى المعجزات

أما ذلك الكتاب الذي كان ناقصا وبدون عنوان فكان يتحدث بإفاضة شديدة عن مقدونيا وعن الصرب والحروب التي دارت في تلك السنين الغابرة عندما حارب العرب والبلغار واسبارطة مما يدل على أنها كانت مكرسة لتاريخ شعوب البلقان ومع أنه قد سخر في البداية من ذلك الكتاب الذي يتحدث بالسنة الحيوانات إلا أنه مالبث أن قرأه عن آخره قبل أن يدرك أو

لنقل حتى إذا ما أدرك أهمية الكتاب وهو يراجع التراث فوجد أنه قرأ كليلة ودمنة في بدايات العمر ، أما فتوح البهنسا فكانت قراءته تتم أمام الشريفية عندما تزوج العم بشير امرأة أخرى وتركها تعيش مع كريماتها في الزقاق ، ولامن معين لها على تلك الظروف الصعبة أكثر من السماع إلى تلك الحكايات التي تحملها كتب العجائب والغرائب كانت التعليمات الرسمية تتلى على الناس عقب صلاة الجمعة ما لم تكن مستعجلة ويطلب البراح إبلاغها عندما يذرع الشوارع ضاربا النوبة من باب لفت النظر ليبلغ بعد ذلك ما كلف به .

لقد أصبحت الجمعة تقام الآن في مسجد واحد هو المسجد العتيق وكانت الحجة الظاهرة قلة عدد الناس لكن المدركين لبواطن الأمور كانوا يرون في ذلك محاولة لتقليص دور الشيخ لكن المصاهرة التى جرت قبل هذه الفترة بقليل بين الشيخ والفقيه محمد جعلت منه صاحب المكانة الأولى في مجلس الأئمة . فمن أين لهم بإبعاده على حد تعبير أخلص أصدقائه الفقيه البصير . من المعلومات التي أعلن عنها المدير ذات مرة مجئ وفد هيأة تحرير ليبيا الذي أوكلت إليه الجامعة العربية دعوة الجماهير الليبية إلى تبني مطلب الحرية ، بمعنى تقرير مصير ليبيا على أساس الأستقلال بمقتضى المهمة التي أوكلت إلى اللجنة الرباعية التي أنيط بها استطلاع رأى الليبين في المصير الذي يرونه لمستقبلهم السياسي ، حين دعي الناس إلى

ضـرورة تبني مطلب الأسـتـقـلال ، وهو الـدور الذي تبـنتـه من البـداية التنظيـمات السيـاسة التي تكونت عقب الحوب العالميـة الثانية . بما فيـها الجبـهة الوطنيـة المتحـدة التي كـانت أول تنظيم تحرك للقضية الليبية .

لقـد كـان الأسـاس منـطلقـا من ذلك الوعـد الذي قطعتـه بريطانيـا لليبين الذين تعأونـوا معها بعدم إرجاعـهم إلى سلطة إيطاليا مرة أخرى ولكنه موقف يشبه إلى حد كبير ما اتخذ مع السـوريين واللبنانيين كـانت المعلومـات قـد وصلت بواسطة المنشورات الإعلامية التي وزعت عشية قدوم الإنجليز وقد تحصل الشيخ على كثير منها مع المعلومات المتعلقة بمستقبل البلاد حين ذهب مع عدد من رجال مصراتة لمقابلة السعدأوى في الحجاز وهو يؤدي فريضة الحج حين كان السعدأوى مشككا في بعض الشخصيات ، بل وفي جدوى العمل السياسي كله وذلك قبل أن تشكل الجبهة الوطنية المتحدة

لقد تصـادف أن أعلن في ذلك الزمن عن وصـول أسـراب من الجراد إلى هناك وقد جاء الإعلان هو الآخر من المدير ذاته وعقب الجمعة كذلك ، وتحديدا في البـاحة الخارجية المكان الذي اعتاد الناس أن يتبـادلوا فيـه التـحيـة عقب الصلاة كـانت نصيـحة (ابوشنيه) منحصرة في أن الجراد لايمكن الحصول عليه الا في الصباح وفي أقرب وقت ممكن حتى لايتمكن من غرس بيضة في الجبـال إذ لو قـدر له أن يبـيض كـان ذلك يعني أن بقـاءه

سيتجأوز الستة أشهر لأنه سيصل بالمنطقة زحفا وسيبقى إلى أن ينبت له الريش ويتمكن من الطيران فهو إذن سيقضي على كل المحاصيل الموجودة والأخرى التي ستنبت في وقت لاحق وقد ظهرت يومئذ قصص كثيرة عن جيوش الجراد التي حلت بأماكن كثيرة وقضت على أشياء كثيرة حتى إن الأسطورة كانت تقول ان إحدي القوافل المسافرة التقت ذات مرة بجيوش من الجراد فكان إن قضى الجراد على الناس والإبل ولم تبقى سوى جعب البنادق !!

لقد تنادوا وفقا لهذا النداء الذي وجه إليهم و خرجوا في اتجاه الجنوب واستطاعوا أن يحملوا كميات كبيرة من ذلك الجراد جاءوا بها في الأجولة وكذلك فعل مئات الرجال من كل مكان وصار من الشائع أن يجد المرء في كل مكان كميات من الجراد بعضها جاء به أهل البلد وبعضها الآخر جاء به سكان الوادي الذين عرضوه للمقايضة إلا أن الجراد كان خاليا من أى بيض مما أكد أن البيض قد غرس في الجبال وأن جولات أخرى ستكون معه .لقد حددوا له حسب الخبرة شهرا وبعض الشهر ولم يكد يمر بعض الوقت حتى ظهرت تلك الأسراب الصفراء التي أخذت تسير خلف بعضها البعض وفي استقامة عجيبة مكونة طابورا طويلا وكأنها الرياح العاتية ، وذلك في ثبات ومثابرة ودون تأثر بالمقأومة الشديدة التي شرع بها الناس وكأن أهمها النيران التي أحرقت في كل مكان ، لقد كانت كميات

البارود متوفرة فتم إشعالها في كل مكان ، لكن جيوش الجراد كانت قادرة على تفادى النار وغير النار .

في الباحة الكبيرة وقف بوشنية لأول مرة ، كان يرى قبل تلك اللحظة ويحيا من الجميع وهو يمر صباح مساء قاطعا الشارع من غير رفيق . كانت هذه الصفة تطلق من الكبار دون أن يعرف الأطفال أى معنى لها . . عين واسعة ونافذة ، وأخرى تقل عنها اتساعا ونفاذا فهى دائما نصف مغمضة وجه مستدير أصفر مع آثار الجدرى ، الصورة غريبة نسبيا ، بالقرب منه وقف نائب العريف (الأمباشي عمر) وهو بوليس شديد في ملاحقة كل من يقترب من مخلفات العدو فضلا عن الشباب الذين قد يطوفون بعض الشوارع مرددين شيئا من الألحان التي تعتبر بمثابة الرسائل الموجهة إلى بعض الفتيات وهو تقليد قديم حين كان المجتمع صغيرا وبريئا وقد أصبح الآن مستهجنا من قبل البعض ، وغدوا يستعينون على مقأومته بالبوليس وكان ذلك يحدث من عناصر كانت إلى حين تقوم بذات الفعل تم هجرت صنيعها بعامل السن وتنكرت لما كانت تقوم به وكان هذا الموقف مثار غضب من عديد الناس الذين رأوا في اللجوء إلى البوليس شيئا من اقحام السلطة في أمور ينبغي أن تكون بعيدة عنها فالأمر لايعدو ان يكون عادة من العادات الشعبية ومن غير المستساع أن يسمح لأى متدخل أن يتدخل فيها ، ينسب الأمباشي عمر إلى المنطقة التي انحدر منها ويغلب اللقب على

الاسم وقد حل بالبلدة شابا يافعا مع عسكر الطلبان ، ويومها تزوج وأنجب وخاض تجربة غرامية مثيرة ، وقد انحاز انحيازا كاملا للبلدة واعتبر نفسه واحدا من أبنائها الأصليين، ومن هناك كان بقاؤه حتى بعد انسحاب ايطاليا و كان دخوله إلى البوليس وحرصه على البقاء اذ لم يكن في حاجة إلى أى دورة تأسيسة فأسندت إليه مهمة الأمن تلقائيا وظل يعمل بكل نشاط وجدية وواجه في مهمته ظروفا صعبة استطاع أن يتجأوزها . قال قائل من الواقفين عند الباحة الواسعة مشيرا إلى الرجل :

هذا بوشنبه

وعندما رد الآخر

اليس هو القاضي ؟ رد بسرعة :

ايه هو بوشنبه وأشار إلى الشارب النصفي !

ولأول مرة عرف الصغار أن الكلمة التي تطلق في أماكن كثيرة لها سر يتصل بذلك الرجل وأنها تخص وجهه تحديدا !

يقول مجالسوه إنه لم يفتح أى كتاب منذ وصوله إلى البلدة ، ولم يبادر باعطاء أى رأى فقهي . ولايقترب من أى شأن من الشؤون الدينية يكن عداء معلنا لكل الطرق الصوفية ، يحتقر بشكل منفر البدو عموما حتى إنه لايستثني المتساكنين الذين يعتبرهم الناس جزءا لايتجزأ منهم ، باعتبارهم قد حلوا من أماكن بعيدة . تعود إلى جدودهم فضلا عن آبائهم . إنه يدرك

هذه الحقيقة بواسطة الممارسة الإدارية إلا أنه لم يتراجع قيد أنملة عن موقفه بل ظل يمارسه بكل صلافة وبكل مجافاة للمسئولية المنوطة به . الصفة الدينية التي ينتسب إليها كعالم من العلماء الأزهر ين لقد كان يوحي دائما أنه يتوفر على سر ما في العلاقات ، سر في التكوين سر في التطلع نحو المستقبل

تفصح ممارساته عن حب شديد للذات ، وإصرار على التقليل من أهمية المنطقة ويعتمد أسلوب الخلط بين الجد و الهزل ، بحيث تراه يرسل كلمة ما فاذا ما لاحظ أى ضيق لدى المستمع تعلل بأنه يقصد المزاح خاصة فيما يتصل ببعض العادات وبعض التعابير الأمر الذي دفع بالبعض من الذين عاشوا بمدن الساحل إلى أن ردوا على بعض تعليقاته الساخرة بأسلوب عنيف للغاية عندما اختار بعض التعابير التي تخدش الحياء ليتحدث عنها بوصفها عادية في حين أنها ليست كذلك حين تحرف بعض الشئ .كان يصارح معارضيه ومن بينهم الشيخ العربي . بأنه سيكون معاديا مادام بالمنطقة كل المختلفين معه . يبدأ أنه سيغير من هذا الموقف حال ما ينتقل ، اذن لمسالة ببساطة شديدة أنه يسعى لمصلحته فيما يسعى المختلفون معه إلى مصلحة اهلهم وذويهم فالتضارب إذن تضارب مصالح وليس نتاج عدأوة دائمة ومن ثم فسيكون عند انتهاء تضارب المصالح أول من يساند لقد كان ذلك دليلا حيا على قوة شخصيته وحسن درايته بقدرات الناس وعلى مايتوفر عليه من نظرة موضوعية فاحصه تحتكم إلى

المرحلة أكثر من أي عامل آخر .

كان من أهم ما تنبه اليه أو دفع باتجاهه على الأصح ضرورة الترخيص لبعض الناس ، من غير العاملين في سلك الإدارة بحمل السلاح ، إذ لم يكن من الممكن إيجاد قوة بوليسية كثيرة العدد والسياسة البريطانية تقوم على التقشف ومن المستحيل الركون إلى العدد المحدود في أي ظرف من الظروف ، ولذلك وقبل أن ينسحب الإنجليز أعدت قائمة سلم بموجبها السلاح للقادرين ، وكان عبارة عن بندقية وعدد من الطلقات

لقد أثبتت التجربة صحة تلك النظرية إذ لم يحدث طوال السنوات التي تلت ذلك الاجراء عبث من أى كان بهذه المسؤولية أو استعمل ذلك السلاح المرخص به في أى مارب خاص أو خلاف شخصي مهما كبر كان هناك تفريق بين في هذا الصدد ، يتجأوز الشخصي إلى العام

كما لم يسمح لأى خلاف من الخلافات ان يتطور إلى خصام ، بل كان ديدنه محأولة الحد من التقاضي بقدر إلا مكان كما لم يتوقف أمام عبارة تقال بحقه ومرد ذلك أنه كان مشغولا بقضية أكبر وبالذات مجال الاستفادة لقد كانت مخلفات العدو كثيرة وكانت حلقة الاستفادة محكمة للغاية جمعت الإدارى والبوليس والتاجر لقد اعتذر من كلف بهذه المهمة يوم أن قرر الإنجليزي ترك المنطقة للإدارة المحلية وأثر أن يكتفي بالعمل في مكتب البريد ، عندما اتضح له حجم الإجراء كما لم يقترب

المدير من المهمة باعتباره حديث التعيين وحددت المهمة بحدود البلدة ، واعتبرت المخلفات من مشمولات المنطقة في العموم وكان ذلك يعني ببساطة عدم تحديد المسؤولية كما يجب ومن الطبيعي أن تكون المسؤولية الكبرى للمسؤول الاعلى .

بدأت الاستفادة من الأخشاب . وقطع الغيار وقبل ذلك السلاح والذخيرة إلى أن شمل بعد ذلك المباني الكاملة التي جري إخلاؤها من أبوابها وأسقفها وكان ذلك يتم بطريقة عجيبة حيث كان في المظهر متابعة السرقة ولكنه في النهاية وعند اكتشاف تلك السرقة شبه المدبرة يصب في مصب واحد ، إذ غالبا مايجري تصديره إلى خارج المنطقة وبالأحرى بعيدا عن البلدة بالذات

كانت المنطقة شبه معزولة ولاصلة لها بالشمال إلا بواسطة السيارة الوحيدة التي تجئ دوربا محملة بالسكر والدخان وكان معظم الناس يعجزون عن شراء مايخصهم مما يتيح إمكانية تصديرها مرة أخرى لتذهب إلى الأسواق ذات القدرة الشرائية فيجرى بذات الوقت شحن مايتم تجهيزه من أبواب وأخشاب ومواد البناء المختلفة التي أمكن تجميعها بواسطة السرقات المكثفة التي جرى ضبطهاأواكتفى بضبطها وإعادتها ولكن ليس من أجل مخازن السلطة بل لتذهب إلى هناك ولاخوف من المسؤول الانجليزي الذي يحضر دوريافهو جزء من اللعبة وربما اعتبرت المخلفات بالأساس في حكم المعدومة أو الزائدة عن

الحاجة .

لقد كان الإنصات إلى صوت السيارة يؤدي إلى تحديد قرب وصولها بساعات طويلة فهدوء الصحراء وسكونها يسير في هذه المهمة وكثير مايحدث السباق بين من هو أكثر الناس سمعا للسيارة التي ربما تكون قادمة إذ يحدث أن تمر وهى في طريقها إلى الجنوب فتضطر إلى دخول المنطقة تحت ضغط الحاجة وكثير ما يفضى الاحساس بالانقطاع عن العالم واستشعار العزلة إلى اللجوء إلى احد ضاربي الودع أو من يخطون الرمل وبالأحرى حبات التاقزة لمعرفة ما إذا كان ثمة قادم من أى مكان . ان الناس في حقيقة الأمر ليس لديهم ميل نحو قراءة الكف ولاضرب الرمل لأن الاتجاه الصوفي قلل كثيرا من انتشار هذه البدع ، بل لقد كانت منعدمة بالكامل . غير أن فترة الاحتلال الإيطالي وكثرة اختلاط الناس بشكل موسع أشاع مثل هذه الممارسات لدى الكثيرين . وعلى الأخص في مجال اللجوء إلى قص التابعة ، حين يتوالى موت الأطفال الرضع، كما أن فراغ بعض البقالين وكساد الحياة الأقتصادية كثيرا ما شجع على اللجوء إلى هذه العادة (التاقزة) فشاع عن على بن يوسف (الجمال) ما كان يتميز من قدرة في هذا المجال فصار من المألوف أن تجد مجموعة من الناس يتحلقون حول علي بن يوسف وهو يتحدث بلكنته الفريدة عن احتمال قدوم شئ ما أو يشير عليهم باحتمال العثور على شئ مفقود ، وذلك من خلال

بعض الإشارات والأوصاف ، وليس من باب التفاصيل . أما لماذا يحرص الناس على الإنصات إلى الجمال دون غيره فالامر على مايبدو له علاقة بواقع الرجل الذي كان يودع مرحلة الكهولة فقد حل بالمنطقة في أواخر العهد التركي مع الجنود الذين جاءوا من حلب حيث كان يعيش ضمن طائفته الدرزية ليقضى هنا شبابه وكهولته ، منذ أن اقترن بربيعة وانجب العديد من الأنباء ذكورا وإناثا على السواء ويمارس طقوسه بالطريقة التي يريدها ، من دون أن يتدخل أحد في شؤونه أو يتخذ من ذلك مبررا لمقابلته بأى حساسية وقد أجمع كل الذين لجأو إلى التاقزة أن الرجل أصح الناس قولا وأكثرهم قدرة على النفاذ والتوقع حتى إن أحدهم حين اضمر شيئا يتصل بعلي بن يوسف نفسه فقد أشار إلى من أضمر ذلك

صاحبك «عصلب» لن تحصل على ماتريد . حتى صارت الكلمة مثلا سائرا يقال لعلي بن يوسف اينما حل .

كان السفر أيضا شبه مستحيل، فمن اين لمن تتوق نفسه إلى السفر أن يستطيع تسديد مصاريف النقل وإلى أى حد ستكون علاقته الشخصية جيدة مع السيارة حتى يتمكن من السفر في المكان الذي يجب الركوب فيه إذ كثيرا ما يضطر المسافر للركوب إلى جانب السلع المحمولة وربما حتى الحيوانات يحدث ذلك في فصل الصيف حيث الحر القمطرير وكذلك الشتاء حيث البرد الزمهرير ، فكل شئ مرتبط بالعلاقة مع صاحب

الســـيــارة والموقف من الصــراع الذي يدور داخل ذلك الواقع الصعب والتقييم في الطالب يتم بمقتضى المساهمة في المقاومة التي حصلت بخصوص احداث التمر .

كانت السيارة الوحيدة التي تجئ وتذهب تلك المملوكة شراكة بين طرف من المنطقة وآخر من خارجها وقد أطلق على الشريك المحلي لقب الرئيس يذكره بذلك القاضي وغير القاضي والرئاسة بطبيعة الحال لرأس المال وللمصالح . إن العلاقة وطيدة بين أفراد تلك المجموعة تبدأ من ساعات الدوام وتشمل الغداء الذي اعتادوا أن يتنأولوه مجتمعين في أحد البيوت المغ صبة . وهو بيت يقع بين الناس ولكن مشيد على الطريقة الحديثة أطلق عليه لفترة (دار الندوة) كان البيت قد صودر في زمن الاحتلال الإيطالي وكاد أن يسلم في الفتـــرة الأولى من زمن الإدارة البريطانية لولا نشوب ذلك الخلاف الذي حصل وساهم فيه المالك إن مالك السيارة أو الشريك الأساسي بالأصح والمحر للفريق الاقتصادي الذي يكون هو الحاج احمد الذي بدأ س التجاري قبل الحرب بفترة قصيرة عندما كان شابا صغيرا للغاية محدود الإمكانات لكن الحسن التجاري لدى ذلك الشاب كان شديد القوة إذ استطاع أن يتحرك بسرعة . كان قبل هذه المحأولة يشتغل في حياكة الحرير ، إلا أنه لمجرد أن بدأ المجتمع يتغير في الثلاثينيات فقد شق طريقه نحو التجارة بدأ مسيرته من أبسط الامور ، حين اخذ يبيع البيض المسلوق وكذلك بعض البقوليات

والخبـز ، فأمكن بذلك النشـاط الذي لايحتـاج لأى رأس مال أن يضـاعف من مداخليـة ويواصل مـسيرتـه بحيث لم يكد يمضي فـتـرة في نشـاطه هذا حـتى تكون لديه شئ من رأس المال دخل بواسطته السـوق ، وأخذ في تطويره يوما بعد يوم وكـان يشق طريقه واعيا من البداية عند ما أعرض عن المظاهر ولم يتورط في أى مصـاريف يمكن تجنبهـا ، ومن ثم بادر بالدخول في شراكة مع أحد التجـار الذين يكبرونـه سنا وخبـرة كان يتردد يومئذ على المنطقة من مصـراتة ، بحيث أصبح كلاهمـا ينوب عن صـاحبـه ويسد فراغه ، وهكذا أصبحت السلع تأتي إليه أكثر من غيـره وغـدا هو وفي فـتـرة وجيـزة صـاحب الموقف الأقـوى لقـد كـان الطلب على الأشيـاء يفوق الوصف وكان الحرص على تـوفيـر المطلوب يتم بذات الدرجة والمستهلك ليس له من هدف سـوى أن يجد مايحتاج إليه

كانـت البلدة في تبعيتـها الإدارية من أعمـال مصراتة وكـانت كل القـرارات تصـدر من هناك فوجـود المنحـدر من ذات المنطقـة والمقيم فيـها بذات الوقت من شـأنه أن يتكفل بتعبيـد الطريق ، إن ذلك الطريق بدأ في السنوات الأخيرة من الحقبـة الايطاليـة ، غيـر أنه زمن الإنجليـز أخـذ في التطور والفـاعلية على نحـو آخر فالمتصـرف الإنجليزي ، وبعد أن أعيـد ترتيب المنطقة غدا لايحل إلا نادرا . . و بالتـالي فان أخطر القـرارات تصـدر من مـصـراتة . . وقد جرى في ذات السيـاق إحكام الدائرة المحلية ولم يعد ثمة من

أحد يمكنه أن يتجاوز المطروح

يستحيل أن تجده طرفا ظاهرا في أى خلاف ينشأ ولامظهرا العداوة لأى كان بالرغم من أنه في الغالب صاحب غرض محدد إزاء كل مايجري . لم يتحصل على أى قدر من التعليم سوى المبادئ الأولية في الكتابة والأرقام الحسابية لكن قدرته على التصرف وعلى الإصغاء والصمت عند الضرورة الفائقة .. إن وصوله إلى الزمن الذي يتطلع اليه يبدأ في الغالب من إعلان عدم الفهم إذ إنه قد حدد موقفا ويندر أن يكون له غيره حدد ، ولكن الأسلوب الذكي للظفر بتأييد الآخر وكسب ود ، والفوز بثقته ، ودفعه إلى بذل كل مالديه من معرفة وأسرارومعونة .

إذ إن من يستمع إلى مثل هذه اللغة لايملك إلا أن يجود بكل مالديه من معرفة ومن مقدرة على التحرك

عندما سعى إلى احتكار تصدير التمر أفلح في إخفاء موقفه هذا حتي ظن البعض أن الفكرة ليست من تدبيره وإنما هى من محاولات الشريك . وعندما احتاج للدفاع عنها أمام السا[illegible]ة استطاع أن يوكل الأمر إلى عناصر أخرى وافقت علي المخطط بكل إخلاص . وانصرف بعيدا عن قلب الصراع . مكتفيا بوضع مخطط ضمن له النجاح من البداية . وذلك بالتخطيط لإلحاق الخسارة بخصومه من أقرب الطرق وأقصرها ، وأكثرها تأثيرا على مستقبلهم التجاري والحيلولة دون تحقيق أى ربح من شأنه يسمح بنمو رأس مالهم الذي كان من الأساس ليس مملوكا

لهم بل مجرد تمويل من طرف آخر .

لقد كانت المعركة صاخبة وكانت مسألة السعر هي قلب الصراع كان التعاطف مع التيار المعارض قويا والتجأوب معه ظاهرا ولكن القضية في النهاية قضية مكسب ومن لم يحقق ذلك المكسب فلن تكون النهاية في صالحه

ومن هنا كانت خطته التي تمثلت في تحديد سعر مرتفع قدر أن يذهب منافسوه إلى مبلغ يعلوه ولكن سيكون الطامة الكبرى من حيث البيع للمستهلك أو المصدر

وقد كان له ما أراد بالفعل إذ لم يكد يعلن عن سعره حتى ذهب الخصوم إلى شوط أبعد وعندئذ بادر هو بالإحجام وأخذ المنافسون في الشراء ، ويومها ظفروا بكل انتاج المنطقة وبذلك السعر المرتفع الذي سدد جزء منه وبقى الجزء الآخر دينا على تلك الشركة ريثما تصرف الانتاج وتسدد المطلوب وما أن شحنت الكمية إلي طرابلس وتحدد لها ذلك السعر حتى قوبلت بالرفض من الجميع . إن الموسم في العادة محدود وإذا لم يصرف الانتاج في فترة معينة فسيكون للناس موعد مع إنتاج آخر ، وهكذا لم تكد تمر فترة من الوقت حتى صار من الضروري ليس فقط تصريف التمر بل لابد من شحن التالف منه وبمصاريف جديدة

كان موسم الجني موازيا لشهر رجب ، وبالتالي كان الاستهلاك يتجاوز شعبان والنصف الأول من رمضان ، وعندما

حال دون التسويق ذلك الثمن المرتفع بقي الانتاج مخزنا ليجد عليه فصل الربيع وتتفشى الحشرات وكان أن عجز أولئك المنافسون حتى عن النقل ليفضل هو بعد ذلك نقل الكمية التابعة مجانا حفاظا على سمعة المنافسين الذين هم أصحاب وأقارب بالضرورة !

وهكذا بين يوم وليلة أصبحت الشركة مدينة لكل الناس ، واضطرت المجموعة إلى قفل المكان الذي كانوا يجتمعون فيه كل ليلة وأطلقوا عليه اسم النادي أو المنتدى أو (الشركلو) كما كانوا ينطقونها بالإيطالية ولولا بقية من الاعتزاز بالذات التي درج عليها الحاج وتمسك بها لما بقي للمكان من أثر .

من المؤكد أنه بهذا الفهم آثر أن يكون نائبا لرئيس الجبهة الوطنية التي تأسس لها فرع هناك عند بدء النشاط السياسي ، وهو الذي اتبعه بشأن الحرص على أن تكون مقابلات الضيوف ليست من مشمولاته وإنما من مشمولات ابن عمه الذي اكتسب صفة الكرم من الجميع يعرف أن رأس المال كان من الرجل ذاته وكل المصاريف لاتحسب عليه .

ولاشك أنه بذلك تجنب الكثير من المواقف المحرجة ، بما فيها مطالبته بالصرف المستمر ، اذ حين بعلم الناس بالمصدر القوى فان الطلب سيكون دائما أكثر وأكثر وبالذات عندما وصل وفد هيأة الأمم المتحدة المتكون من اللجنة الرباعية التي طاقت بكل أرجاء البلاد ، ومن بينها تلك المنطقة بقصد الوقوف علي آراء

الناس بشأن مستقبل البلاد السياسي الذي صدرت له يومئذ أكثر من صيغة من بينها الوصاية الدولية أو الأستقلال أو الانتذاب كان ذلك في إطار الصراع الدولي على البلدان التي انتزعت من الدول التي خسرت الحرب وإعادة التقسيم بين الدول المنتصرة ، وكذلك التي خسرت ولم تقع ضمن فلك المعسكر الشيوعي ، مثل إيطاليا ، كانت رغبة الإيطاليين في العودة إلى البلاد كبيرة وكان الصراع بين القوي الدولية قويا ومتعدد الأشكال والأساليب ، فاقتضت شروط اللعبة أن يعول على رأى المواطن ،، مما حدا بالإدارة البريطانية إلى تشجيع القوى الداعية للاستقلال ، ولكن الأستقلال المتكفل بضمان مصالح الإنجليز ، قبل أى شئ آخر ، على أن قوى كثيرة لم تستمر في التنسيق مع الإدارة البريطانية بل إنها ولمجرد أن اكتسبت الشرعية وتحصلت على جواز المرور الدولي تبنت مطالب أكثر تعبيرا عن الطموح الوطني والإجماع الشعبي بصرف النظر عن نظام الحكم المقرر العمل به .

كان الوفد الذى وصل هناك مرفوقا ببعض الأعيان الليبيين وكذلك المؤرخ المصرى الشهير الدكتور فؤاد شكرى الذى كان يعمل مستشارا مع البشير السعداوي . وقد حصل في ذلك الزمن دفع لتكريس شخصية السعداوي كزعيم شعبى وذلك لتلاقى المصالح المختلفة في بداية الأمر بيد أن السعداوي مالبث أن استشعر القوة الشعبية وغدا يتصرف بمقتضاها كانت

الأحداث مرتبطة مع بعضها بشكل واضح زعامة للسعداوى والطلب الشعبى هو الأستقلال و نظام الحكم مقرر الشئ الوحيد الذى ترك للمرحلة المقبلة هو شكل الحكم وبالأحرى النظام الإدارى هل سيكون وحدة شاملة أو اتحادا يتألف من الأقاليم الثلاثة التى أطلق عليها فيما بعد ولايات لقد جرى بصدد هذه المسألة نقاش كبير أسهمت فيه وجوه وطنية كثيرة من الذين كانت لهم أسئلتهم وتحفظاتهم حول عديد الأمور مما لفت نظر أولئك الضيوف إلى مستوى الوعى الذى يتمتع به سكان البلدة .

وحده أبوشنبه الذي كان يائسا من إمكان حدوث أى شئ مفيد لقد بات في الواقع لايخفى تشككه وعدم ثقته تجاه المطروح ، بل لقد كان يصرح بأن الأمر لايعدو أن يكون تمثيلية من التمثيليات السياسية الأمر الذي غدا يدعو الكثيرين إلى عدم الخوض معه في أحاديث كثيرة فقد كان شديد الفظاظة في إبداء ملاحظاته كما أن البعض كانوا يدركون أنه مدفوع ببعض النزعات الجهوية قبل أى شئ آخر ولقد كان في الحقيقة يسعى إلى العودة من حيث أتى حتى لايفوته القطار وربما يوازن بين البقاء لغرض الاستفادة المتاحة في ذات المكان والذهاب على أمل الحصول على شئ ما . على أنه كان مثالا للسيطرة على الأعصاب وعدم الأهتزاز أمام أى حدث طاريء حتى إنه حين تجرأ البعض على سرقة كمية من التمر قاموا بأخذها من إحدى

المزارع الموجودة بأطراف البلدة لم يجد غضاضة وقد اثبتت التحقيقات لهذه المسؤولية أن يتوجه إليهم على رأس مجموعة مسلحة ويعيد منهم ما تجرأوا على أخذه صاغرين فبقدر ما استفاد من المكان بقدر ما حرص على توفير الروح المعنوية تجاه الآخرين اذ لم يسمح لأى طرف أن يتطاول كما لم يتأثر بأى موقف من المواقف التي اتخذت تجاهه .

وفيما كانت الحياة تسير على وتيرتها وقطار الهجرة ما يزال مستمرا والموارد آخذة في التناقص واليأس يجثو على النفوس ثقيلا والعجز مطلا كليلة شتوية غاب قمرها واشتد بردها في ضحى يوم خريفي صفت شمسه وقف أمام مبنى الإدارة رتل من السيارات حاملا الكولونيل وبعض المرافقين وماهى إلا دقائق حتى دعي إلى هناك عدد غير قليل من الناس تبين من خلال الدعوة أن أسماءهم محددة سلفا في كشف معد .

وما أن حضر عدد من الذين تمت دعوتهم حتى اتضحت أسباب الدعوة حيث تبين أن الغرض منها هو الوقوف على ماتضمنه ذلك التظلم الذى وقعوا عليه في وقت سابق وقدموه إلى الجهات المختصة إزاء تصرفات ذلك المسؤول بحيث اكتسب اللقاء طابع المكاشفة كيما يدلي كل بما لديه فيما أخذ الرجل يرد ويقدم ما لديه نحو المتكلمين بما في ذلك علاقاتهم مع بعض المسؤولين الذين حضروا اللقاء مثل المدير وغيره مع بعضها البعض لدرجة تجعل من يتحدث إليه لايصل إلى معرفة وتخريج

الأسئلة لم يكد الاجتماع ينفض حتى أعلن عن القرار التاريخى القاضى بنقل ذلك الرجل فبدا أن الامر قرر سلفا وأن النقاش الذى جرى لم يكن في حقيقة الأمر إلا استكمالا للأدلة وباالأحرى استيفاء الشكل .

لقد استغرقت ولاية الرجل خمس سنوات كاملة ظل فيها صاحب الكلمة الأولى والأخيرة إذ حل في ذات الوقت اثنان من الموظفين سمي أحدهما بالقالقام وسمى الثانى بالقاضى ولأول مرة عرف الناس التسمية الحقيقية للمنطقة إذ علقت لوحة كتب عليها كلمة (قائمقامية) ويومها قال الأستاذ على الذي أوكلت إليه وظيفة القاضى أن خط الأسطى عبد الوهاب تنقصه الأصول الفنية ، وأنه ينطلق في خطه من التقليد ولايصدر عن دراية بجميع القواعد والأصول

كان الكولونيل على مايبدو قد جاء لأكثر من مهمة ومن بينها تسليم مهمة إلى متصرف اقتضت الترتيبات الإنجليزية أن يقدم لأن الكولونيل سيعمل بالمناطق الشرقية وثمة من يقول إنه سيكون مستشارا وإليه نسبت المقولة المشهورة تأورديما فوق .

وفي هذه الأثناء دعى الجميع مرة أخرى من قبل القاضي وأضيف آخرون أيضا حينما قدر لمن اختلف معه حقه في الاجتهاد ولمن اتفق معه جميل مشاعره مؤكدا أن فترة عمله المنتهية ستجعل منه صديق الجميع وأنه في كل ممارساته سيكون كذلك لقد اختلفت المواقف وتداخلت لدرجة كبيرة وبدأت

المصالح في السابق واللاحق تبدى مواقف جديدة أبرزها ماذهب إليـه أكثـر الناس قربا منه، فقـد أخذت الأنبـاء تتـوإلى عن حق الرجل من الشـراكة غير المعلنة والمبالغ التى كانت مخبأة مع الفريق الاقتصادى والتى أدت في النهاية إلى شـراء منزل بأهم أحيـاء طرابلس بمبلغ يصل إلى المليون فـرنك وفقـا لحسـابات العملة القائمة .

لم يكن الأمر يحتاج إلى كبير جهد فقد كان الزرقولي ذاته الذى جـرى إبعـاده بواسطة الرجل قـد سكن في ذلك الحى وشاءت الصدف أن يلتقيـا مرة أخرى وأن تكون الجيرة سببـا أساسيا في معرفة الرقم المإلى الذى اشترى به البيت والذى كان تحويشة الرحلة .

قـد تكون أجـواء الكتـابة التى سـيطرت أخـذت الآن في التناقص أو هى على الأقل لم تعد بقوتها الأولى أو أن الناس قد تقدموا وباتوا الآن يتخلصون شيئـاً فشيئـاً لقد أصدرت الأمم المتحدة قـرارها بتقرير مبـدأ الأستقلال ولم يعد ثم من خوف يفضى إليه احتمال عودة الطليـان من جديد إذ كثير من البعوث أخذت تمر متجهة لجهات مختلفة من المنطقة وجميعهم ينتمون لجنسيات أخرى فضلا عن بعض الإنجليز الذين كانوا يسرون لأصدقائهم بأن المصير قد تقرر بهذه الكيفية ، بدأت بواكير التغير بمجئ مجموعة من الموظفين قيل يومها إنهم كلفوا بافتتاح مكتب الأرصاد الجوية فاقتضى الأمر أن يزداد عدد

الموظفين كما سربت بعض المعلومات عن التأكد من وجود النفط من قبل بعض الخبراء الإنجليز كان الحديث يساق فيما يشبه الحلم إذ إن أولئك الرجال كانوا يشيرون إلى العودة المتوقعة حين تأتى تلك النعمة .

كان يعانى من تأثير ذلك البرد القديم الذى تحول إلى داء موسمى يتعرض له في الشهر مرة على الأقل في بداية ضربة برد حادة ولكن العلاج لم يكن متاحا فتحول المرض البسيط إلى داء مزمن فكان لذلك أثره الكبير على النفسية إذ كان يضطر خلافا لأبناء جيله إلى هجر النشاط الرياضى لمرات عديدة .

لكن ماذا عساه أن يفعل فلا شئ يمكن الركون أليه سوى الصبر على أن الأربعينيات كانت في نهايتها فلقد أطلت حقبة الخمسينيات وهى حقبة لها ما بعدها في كل المسارب .

6

بالفراغ من إنجازه للسلكة الاولى من القرآن الكريم بدأت الخطوات الأولى تتخذ لإستئناف الدراسة النظامية بالمرحلة الابتدائية فطلب من الحاج حامد بوصفه ممثل المجموعة المستخدمة للمدرسة كمخزن الاسراع بإخلاء المكان والذى ظل لسنوات طويلة يستقبل منتوج التمر من الفلاحين أولئك الذين كثيرا ما أجبرتهم صروف الدهر على بيعه بأقل الأسعار بالاضافة إلى كميات من السكر تلك التى طالما عجز المواطنون عن شرائها فتقوم المجموعة الإقتصادية المتعهدة بالتوزيع بإعادة تصدير ها إلى حيث يوجد الطلب وتتوفر النقود ، ويومئذ حل بالمدينة الصغيره رجل مهيب الطلعة شديد الإشراق دعي الأستاذ عمر ليتولى مهمة الإكتتاب فتم الاعلان عن المهمة بواسطة البراح كدعوة للناس أن يبادرو بتسجيل أبنائهم وكان في إعلانه ينطق المدرسة(السكولة) باللغة الايطالية لقد كان الأمر إختياريا إذ لا يوجد قانون يفرض الدراسة الزاميا كما إن السلطة لم تكن حازمة في هذه المسألة ، ويبدو أن أولى الأمر إتفقوا على أن يكتفى بإيفاد الذين لاحافظة لهم في القرآن إلى المدرسة ، أما الذين رزقوا بالحافظة الجيدة فلا مندوحة لهم من الإستمرار في الكتاتيب إذ إن (هون) التى زارها السيد أحمد الشريف قبل أن

يرحل نهائيا إلى تركيا وأمَّ فيها خلال شهر رمضان ما يربو على الأربعين من الحفظة من أوكد واجباتها أن تفرض على عدد من أبنائها أن ينذروا أنفسهم لهذه المهمة الجليلة . كما أن الشيخ الذى كان طالبا في ذلك الزمن ودعا له السيد أحمد بالتوفيق حين سمعه يقرأ ذات ليلة منذ صلاة العشاء وحتى صلاة الفجر وعبر عن شديد إعجابه بقدرته ودقة روايته في مقدمة المدّعوين لحث أبنائهم على الإضطلاع بهذه المسؤولية فماباللك وإبنه هذا يتوفر على حافظة نادرة وقدرة على الإستيعاب .

لكل هذه الإعتبارات لم يسمح له حين أراد أن يذهب مع أطفال الشارع بأن يكون ضمن الذين جرى إكتتابهم ، واالإكتتاب يتطلب حضور الولى ذاته ، وقد قيل له بحزم شديد عرفت الأساسيات والمطلوب الآن هو القراءة فهذه هى الرسالة وهذا هو الطريق المورروث

لقد كانت خيبة أمله كبيرة فهو مولع منذ طفولته الأولى ومنذ أن أدرك بداية الحياة بالإنضمام إلى تلك المجموعات التى كانت تتوجه إلى ذلك المكان حاملة الحقائب فوق الظهور وليس ألواح الخشب والتى تجلس على المقاعد وليس على الأرض ، وكان عند ما فتحت أبواب المكان يرى أن من تحصيل الحاصل تحقيق هذه الرغبة لكن الأمور اتجهت هذا الاتجاه لقد كان القرار قاسيا على النفس ثقيلا على الوجدان جعله يتميز غضبا تجاه كل من يعطي الحق لهذا المنع ، ولهذا غدا يستظهر كل ما كان

يلقى على أولئك الزملاء حتى لقد أصبح لايختلف عنهم في شئ ومرة كان في الطريق ليلا إلى بيت إحدى خالاته ويستظهر ما سمع نهارا وإذا بأحد الرجال الذين لايعرفهم يستوقفه وعندما إقترب من الرجل فوجئ به يجره بكلتا يديه وكان جريمة قد بدرت منه وأخذ يوبخه على إعادة هذا الهراء الذي لا يتناسب ورسالة الوالد إزاء كتاب الله ، ولم يطلق من يده إلا عندما ما أخذ عليه تعهدا بعدم العودة إلى هذا الصنيع !!

ولم تكد تمضي على تلك اللية سوى أيام معدودة حتى طلب إليه أن يتوجه إلى الجامع العتيق حيث تقرر أن تكون القراءة من مسئوليات الفقيه « الغول » ذلك الذى أمسك به في تلك الليلة فقد أبرم الشيخ معه إتفاقا يتم بمقتضاه الإنتقال إلى الجامع العتيق لتولى تدريس القرآن لقاء كمية من التمر من مزرعة الشيخ ذاتها ، مما جعل الفقيه الغول يتخلى عن فكرة الهجرة التى كان قد قررها بعد أن أستونفت الدراسة وذهب إليها أكثر الأطفال لقد كان في الحقيقة لايحتاج إلا لجهد أكبر من الرقابة وأعمال شئ من الشدة حتى يداوم على المراجعة ويتجنب النسيان الناتج عن الإهمال وعدم المراجعة إن الفقيه الغول رجل صبور للغاية ومثابر كل المثابرة على التعليم. وهو يتفرد بتلك الحصة المسائية التى تبدأ من عصر كل يوم إلى مايقرب من المغرب ، والتى تجعل من كل طالب له قدرة ولو متوسطة على الحفظ قادرا على التحصيل وهو في الحقيقة لايحتاج إلا لهذه

المهمة ، إذ إنه من حيث أساسيات الرسم تكون على يد الشيخ علي صاحب الباع الواسع في هذا الطريق ، كما أن الشيخ نفسه شديد المتابعة والقدرة . في حين أمكن إنجاز حسن الخط على يد المدير الذي بذل كبير العناية له ولغيره من أبناء الحى . ما ينقصه إذن هو تشديد الرقابة وهى المهمة التى أحسن الفقيه اداءها بحيث لم يعد في مقدوره أن يترك أى جزء تمكن من إستظهاره ، فالرقابة مستمرة والقراءة المسائية لما فيه من حيث الوقت والتسميع الإسبوعى يوفر أحسن الضمانات . .لم يسأله الفقيه الغول إلا نادرا عن طريق الرسم فهو يعرف الجهد الذى بذل ولكنه ركز فقط على مراقبة الحفظ .

إن الطريقة التقليدية تقوم على ضبط النظائر والأشباه وإختلاف الكتابة في الجملة الواحدة ، وهناك أراجيز كثيرة تقيد المعرفة وتحدد الفوارق تلقن للطالب وهو يمر بها أثناء الحفظ والكتابة عادة على شكل هامش أسفل اللوح على حين يستطيع النبيه أن يستظهر من الكلمة الأولى وبواسطة هذه القواعد يستطيع المتلقى أن يحدد المنازل وهناك قصص كثيرة تروى بصدد الإختلاف حول كلمات مثل : الميعاد . .تفاوت وغيرها مما لاعلاقة له بالمعنى ليس من مبرر كذلك في كتاب الفقيه الغول لمن لايحفظ ما قرأ فرقابة الرجل شديدة وجدول أيام التسميع محدد وحرص الرجل لايجارى ، فهو متفرغ لمهمته تفرغا تاما إذ لم يضطلع طوال حياته بأى مسئولية تتصل

بالناس أو تثير كلامهم ، بما في ذلك إمامة بعض المساجد بالرغم من إنه من كبار الحفظة المشهود لهم بالإستقامة كما أنه لم يقترب من أي علم من العلوم الأخرى ، إن لديه قناعة تامة أن القرآن يغنى صاحبه عن كل علم وإنه لايقبل أى شئ معه إنه يقرأ الكتاب آناء الليل وأطراف النهار ، فأذا ما أنس من طلبته إنجازا حقيقياً في الحفظ ، بادر باملاء متن ابن عاشر الذى يضع صاحبه على الدرجات الأولى من سلم العلوم الدينية من حيث الصلاة وأركانها والطهارة وشروطها والزكاة ونصابها والصوم وموجباته والحج وثوابته وهو يشبه القرآن بالجمل الذى يحتاج لضمان عدم هروبه توثيقه بالحبل وحبل القرآن التلاوة وهو شديد الإعتزاز في مجال صحة النقل ودقة الرسم كثير الحديث عن نفسه اذا مالاحظ شيئا من المنافسة خاصة عندما كانت الكتاتيب كثيرة والمنافسة قوية حيث يتحدث إلى بعض طلبته مفاخراً بصحة النقل والأسبقية، وهو من هذه الناحية يختلف كل الإختلاف عنهم جميعاً فهم لاينزلقون إلى هذا المنزلق ولايجاورنه في مثل هذا المسلك الذي يقحم الصغار في شؤون الكبار ومن الممكن القول أنه رجل صعب المعاشرة وإن ذلك يتضح من الموقف المتشدد الذي يتخذه تجاه أبنائه إذ بالرغم من أنهم كبروا وصاروا أزواجا فإنه يعاملهم معاملة الأحداث .

قضى فترة من شبابه لدى قبيلة أولاد وافى الشهيرة بعلم القرآن بالجنوب ثم قفل راجعا وظل يمتهن الفلاحة حتى كانت

الأربعينات عندما بدأ رحلته في تعليم القرآن إلى أن جيء به الى الجامع العتيق وقد كانت طريقته في التعليم مفيدة، إذ لم يقضِ معه سوى سنتين أنجز خلالهما السلكة الثانية حيث أفلح في إستظهار القرآن كاملا وهو في الثالثة عشرة في حين كان فراغه النهائي في سن الخامسة عشرة وقد تزامن ذلك مع قدوم الشيخ « التنبكتو » الذي عين في ذلك الوقت قاضيا بالوكالة وطلب إليه الأهل أن ينظم دورة في تعليم النحو بإعتباره أساس العلوم وحدد المهمة في الفترة المسائية حيث شرع في تدريس الاجرومية ممهدا لذلك بمخطوط وضعه بنفسه.

إن طريقة الرجل تقوم على التوسع في الشرح وضرب الأمثلة ومن ثم طرح الأسئلة عى الطلبة لإختبار مستوى التحصيل وهذه الطريقة ترمى إلى تحقيق الإستفادة من أقصر الطرق وقد بذل الرجل جهدا ضخما في تعليم المجموعة وكان همه الأول الوقوف على تحسين مستوى الإلقاء والحد بقدر الإمكان من الأخطاء والتى كانت شائعة بشكل مخجل .

لقد كانت المجموعة خليطا عجيبا من الشباب ، منهم من لديه بعض المبادئ ومنهم من ليس لديه أى شئ وهناك من هو غير جاد بالأساس كما لم يكونوا متساوين من حيث السن ولهذا فقد إشترط على أولى الأمر أن يحضروا الدرس حتى تتحقق جدية المتلقين فهو حريص على عدم تضييع الوقت وعلى توفر الإنضباطية اللازمة والجدية الحقيقية كان الشيخ متطوعا

لمهمته هذه ولم يكن له من دافع سوى الرغبة الصارمة في الإفادة وكان ولوعا بالنحو واللغة العربية وقد تبحر في هذين الفرعين تبحرا جيدا وقد أردف هذه الدورة بأخرى كرسها لشرح ملحة الاعراب التي وضعها الإمام الحريرى، وقد نهج في تدريسها نفس النهج من حيث التوسع في الشرح والأسئلة والأمثلة والتمارين والسعى المستمر لتثبيت المعلومة وهو لم يكن متحمسا للإسلوب الذى ينصح به بعض الأهل من حيث الإستظهار الموسع للمتون وترك الإنتقال الى شرحها مستقبلا مما جعله لايحبذ التوجه إلى الفية إبن مالك ... كان قد قدم لتوه من منطقة بنى وليد مرفوقا بزوجه دخل بها حديثا وولدين وكان قد قضى قبل هذه الفترة فترة أخرى بالزاوية الغربية وأغلب الظن إنه قد ولج باب الوظيفة العمومية من هناك عن طريق الشيخ عبد الرزاق كما عاش فترة من الوقت باليمن حيث تأثر بالمذهب الزيدى في هذه الفترة كان الرجل يومئذ يودع سن الكهولة فأتخذ قرارا بضرورة العودة إلى بنى وليد حين يزف وقت الإنتقال كى ينشأ الأبناء في كنف أخوالهم ويتجنبوا إشكالية الغربة وإنعدام العشيرة إن المذهب الزيدى ينطوى على شئ من المغالاة لكن الشيخ لم يكن بهذه الكيفية بل أنه بالرغم من تآثره بذلك المذهب فإن أراءه الفقهية التي أعطاها على هيأة أحكام لم تتجاوز أساسيات الإمام مالك بوصفه إمام الأغلبية كان معجبا كذلك بأئمة المعتزلة وفي مقدمتهم الجاحظ وكتابه

البيان والتبيين دخل مع الفقهاء في جدل كبير حول بعض الممارسات التى رأي أنها قد تدخل في إطار البدع لكن القوم لم ينصاعوا لأرائه كانت حجتهم أن أسانيدهم قوية وإن علماء كثرا كانوا قد حلو بالبلاد وأقتنعوا بما دفع به أولئك القاطنون كان من أشد ما ضايقه خلو البلدة من المشاكل حتى لقد ظن البعض إنه يحب المشاكل لذاتها في حين إن هدفه كان الحوار الذي ينتج عن المشكلات بإثارة البحث والتنقيب ، وخير دليل على ذلك أنه لم يعطل مبدأ المصالحة المعمول به ذلك الإسلوب الذى أسس له الكثير من السابقين .

كانت سلطات الولاية قد أجرت في تلك الأيام إمتحانا إختارت بموجبه عددا من كتبه المحاكم وقد عين بموجبه الشيخ علي بالمحكمة بعد أن ظل سنين طويلة محروما من أى عمل إبتداء من مظالم إيطاليا نحوه في الثلاثينيات ثم مواقفه في زمن الإدارة البريطانية وقد أدى هذا التعيين إلى زيادة النقص في التقاضى، حيث ضاعف الشيخ علي من إسلوب المصالحة فقد كان يسعي فيها وهو مجرد عين من الأعيان ناهيك من وجوده في المحكمة وإكتساب صفة كان يسعى فيها وهو على ماهو عليه من المنزلة وعلو المكانة

كان الواقع العام يمر بأحداث كثيرة لامناص من أن يكون لها تأثيرها الحاسم في المناخ العام وفي الذهنية السائدة أيضا فمع سقوط مشروع بيفن سفورزا إتضح إن شكلا من أشكال

السيادة الوطنيةُ قد تحدد وإن ملامح هذا الشكل قد أخذت في الظهور وفي إتجاه البتر والحد من الفاعلية والمخالفة الواضحة لتطلعات الناس وأحلامهم وأمانيهم فكان واضحا إن النظام الإتحادى هو الذي سيفرض بالرغم من معارضة الأكثرية له وذلك منذ أن شكلت الجمعية الوطنية بنسبة عشرين عنصراً من كل ولاية وإن المنطقة مستثناة من كل مشاركة بالرغم من أهميتها الحدودية وإتساع مساحتها وحضورها في أحداث تاريخية كثيرة وموقعها الإستراتيجى . وقد دعيت تلك الجمعية بجمعية الستين وكان الرأى العام معبأ ضدها بكل أشكال العداء والرفض وعدم الثقة في أى قرار يصدر عنها . وقد تبين أن مجلسا نيابياً سيتكون وأن المنطقة ستحتاج إلى الإستعداد لمعركته إن للناس فكرة عن مثل هذا المجلس بعضهم بواسطة القراءة والإطلاع على التاريخ وبعضهم، بحكم فهم التجربة أثناء الهجرة إلى مصر وبعضهم إستقى المعلومات من المتصرف الإنجليزى « مكلين» ذلك الذي يتكلم العربية بطلاقة شديدة ويبدو وفي بعض الأحيان وكأنه شيخ من شيوخ البادية. تم في هذه الفترة افتتاح مكتب للأرصاد الجوية ترتب عليه مجئ عدد من الموظفين المستنيرين . كما فتح النادى الأهلى الذي شغل مبنى الجبهة الوطنية الذى ظل مقفلا لفترة طويلة كما بدأ النشاط التمثيلى بمجئ الشغيوى والمقدود وشرع في النشاط الثقافى بإصدار صحيفة الصراحة وإجريت مباريات رياضية مع

فـرق المدن البـعـيـدة بل أن التـدريب ذاته كـان بـواسطة بـعض الرجال الكبار نسبيا . اخذت المجلات تصل هى الأخرى، الهلال والمصـور، ومن قبـل عرف الناس مجلة الرسـالة حين جاء الأستاذ الذيب قبـل أن يستـقـر بطرابلس ويصـدر صـحـيـفـة الليـبى ففى المنطقـة قـضـى مـا يقـرب من السنة يعلم ويحاور ويقـيم الدورات ويصلى التراويح والجمع أيضاً لقد كـانت فترة جـميلة تلك التى قضـاها كان لهـا وقعهـا الجميل لدى المواطنين الذين قدروا كفاءة الرجل وأدبه شـخـصـيـاً . لقـد سرى في الحيـاة شئ من النشـاط الإجتماعى غير العادى شمل كل هذه المجالات الحيوية وأشاع التفكير في شؤون الوطن ومستقبله وغدا يحس كل من لديهم شئ من الإستعداد للفهم والتقدير . إن الصحراء تتيح لمن يعيش في أعماقها مجالا واسعا للتفكيـر ومتابعة ما يجرى في الوطن من أحداث، كثيراً مـا تدعو الى إستنفار الذاكرة وتنشيطها، بالرغم من دواعى الإحبـاط والإنقطاع عن مـخـتـلف الشـؤون أحياناً وظهور ملامح الشكل السياسى الهزيل بل إن الأمر الذى سـر به الناس في الحـقـيـقـة هو سـلامـة المنطقـة من الإحـتـلال الفـرنسي ومن تلك الممـارسـات التى تـعـرض لهـا سكان الجنوب وهى المنطقة المرتبطة إلى حد كبيـر بهذا الواقع إنها المظالم التي كـانت إمتدادا لماجرى في المغرب العربى عـمـومـا كـانت عديد السلع تأتى من هـناك وكان ثمة إقتناع بأن المستوى الإقتصادي أفضـل إلا أن إستشعار أمثال شعبية كثيـرة، إستند عليـها القوم

وهم يتحدثون عن شؤونهم وهمومهم ويجرون المقارنات بين واقعهم وواقع غيرهم هو ما أشاع السرور وقد كان من أكبر ماكانوا يفاخرون به كونهم إستطاعوا أن يذهبوا إلى فلسطين لمناصرة أخوانهم العرب دون أن يمنعوا من ذلك كما حدث بالنسبة لسكان فزان إن التجربة كانت مثيرة حينما رجع أولئك المتطوعون وهم يتحدثون عن أهوال الحرب وأنواع الخيانات والتولي يوم الزحف بالإضافة إلى البطولات التى ظهرت وكان يمكن أن يكون لها أقوى الأثر لو وجدت القيادة الحكيمة والنية الصادقة كما كان يتحدث صالح سالم ومحمد نعجة وعلي منصور ودخيل الخطرى وأدريس الشغيوى كان بعضهم ضمن حصار الفالوجا الشهير.

إذن له في هذه الفترة بالتوجه إلى المدرسة واستبعدت فكرة الأزهر أو أجلت على مايبدو وتم تعديل المستوى بالسنة الرابعة لم يكن ثمة فارق بينه وبين بقية السنوات سوي الرياضيات والعلوم والجغرافيا ما عدا ذلك كان يفوقهم جميعا بل يفوق عديد المدرسين أيضا فهو لايحتاج لشئ في مجال اللغة العربية بعد أن إستظهر كتب المرحلة الثانوية المصرية في المجال العربي عموما : المنتخب من أدب العرب ومعالم تاريخ العصور الوسطى تاريخ ليبيا العام فضلا عن ملخص سيرة إبن هشام (مورد الصفا) مختار العقد الفريد وحي القلم وحي الرسالة مدامع العشاق وكتب أخرى كثيرة جئ بها يومئذ ضمن مشاريع

النقطة الرابعة في المكتبة التي إنشئت بمساعدة الأستاذ حامد وربما لطبيعة المواضيع والأكيد إن الأمرين معا. لقد تكلفت صحيفة الوطن بتقديم صورة كاملة عن القضايا التي تشغل بال المواطن والوسط الثقافي وصورة عن جمعية عمر المختار ورأيها في القضايا المصيرية وكان أطرف مانشر يومئذ تلك المساجلة الشعرية تجاه هلال رمضان عبر قصيدة مطلعها :

أترى القاضي أعمى أم عن الحق تعامى

سرق العيد كأن الـ عيد من مال اليتامى

يومها كان سؤاله المبكر عن الماجرى وما إذا كان من نفس المنطقة أم لا ؟

لقد كانت العلاقات مع برقة متينة للغاية وهى لاتعود فقط إلى وجود أعداد كبيرة من القوم تعمل هناك بل تعود الى زمن أبعد حين كان التوجه إلى الجغبوب والكفرة للاستفادة من القراءة أحياناً وللإقامة وإعطاء الدروس أحيانا أخرى فهذه مراكز علمية كبيرة والتوجه إليها كان شائعا من عصور قديمة

كانت الاحداث تتوالى وتترك تأثيرها على العقلية الفكرية الصاعدة بقوة شديدة فيحدث الإنتقال من الصفر إلى المتابعة الواعية لما يجرى في الواقع المعاش من صراع. وما يعانيه الناس من مآسٍ ابتداء من تلك التى أجبرت على الزواج ممن لاتحب وقبلت بإستمرار الزوجية خشية العار مرورا بالذى وضع عينه على فتاة الحى ومايزال يواجه إشكالية الفوارق الإجتماعية التى

طالما حالت بين من لايملك ومن لديه فائض إنتاج ومن ليس لديه سوى قوة عمله والكثير الكثير من إحتياجاته وقد كان الشكل الفني المعبر عن ذلك هو التعبيز الشعبى هو الزجل خصيصا والزجل يأتى في الغالب على شكل رباعيات تخاطب شغاف القلوب وتصور لواعج النفس وفي أحيان كثيرة تجئ حاسمة صامدة غير متهيبة من أى نهاية يمكن للمرء أن يصفها بالكي الذى يصفونه بآخر طب ، تلك الكلمات بهذه الكيفية ، إن المرابط على العربي أكثر الناس تعبيرا عن مآساة الزمن فهو على مايبدو شديد البؤس مع زوجه التى إنفصل عنها ذات مرة وله منها أكثر من طفل وحاول أن يعيد معها رباط الزوجية مرة أخرى رافة بالاولاد الكبار وحرصا على لم الشمل. لكن هذه العودة التى جاءت في زمن سئ للغاية لم تزده الإّ شقاء ربما لإنه صعب بما لايوصف وربما لإن السيدة لم تستجب ولم تراعي الزمن وقد تكون إستشعرت القوة على أنه في جميع الأحوال كإن نموذجا يبعث على التفكير المستمر ويدعو إلى الإصغاء اللامحدود . إن أغلني المرابط على في الحقيقة تختصر الحالة وتجسد الموقف حتى النهاية

أنا بعت والله يربح   ولاي لاحقتني ندامة

واللى شرى الله يهنيه للآخرة في القيامة

لقد كانت الحياة آخذة في الصعوبة يوما بعد يوم. وتشكل الفلاحة البدائية المورد الأساسى للرزق والوسيلة الوحيدة

للحياة. ومايزال الرى يتم بالطريقة التقليدية إى بواسطة البهم فالقوم لايملكون البقر هناك وطبيعة الأرض تقتضى أن يسقى المنتوج كل يوم وبعضه صباح مساء ومع ذلك فالإنتاج قليل للغاية .

إن الفقر هو سمة الزمان، عديد الفلاحين يضطرون لبيع إنتاجهم قبل حلول مواسم جنيه لسد حاجاتهم اليومية وينتج عن ذلك إن يكون فارق السعر كبيراً للغاية فحين يتم البيع قبل موسم الجنى وربما قبل الزرع فى بعض الأحيان فإن المشترى سيفرض شروطه، والإنتاج فى الغالب يكون أقل من ذلك الذى سدد ثمنه وفى هذه الحالة يرحل المطلوب إلى السنة القادمة ولكن بسعر جديد يكون بالضرورة على حساب المزارع هناك من يعتبر هذا النوع من التعامل فى حكم الربويات وهناك من يذهب إلى القول بأن ذلك يشكل نوعاً من التعامل المباح مادامت النقود لا تتضاعف من ذاتها إذ أن الربويات حسب هذا التحليل تنحصر فى تقاضى العمولة على السلعة وبالذات بين إنسان وآخر إن مناسبات جنى الثمار ووفقاً لهذا الواقع السىء كثيراً ما تتحول إلى مواسم للشكوى والأنين والتبرم من الزمن وصروفه ومن أهله الذين هيأتهم المقادير لقطف ثمار كل شىء من أقصر الطرق وأسهلها إن بعض البقالين الذين يتعاملون مع المزارعين المحتاجين يحرصون حيث تحل مواسم التسديد أن يكونوا مرفوقين ببعض أفراد البوليس وهم يجوبون مناطق

الفلاحين، إنهم يمارسون صنعهم هذا ظاهرياً كشيء تلقائي، الا أنه في واقع الأمر ينطوى على شيء من التهديد وضرب من ضروب الضغط لتسديد الكميات المتفق عليها وربما ترحيل ما يتعذر تسديده .

لقد كان شديد التأثر لهذا الواقع يمقت مقتا شديداً أولئك الذين يقومون بتلك الممارسات عندما يتوالى حضورهم إلى تلك الأحياء المتكونة من مزارع دواب وحياة كلها كفاح وإصرار يعبر عنها الغناء المؤثر : -

الزرع كرم وهرم   والغرس ملاحلوقه
وقولوا لكسار الأسعار   لايلحقه لا يذوقه

إن الغناء دائماً ينطوى على موقف ويعبر عن مستوى من مستويات المقاومة فالعلاقة بين المزارع ومحيطه في الغالب تحيط بها الصعوبات والشعواني الذى يردد هذه الكلمات أفلح في تحقيق شروط أفضل وهو من لايبيع انتاجه وفقاً لما يخطط كسار الأسعار وذلك عندما تخلص من أسر الحاجة ومن المؤكد أن حسن التدبير والإقلاع من السقوط أمام الشهوة هو الذى أدي إلى هذا الواقع المتميز وغير الخاضع للشكوى .

على أن هذه الآمال كثيراً ما تتبخر أمام ضغط الزمن وصروفه القاسية والغلبة ما تزال وفي ظروف كثيرة لصالح ذلك القول الذى اسمه كسار الأسعار ، فالفسحة كل الفسحة له ، والضيق كل الضيق لغيره. إن الأرض يزداد شحها كل يوم للأسف

والزراعة تعجز عن إعطاء أى مردود. ومن المستحيل أن يصل إنتاج الوديان القريبة لقد إنعدمت الأمطار ولم يعد ثمة ما يباع بما في ذلك الفحم والحطب الذى كان يأتى بواسطة بارود كثيراً ما يرد من حيث جاء فالكساد هو سمة المرحلة .

وحدها مخلفات العدو التى ما تزال توفر بعض المداخيل، وتدر شيئاً من النقود التى تسد الرمق ، وقد هبت على محترفي هذا النشاط رياح الرحمة، حين عين الفقيه محمد مكلفاً بشؤون الخفارة، ذلك الرجل الذى حل بالمدينة منذ الإحتلال الإيطالي وكان مثالاً نادراً فى حب الخير وعدم الملل من المساعدة للناس كافة. وصار الرجل يدشن فترته بغض النظر عن الجميع. إن المكلف الأعلى بهذه المهمة هو محمد أفندى، منذ أن أعيد ترتيب المنطقة حين قرر الإنجليز العودة إلى مدن الساحل عقب الإحتلال البريطانى لكن الأفندى لم يمارس أى مسؤولية من هذا القبيل ربما لشعوره بحساسية المهمة وربما لأنه رأى فيها تغطية عن الموقف الحقيقي، لكنه الآن فيما يبدو وجد فرصة بإسناد المسؤولية إلى الفقيه محمد عسى أن يكون فيه ما يساعد الناس على مصاعب الزمن، اذ لا يوجد شيء يمكن أن يحقق دخلاً ما سوى ما يمكن الحصول عليه من تلك المخلفات، لقد جاء الآن دور التألف من تلك المخلفات وهذا التألف يملأ أطراف المنطقة وصحاريها ذات المساحات الشاسعة جداً لقد إقتضت ظروف التصنيع والتجارة أن يتم تجميع تلك المواد وحملها إلى المدن

توطئة لتصديرها إلى الخارج وقد نادى المنادى بإستعداد بعض البقالين لشراء أى كمية تورد إليهم . كانت الأسعار زهيدة إلا أن كثرة الموجود توفر الفرصة الكفيلة بالتعويض من خلال الكميات المطلوبة . بدأ الشراء بالصاج أو « اللاميرا » كما تقول التسمية الإيطالية الشائعة بدأ الجميع سباقهم نحو المجتمع حيث يتم الشراء مباشرة ، ولم يجد إلا القليل غضاضة في إحتراف هذه الحرفة ، ولهذا لم يتأثر القوم كثيراً بزيارة يوسف السنوية التى إعتاد أن يقوم بها قبل موسم قطع التمر ويرد على سائليه عن أحوال السوق فيذكر إن التمر غير مطلوب والهدف بطبيعة الحال هو الحيلولة دون أ ى محاولة لرفع سعر البيع فهو فى نظر المنفطنين ليس أكثر من أحد كسارى الأسعار وبالتالي فانهم لا يقتربون من الأماكن التى يرتادها على الإطلاق إن هذه التجارة خلقت شيئاً من الحركة وبدأت أثار اليسر تظهر على فئات كثيرة من السكان لأن الكميات كثيرة ومنتشرة والطلب موجود ولهذا لم يحصل أى تطاحن سواء بالنسبة للرأى الذى أراد أن تكون المواد فى حكم مخلفات العدو الرسمية وللرأ ى المخالف الذى رأى ان هذا الحال يخص الناس جميعاً ومن حق الناس أن يستفيدوا ، وهو التوجه الذى رعاه وكرسه الفقيه محمد .

لم تكد (اللميرا) تختفي حتى بدأ شراء الشظايا وهى التى أطلق عليها إسم (السكيتجو) تلك العبارة الإيطالية التى

عنت أكوام الشظايا التى بعثت من المتفجرات التى ملأت البلاد طولاً وعرضاً أثناء الحرب الكونية الثانية ، تلك الشظايا التى كونت أكداساً سوداء ملأت الصحراء الليبية والتى تحولت يومئذ إلى مصدر من مصادر العيش لكل الليبيين، سوى الذين أستهوتهم هذه الحرفة ، منذ أن نودى بشرائها قام عدد من التجار وقع عليهم الإختيار لشراء هذه السلعة لكن آخرين ظلوا بعيدين عن ذلك لأن التصدير إلى طرابلس سيكون عن طريق واحد وهذا الطريق لا يسلكه الجميع فهناك تقديرات للأمور ومواقف سابقة وأخرى لاحقة إن الوزن ايضاً يختلف إذ ليس من يزن له حامد كمن يزن له غيره من البقالين فحامد الذى تسبق إسمه لدى الصغار والكبار كلمة (سيدى) الرجل الذى لا يمل البسمة ولا يسأم الترحيب بالناس ولا يتأخر فى الترحيب والإستقبال والذى لا يعرف ميزانه الكسور . فالكسر عنده رقم صحيح ولصالح البائع والتسديد عنده يتم فى لمح البصر، فى حين يصر غيره على إشعار البائع وكأنه فى حكم صاحب الصدفة - اللى وراه اليد ما يزيد - .

هكذا قال البعض حين أخذت الكميات تتناقص يوماً بعد يوم حتى لقد تحولت مع الزمن إلى شوقه كما يقولون وغداً شبح الحاجة يطل مرة أخرى فليس المردود كبيراً من البداية كما أن الإستهلاك له مرتفع ولا يعرف الإنقطاع .

لكن نصيب المرء مثل ظله، تلك هى حكمة الناس هناك

والأرض ما تزال تجود ولهذا جاء دور النحاس فخرج المنادى متمثلاً فى صوت جداد الذى خرج من زاوية القادرية ينادى بعد الصلاة على النبى والتكبير لله والحمد لله، قائلاً :

من لديه نحاس فليتوجه إلى حامد عبدالسلام ليسلم ما لديه ويأخذ الثمن فوراً .

إتضح للناس جميعاً أن أكبر التجار خلف هذه المسألة فحامد ليس لديه رأسمال ، لكن هذا لا يهم المهم هو أن يباع النحاس ويدفع الثمن، تنادى الرجال والصبيان وبعض النسوة أيضاً لتوريد ما لديهم غير أن الكمية لم تكن كبيرة فقد سبق أن جمعت كميات كبيرة بواسطة شركة اليهودى (حنونة) ولكن بمجرد أن نفذت الكمية إتجه الناس إلى أكداس الذخيرة الموجودة فى العراء ينزع الديناميت من الماسورة ومن ثم أفراغ بقية المواد ، إن الديناميت لا ينفجر إلا إذا دق فى مكان محدد له يطلقون عليه إسم (الكبسوله) فى حين تشكل المواسير كمية من الكيلوغرامات فتدر بالتالى دخلاً ممتازاً ، إن الفكرة مأخوذة من الإيطالي (كنفلونى) ذلك الفني الذى حضر مع شركة الانتى باس ، أما الناقل فهو (دافه) ذلك الرجل العجيب الذى لا يعرف للخوف طريقاً ، لقد أفادت تلك الخبرة القديمة عشرات الرجال الذين يعيشون هذه الأيام ويواجهون ظروفاً صعبة فقد تكلفت بدر كميات جيدة من النقود وكان النشاط واسعاً ومغرياً حقق مناخاً لأناس ما كانوا يقتربون من هذه

العوالم وقد أتاح الفرصة لبعض الشباب الذين قضوا زهرة شبابهم فى سلك البوليس وفضلوا أن يبتعدوا عن الأضرار بالناس فخسروا الترقية وخسروا المكسب وخسروا العمر حتى لقد أوشك القطار أن يفوتهم فى مجال الزوجية فوجدوا فى هذا النشاط ضآلتهم المنشودة بحيث أمكنهم الرفع من دخولهم وتحقيق متطلبات زواجهم كان ثابتاً إن هذا النوع من الذخيرة سهل الفك ولاخطر منه بأى حال من الأحوال فأقبل عليه الجميع من دون خشية أ و ملل ، الكل يفك ويبيع وأثر النقود يبدو واضحاً ، إ لا أن المفاجأة ما لبثت أن ظهرت بوجهها الكريه عندما وقع الانفجار المرعب الذى أودى بحياة على بشير مولاى ، ذلك البوليس الطيب الذى عاد منذ فترة من مصراته ليعيش مع والده الشريف بشير الذى أصبح عاجزاً عن الفلاحة التى إحترفها منذ شبابه الأول عندما أختار المدينة مقراً له حتى لقد رافق أهلها عند ترحيلهم إلى مصراته والخمس فلم يقل لست منهم وإنما ذهب معهم جنباً إلى جنب لقد شكا منذ فترة من صغر سعيد وسفر على وزواج البنات ، فأمكن إقناع على بالعودة فخلد البشير إلى الراحة وظن أن الزمن قد إبتسم فإذا به يتفاجأ بهذا الحادث ويواجه هذا المصاب الأليم، كيف وقع الإنفجار على هذا الإنسان ومات على مولاى دون غيره من الناس ؟ كان الشريف بشير يبكي بكاءً مراً وعلى مضرج في دمائه والرجل يوجه خطابه للناس جميعاً : -

شن درت تحت ربى : -

والكل يحوقل ويستغفر على هذا اللغو غير المقصود بالطبع من ذا الذى يستطيع الإجابة وماذا ستفيد هذه الإجابة فعلي مات ومن مات لا يعود إلى يوم المعاد كلمات كثيرة قيلت فى تلك اللحظات البعض يتحدث عن الكرم والرجولة والبعض يفسر الإنفجار بإسراف علي فى دق المأسورة بحيث إرتفعت حراراتها وتفجرت من دون الإقتراب من الكبسولة والبعض يؤكد مجرد تبرير للإستمرار فى فلك النحاس، وبيع المواسير لكن علي بن مولاى لم يكن وحده فقد لحق بعد فترة قصيرة محمد أبوبكر وأحمد بشير ، الأول عاد لتوّه من الأسر وظل يعيش على هذا النوع من النشاط والثانى ترك أطفاله القصر ووليده الجديد .

الحياة العامة فى العشيرة كانت تحفز على الإستيعاب الدائم لكل الأحداث بسرعة متناهية مؤثرة إجتماعياً ونفسياً غير إنها لا تبقى كثيرا بسبب تتاليها ، الانتخابات التى إجريت كانت نتيجتها مقررة سلفاً فهى إما أن تكون على النحو الذى إجريت له أو سيكون الفائز من غير الذين تقدموا فالمسألة ليست مسألة أصوات وحسب ولكنها مسألة مناطق موزعة وأدوار مرسومة فقبل خوض المعركة أثيرت مسألة المنطقتين المتلاصقتين الوسطى تحديداً كانت بعض التدابير القبلية تسوغ الفكرة المطروحة ما يكفى ولديها من التفكير فى المصالح ما يدعو إلى الآن . . . ،

لقد كانت القدرة الإقتصادية مهمة ولهذا لم يكن ثمة بديل من الحاج وبداو الحالة هذه وكأنه المنقذ الوحيد كان يدرك فى أعماقة إلاَّ بديل له وكان شديد الرغبة فى المكان المنتظر لقد كون فكرة جيـدة من صـديقـه الإنجليـزى (مكلين) إلا أنه كـان يريد الإحتفاظ بخط الرجعة مع كل الأطراف مع العلاقات التاريخية القديمة ومع المصلحة المنتظرة وقد جاء نذير السوء متمثلاً فى قرن المنطقة بتاورغاء لإمتداد المسافة ولانقطاع سبل الإتصال فبات واضحاً أن النتيجة محددة ولكن الناس إتخذوا قو رهم من البداية إنهم يصرون على أن يكون مرشحهم منهم وليس من خارج المنطقة فبادروا بتسجيل أوراقهم .. وأعطوها علناً كان مسجلهم منهم ولهذا لم يفرط فى ورقة واحدة ، ولم يقبل بأي شكل من أشكال الترغيب التى عرضت عليه من قبل المراقب العام ومن بعض الأطراف التى تعرف مكانة الرجل وقوة تأثيره على قومه وخلافه القديم مع ذلك المرشح ولكنه أختار المو‌ا ف الإيجابى تجاه التاريخ ولم يستجب لأية مغرية من المغريات .

إن تقسيم الدوائر هو البداية الحقيقية لكل تدخل منتظر فهو بمثابة الخطة التى تتحدد بها المعركة من خلاله يعرف الناتج العام من البداية كان مرشح المنطقة الحاج الذى يمتلك القاعدة الشعبية الكبيرة فى حين كان مرشح تاورغاء هو الحاج سالم صاحب المكانة المرموقة ومع ذلك فان الفوز هو للمرشح الثالث إبن عم الرئيس وكبير المتصرفين كان التاريخ المحدد السبت

19 / 2 ولهذا دعى الشيخ محمد خطيب الجمعة إلى المركز يوم الخميس بحيث قضى الجمعة موقوفاً وذلك فى محاولة للفت أنظار الناس عن أي مصير ينتظرهم فى حين شرع مأمور التسجيل المركزى فى أداء مهمته المحددة كانت أحاديث الناس يومئذ مكثفة ولقاءاتهم مستمرة إزاء تلك الجرأة المتمثلة فى وقف خطيب الجمعة فتوالت ذكريات الناس عن مواقف إتصلت ببعض المشاجرات وكيف كان الأجداد ذات يوم يذكون الخلاف ويحولون دون إجراء أى مصالحات بين المتساكنين لقد ظهرت الأحاديث عن الصف الفوقى والصف الوطيء وما إلى ذلك من التقسيمات القديمة كان الكبار يتكلمون والصغار يسترقون السمع كان حديث إحدى العجائز دقيقاً ويحتوى على تفاصيل دقيقة وكانت على موقف حاسم تجاه التقسيمات القائمة وكان للزجل دوره فى تعميق الإحساس بتلك الأمور وللرواة الشعبيين قدراتهم فى تثبيت المعلومة، خاصة الشاعرة الجوالة (فايزة) التى تسكن «حطية الجلهة» وتروى من محفوظاتها الكثير ومن شعرها الأكثر لكن شعرها لا يتجاوز المزاح ولا يصل إلى جرح المشاعر مطلقا لقد كان التدخل واضحاً والجهد الذى بذل أشهر من أن يخفى وكان تأثير ذلك فى المناطق المجاورة ، حيث أمكن إستمالة عناصر عدة وإن تكن أخرى ظلت غير عابئة بأى تدخل ولا ملتفتة لأى وعود وقد وثق شاعر الشعب هذه المرحلة توثيقاً واعياً وذكياً سواء فى معرض إدانته للمتخاذلين أو فى معرض

إشادته بذوى المواقف الإيجابية وكان فى الحقيقة قاسياً على الذين لم يراعوا واجب الجيرة مشيداً فى ذات الوقت بأولئك الذين رعوها حق رعايتها ووضعوها نصب أعينهم وهم يتخذون مواقفهم الجيدة ولا غرو فمحمد جعدان الشاعر الشعبي المعروف بسلاطة لسانه وقوة حجته يذكر له عارفوه سعة إطلاعه وقدرته الفائقة على المنازلة وكان فى موقفه ذاك يصدر عن نزعة وطنية ويتصرف فى ظروف موضوعية مواتية للغاية كان يومئذ قد حط رحاله بسرت عندما إضطرته ظروف الحياة إلي هجرة أهله، وكانت المنطقة تمور بالنشاط السياسي المتصل بموقف المؤتمر الوطنى والقبائل التى تسكن هناك ترتبط بأوثق العلاقات مع أهل ذاك الشاعر ولهذا إستطاع أن يعايش المعركة من كل ظروفها وملابساتها وقد وجد فيها مناخاً للتعبير عن أزمته وتجاوز محنته الشخصية كإنسان يعيش بعيداً عن أهله وذويه وربما كانت عليه بعض الإلتزامات التى تفرض إتخاذ ذا ك الموقف .

إن الاهالى فى تلك المنطقة كانوا على مايبدو يتابعون المعركة ويتعاطفون مع من يذود عنهم ذلك الشاعر ويشيد بموقفهم وشجاعتهم ليس فقط لتشابه الظروف بين الجماهير والجماهير هناك وإنما لذلك العمق التاريخى والتواصل المستمر عبر الزمن فضلا عن ذلك فإن التسلط شمل الطرفين كانت المنطقة واحدة من حيث الجغرافيا ومن حيث مواجهة التسلط

ومن حيث الإصرار على المواقف بيد أن الشاعر إختار أن يطرق الواقع الليبى عموماً من خلال المعركة المحلية:

اليوم ليبيا مظلومة
اليوم ليبيا تحكم بغير حكومة
بدأ الصقر فيها لازّاته بومه
والضبع هارب من حمار قباله
واللى مش من ليبيا لا تلومه
اليوم ليبيا لزت الزوز قباله
كيف حالكم ياناس هون ادّاله
من حال كدرتكم حنا فى حاله

لقد فجرت المعركة لدى الناس ملكات جديدة ودفعت بهم إلى معانقة الواقع عموما والدخول فيه إلى العمق وتعرية ما يعانيه من إفتقاد شروط الموضوعية فتجاوزت المشكلة الواقع القبلى الضيق إلى الواقع الليبى الأشمل بيد أن الزجل وإن يكن تأثيره أقوى ومواكبته أظهر إلا أنه لم يكن الجنس الأدبى الوحيد وحده فالشعر الفصيح كان له حضوره فيما يتصل بالمنطقة وله متابعة ولعل قصيدة الحوتة التى جسدت المأساة القبلية تعتبر من أكثر القصائد تصويرا لمأساة حياة من ظلم ومحسوبية جراء الضغط القبلي الذى كان خلف أشكال كثيرة من الإضطهاد والملاحقة والتضييق على أصحاب الرأى وحرمانهم من أبسط الحقوق لمجرد أنهم ليسوا من أتباع العشيرة

القوية وإن لم يكونوا رايا مخالفا وشخصية متميزة .

لقد كانت كل الأشعار المتصدية لتلك النواقص المنطلقة من مواقف رافضة ومتمردة تصل إلى تلك المدينة الصغيرة فيتخطفها الكبار يتبادلون قراءتها ويطولها الصغار فيستظهرونها وتظل تشكل وعيهم وتكون لديهم ملكة الرفض والتمرد الذي ما يلبث أن يتطور إلى مفهوم أوسع وموقف عقائدى أشمل فتكون المحصلة النهائية مزيدا من التجارب مع كل نص يأخذ بفكره الرفض الأكبر لقد تسبب إستشعار الظلم من قبل رئاسة المقاطعة وعقب الإنتخابات فى بلورة فكرة مفادها الرغبة فى تغيير التبعية الإدارية للمنطقة حين لاح فى الأفق مشروع تعديل الحدود بين أقاليم الكيان الوليد وكانت المحاولة منطلقة من وجهة نظر مفادها أن الاقاليم يجب أن تكون متساوية فى الإطلال على البحر بحيث يمتد الجنوب فى إتجاه سرت وفقا للعلاقات التاريخية التى طالما شكلت مبدأ الإرتباط بين الوسط والجنوب أو ماعرف بالصف الفوقي وهو صف له أدبياته ومواقفه ولأهله سلوكهم الخاص وقد أصبحوا فى ذلك الزمان يواجهون ظروفا متشابهة من حيث إهمالهم وتزييف إرادتهم وعدم مراعاة تكوينهم وإتساع رقعتهم الجغرافية وموقعهم المتميز وقد إعدت يومئد مذكرة فى الخصوص وطرحت على أصحاب الحل والعقد للمناقشة أولا وإمكانية الإقرار ثانيا وبينما كان الموضوع فى البحث والتفاوض سارع

أحدهم ينقل المعلومة بشكل تحريضي على مرآى ومسمع من الناس مما حدا بالمدير إلى الإسراع بدعوة أحد الفقهاء الكبار الذين كانوا يتدارسون الموضوع ووجه إليه تحذيراً تجاوز فيه على ما يبدو عن أصول اللياقة وواجبات التلمذة إلا أنه كان إجمالاً في إطار التحذير من الموقف الذى ربما يكون أعنف من ذلك فكانت هذه المبادرة لغرض الإحتواء لقد كانت الإدارة حازمة وكانت سلطات الولاية قوية وغير مستعدة للتفريط فى شبر واحد من الأرض وعلى أى حال فقد إتخذت بعد ذلك مجموعة من التدابير المنطلقة من تصفية الحسابات على أن ذلك أدى إلى أوضاع أكثر إعتدالاً فقد أسندت رئاسة المقاطعة إلى رفعت الذى إشتهر بكفاءته وحرصه على عدم الإساءة للناس وأمكن إختيار الحاج أحمد لمجلس الولاية لأن السلطة قد عفت عن التدخل إما للنزاهة وحدها وإما لأن صلاحيات المجلس محدودة وأغلب الظن أن الأمر يعود إلى هذه الاعتبارات مجتمعة لأن كل الذين حيل بينهم وبين مجلس النواب أصبحوا أعضاء فى مجلس الولاية كيفما كان الحال فقد عبرت هذه المعركة عن مشروع ردهم على ذلك الموقف العدائى الذى قاده كبير المتصرفين بطريقته الخاصة والتي لخصها المدير بكلمته الشهيرة عندما نقل إلى مصراته وأبلغ بأنه خالف سياسه الحكومة فقال يومئذ موجها خطابه لكبير المتصرفين .

-فى الحقيقة يابيّ لا أنت مع الحكومة ولا أنا ضدها ، أنت مع

ابن عمك وأنا مع ابن عمى !

وقد استمرت المواجهة بعد ذلك مع ذات المسئول الذى رفع إلى منصب الوالى ، وكان الخلاف الحاد معه بشأن ضرورة أن يكون مسؤولاً أمام المجلس فكان الحاج أحمد فى مقدمة الذين تبنوا هذا الموقف ووقعوا على ذلك تحريرياً مما أدى إلى استصدار مرسوم بحل المجلس ومن ثم التظاهر ضد حكم المحكمة العليا القاضى بالغاء مرسوم الحل فكان رد الولاية متمثلاً فى حرمان المنطقة من الانتخابات حيث طلب منهم إنابة الوالى وكان الهدف بطبيعة الحال معاقبة المدينة الصغيرة وكان أن امتنعت هذه المدينة عن تقديم أي مكتوب وإنما باشرت فى الاستعداد لرفع قضية أمام المحكمة العليا إإن حسابات الحقل لاتطابق حسابات البيدر وفيما كانت السلطة الإ دارية توالى مظالمها فى مضايقة الناس فى كل الأمور اليومية بواسطة متصرف اختبر خصيصاً لهذه المهمة وفيما كان الذين وقعوا على الوثائق الداعية إلى تفويض الوالى ينتظرون قرارات التعيين إذا بالاختيار يأتى من نصيب الشيخ بناء على اتصالات كشفها ومساعى بذلها فى سرية تامة مستهدفاً خدمة نفسه من ناحية وضمان حقوق عشيرته من ناحية أخرى فشكل ذلك الإجراء صفعة قوية لكل الذين راهنوا على المساس بالبلدة وحسبوا أن اولئك الظلمة يمكنهم تحقيق كل مخطط فى حين كانت الأقدار تؤكد أن المواقف السليمة هى التى تنتصر وأن من يورط نفسه لخدمة هذه

المخططات لابد أن يخسر الجولة فقد إستوعب الوالى الموقف وتم أبعاد المتصرف فى لمح البصر ولوحظ انه لم يخط خطوة واحدة إلى الامام منذ تلك الفترة كان فى هذه الأيام قد اتقن كتابة المذكرات الرسمية والتقارير ذات المحتوى التظلمي وسلك طريقاً خاصاً فى التدرب على الكتابة معتمداً على رسائل كثيرة تأتى إلى الشيخ من مختلف الأصقاع وعلى كل المستويات وكون فى هذا الصدد رصيداً لغوياً جيداً وطريقة ملفتة للنظر وقد درس بعناية شديدة رسالة عبدالحميد الكاتب ورسالتى ابن زيدون الجدية والهزلية ومختارات كثيرة حواها كتاب جواهر الأدب للسيد أحمد الهاشمى بل لقد ضاق ذرعاً بما قاله المنفلوطى بصدد السيد أحمد الهاشمى بالرغم من جمال كتاب النظرات.

كان الرأ ى العام يومئذ يتكون ويشمل عديد الإجراء ات التنظيمية والممارسات التى اتبعت والخطوات التى اتخذت عقب قيام الكيان السياسي الوليد وتحديدا فيما يتصل بالمعاهدة البريطانية وشروطها المجحفة وبنودها الغامضة وغير المحددة ، وعلى الأخص فيمه يتعلق بخلفية بعض العبارات المتعلقة بحق الطرف الثانى (البريطانى) فى التسهيلات لقد كان الشعور السائد أن الأمور آخذه فى الاتجاه نحو الطريق المعوَّج وأن فزان بالرغم من أنها جزء من الوطن ستقيد بما يعطى للنفوذ الفرنسي الاستقرار بمعنى أن المفهوم السائد أن الوطن الليبي فى عمومه قد أعيد احتلاله وستبقى القوات الأجنبية الثلاث مسيطرة عليه

وأن المحافظة على المنطقة بمنأى عن فزان من شأنه أن يحقق السلامة من السيطرة الفرنسية التى كانت أكثر شراسة من الإنجليز بدون شك أن طبيعة الواقع هناك لم تعطي الناس فرصة الفهم بأن الشروط الأكبر ستأذن بتصفية الوجود الفرنسي وهو الذى جرى بعد ذلك بفترة ليست بعيدة وإن يكن قد اخذ ببعض الأراضى مع تكون الوعى وتحقق شيء من القدرة على الكتابة الإنشائية تم إصدار صحيفة نبراس الصحراء كانت فى واقع الأمر برعاية واعية وذكية من السابقين إن المادة المنشورة فى الغالب من المختارات ولكن بعض المقالات كانت تكتب خصيصاً وكان من بين ما كتب يومئذ تحت عنوان (كبت الشعور) وقد تصدى لمناقشة بعض المشاعر الخاصة تجاه بعض الزملاء محدودى التفكير ولكن المتصرف وقبل أن يجري رحيله فسر ذلك المقال تفسيراً سياسياً ولولا تدخل الأفندي ودفعه بأن الأمر لا يحتاج إلى مثل هذا التعسف لدخلت المسألة فى حيز المحظور .

إن الفرصة كانت مواتية للتمرد على الوصاية التربوية من حيث القراءة والممارسة غير أن الصياغة كانت الشاغل الأكبر فكان التوقف أمام معجم نصوصي للحديث الشريف الذى جمعه بعناية الشيخ حبيب الله الشنقيطي معجمه المتكون من ستة أجزاء تحت عنوان (زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم) وكان الجمع بين المتن والشرح وكان الشرح يقوم على

المعنى والإعـراب أيضـاً و إلى حـد مـا فـعل ذلك منصـور على ناصـف صـاحب كـتـاب (التـاج الجـامع للأصـول فى أحـاديث الرسـول) والذى كـان أكـثـر شـمـولاً وربما حـداثة أيضـاً إذا إنه اعتـمد على أسلوب المعاجم المستفيد من التجربة الأوروبية كـما أشار إلى ذلك على أن أ كثر النصوص التراثـية هو ذلك المعنون بخطبـة حجة الوداع وبالذات (الأهل بلغت اللهم فاشـهـد) إن القـراءة تتم فى أحيـان كـثيـرة من باب الـفـضـول ومن بين الكتب التي امتدت إ ليها اليد من دون إدراك أهميتها مقامات الحريرى وقد كان مطبوعاً على ورق أصفر يوحي بأنه من الكتب الفقـهية وإذا به ملحـمـة ذات نـص مـختـلف وإذا الشـرح الـذى وضع على الهـامش أكـثـر أهـمـيـة ، لـيس كل مـا يقـرأ يـفـهم بما فـيـه الـكـفـايـة لكنه يختزن على كل حال فعوالم مقامات الحريرى عوالم مثيرة ومـؤثرة وقـادرة علـى الإمـسـاك بالمتلقى على أن حكـم ابـن عطاء الله السـكندرى التى امتدت إليـهـا اليد حين كـان الشـيخ يطالعـها بين الفـينة والأخـرى كانت أكـثـر شاعـرية وتأثيـراً على الروح فى حين كـان كـتـاب أطـواق الذهـب فى المواعظ والخطـب » للإمـام الزمخشرى صاحب اللغة الفخمة والعبارة الموجزة أكثر إمساكا بذهنيته الناشئة إن الايقاع مهم للغاية بالنسبة للنص وقد كان ذلك متوفرا فى متن البرزنجى المكرس لمدح الرسول الكريم ولكن لغته توقف من يستمع بانتباه فالتفقيه فى ذلك النص متميز للغاية وكان هناك تعامل مع الشعر الجاهلى من حيث المعلقات

وكانت القراءة تتم بأكثر من مستوى وبقدر ما يتوقف البعض أمام حكم زهير وفخر عنترة كان ثمة من يقف أمام تأملات وصعلكة طرفة وأوصاف امرئ القيس الحسية وعوالم لبيد الصعبة على أن مختارات السيد أحمد الهاشمي تظل ذات دور أكبر من حيث النصوص الشعرية التى صورت مأساة البارودى عشية رحيله من مصر فى تلك النونية المعبرة « محا البين ما أبقت عيون المهامنى / فشبت ولم أقضي اللبانة من سنى «عناء ويأس واشتياق وغربة / ألاَشدّ ما ألقاه فى الدهر من غَبن » .

إن هذا النص يفرض نفسه على المتلقى بقوة وتأثير عجيبين ومن المؤكد أن بعض الكلمات لم تكن واضحة إلا أنها تتسلل إلى الوجدان وتدعو إلى التفكير والأسئلة فالبين واللبانة كلها كلمات تدعو إلى التفكير من حيث دلالة الكلمة ذاتها ولكنها من حيث الفهم العام واضحة إن الأمر ذاته وفى نونية أبي البقاء الرندى الخاصة برثاء الأندلس تلك التي مطلعها : -

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يُغرّ بطيب العيش إنسانُ

هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمانُ

ذلك أن هذه القصيدة تجعل المتلقى يشعر كأن الأندلس قد ضاعت لتوها وليس منذ مئات السنين بل ربما خيل إلى المرء أن العودة يمكن ان تكون قاب قوسين أو أدنى .

والواقع أن الاندلس خلدت إلى حد كبير فى النص الأدبى ومن المؤكد أن كتاب « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب »

الذى كان من بين كتب الشيخ مصطفى التى بقيت فى إحدى البيوت وكانت طباعتها حجرية أتاحت الفرصة للقراءة المستمرة ومتابعة تلك العوالم التى أبدع فى وصفها ونقلها المقَّري وخصّ بكتابتها وتضمينها هذا الكتاب النفيس الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي كان رجلاً عايش وشارك وتأذى إن التجربة الشعرية آية من آيات الإبداع وقمة من قمم التعبير عن تلك النكبة التى منيت بها الامة العربية عندما اتخذت من الإسلام دينها الأول ومن اللغة العربية لسانها المبين.

إن هذه النصوص هى التى أسست للمرحلة الرومانسية فى الشعر العربى أو التفكير العربى بالأصح والذى يتناسب مع الرحلة الحياتية لكل من يعيش البدايات الأولى لعالم الوعى وفنون الإبداع حين يشيع الميل إلى الشكوي والإحساس القوي بالفقدان تجاه الذات الى تنتقل من مرحلة إلى مرحلة ومن تجربة إلى أخرى وهى تطل على المشكلات الجديدة فى أى لحظة من اللحظات إن بعض النصوص التي كانت مبثوثة فى أعداد مجلة أبوللو التى وجدها فى تلك المقصورة وشرع يقرؤها بعد أن تركها بعض الذين كانوا يجالسون الشيخ فى وقت سابق حين كانت المدينة تعج بهم وكان القوم يحيطونهم بجميل العناية وموفور الاحترام عندما كانت تتكون شيئا فشيئاً وتنشيء مكانها الأخذ فى البروز تحت الشمس .تلك النصوص التي ظلت مهملة حينما شيد مبنى أكبر من المؤكد أنها بذرت عديد

المشاعر والتي ربما تكون قد تطورت بعد ذلك وإن يكن التعبير عنها قد تأجل بعض الشيء أو بعض الوقت ان شئنا .

على أن الفتور الذي قوبلت به فكرة تغيير التبعية الإدارية للمنطقة في وقت لاحق لم يكن عائدا إلى جحود في العلاقة التاريخية التي تربط بين السكان وبين من كانوا يديرون شؤون فزان كما أصر البعض أن يروج وربما فهم المعنيون أيضا ولم يكن بتأثير تحالفات جديدة وقوي نامية وإنما كان صادرا عن رغبة أكيدة في صون تلك العلاقة التاريخية من أى تكدر يفرضه بالضرورة الاحتكاك اليومي واختلاف الرأى إزاء مختلف الشؤون وتضارب في عديد المصالح التي من شأنها التأثير على القطري من أجل ذلك كان التحفظ يعلن عن نفسه في استحياء شديد وكان لا يحول أبدا دون الإيفاء بواجبات المجاملة والاتصال في عديد المناسبات والحوادث التي كانت تلم بين الحين والآخر كان هناك شعور بان ما كان يظهره السكان في تلك المناطق على العناصر الطارئة من مناطق آخرى سينجر بالضرورة على الناس جميعا في حالة دخول فكرة التبعية المطروحة مرحلة التنفيذ إن القوم هناك يخشون من تحقق هذه الفكرة لما ستوذن به من تغير في الواقع السكاني ومن اختلال في التوازن بين القوى الاجتماعية وقد بلغ ذلك مداه حين طرح مجلس الولاية فكرة النص علي مادة قانونية تحظر على غير المنخرطين في الولاية من الأساس أن يكونوا من بين الموظفين

المصنفين فضلا عما اتخذ من إجراءات غير عادية تجاه بعض الذين جرى استخدامهم في وقتِ سابق اصبحوا يواجهون صنوفا من الإجراءات القسرية كتدبير بعض المقالب التى سوغت الحبس والفصل من العمل وعدم الالتزام بأى حقوق ينص عليها القانون لقد كان السائد أن الاخوة القدامى وهم يعيدون ترتيب أحوالهم ويشكلون تحالفاتهم وينظمون صفوفهم لا يعولون كثيرا على أبناء المنطقة بقدر ما يتخطونهم إلى جهات أبعد وعلاقات أوسع ربما لأمور تتصل بكثرة العدد وربما لمسائل تتصل بمواطن الكلأ وربما لأهمية الموقع الجغرافي المستهدف والمتمثل فى شاطىء البحر بالأساس .

وكما يحدث دائماً وفى كل خلاف يقع وكل رؤي تتضارب ينبري بعض الناس ممن لا يخلو منهم زمان ومكان ويمارسون نقيصة سوء النقل وسوء التأويل والسعي الدائم لتعميق الخلاف بإصرار مستمر وسعي لا يعرف الكلل فتتكون بين الأخوة سحابة من الشك وتكدر صفو الود امراض الريبة والكراهية فى نهاية المطاف

إن البداية فى هذا الصدد تكون بواسطة العتاب المشوب بالمنّ يقابله الرد المفضى إلى التنكر من جانب آخر ، مما ينتج عنه فتور في العلاقة يصل في النهاية إلى ما يشبه القطيعة لقد كان الشعور السائد أن نظرة الاخوة أقل درجة من نظرات الآخرين وكانت نظرة الطرف المقابل أنه قدم كل الخدمات الممكنة فى

الماضى وبين هذين الموقفين المتضاربين ينشأ ذلك الحاجز الذى لا تزيده الأيام والحادثات إلاً مزيدا من الارتفاع ومزيدا من كل ما هو إيجابى

على صعيد آخر حدثت مجموعة من التطورات التي اتصلت بالوطن ككل وهى إلى حد ما جزء لا يتجزأ مما جري فى العالم أجمع فمع مؤتمر باندونغ ذلك الحدث السياسى العالمي الضخم الذى اجتمع فيه زعماء آسيا وافريقيا فى أكبر تجمع دولى وظهرت شعارات سياسية أكثر قربا من الجماهير وتعبيرا عن طموحاتها نحو الحرية والعدل والتخلص من الوجود الأجنبى تغيرت السلطة بالولاية واختفى شبح الوراثة التى خشى منها البعض ، كما أن قيام بعض مراكز القوة لا وجود له على الصعيد الإدارى المباشر وبدا واضحا أن النشاط النفطى قادم لا ريب فيه عندما أبرمت سلسلة العقود مع الشركات وبدأت المخيمات تنصب فى كل مكان وقد ظهر أن العمل التجاري سيؤثر في العمل الوظيفي وأصبح فى حكم المؤكد على ضوء الإحصاء الذى أجرى فى تلك الفترة أن المنطقة ستكون بمفردها دائرة انتخابية فى المعركة المنتظرة واصبح فى حكم المستطاع أن يتقدم أكثر من عنصر إذ لم يعد تسديد التأمين معضلة يصعب حلها بيد أن الحديث عن تغيير التبعية الإدارية غدا الآن أكثر شيوعاً كما برزت بعض المشاريع البسيطة تتحرك والتى أطلق عليها مشاريع النقطة الرابعة وكانت فى الواقع تهدف الى

إيجاد بعض فرص العمل لأولئك الذين لا عمل لهم ولا وسيلة للتعيش لديهم لقد كانت جزءا من المساعدات الأجنبية البسيطة ولكنها بالنظر الى فداحة الواقع وشدة صعوباته ودوام سنوات الجفاف بدت تشكل شيئاً لا يمكن التقليل من أهميته بالرغم من أن ما يقدم لم يكن يتجاوز كميات قليلة من القمح هناك من يرى في كلمة هدية الشعب الامريكي شيئا من الاذي لمشاعر الناس وهناك من لا تلفت نظره هذه المسألة .وهناك من يؤمن بأن فكرة عد م دفع النقود إنما قصد بها صون حقوق الناس لكن المشكلة أن الحديث عن السرقة قد ارتفع أكثر فأكثر في ذلك الزمن سواء ما قيل بصدد قمح الإغاثة بمصراتة أو مواسير الجبل الاخضر . إن ظاهرة تضخيم الأخطاء والحديث عن النهب كثيرة والمزايدة بفترة ما قبل الاستقلال شائعة بحيث ترى أن هناك من ليس له ذلك الماضى الذى تأسس كيفما اتفق وليس له في الوقت الحاضر مساهمة جادة فيغدو الاعتماد على الماضى هو السقف الوحيد . ومن المؤكد أن جزءا كبيرا من ذلك الواقع إنما يعود إلى الفراغ وإنعدام التجربة وعدم القدرة على مواصلة العمل المدني فضلا عن ضيق ذات اليد وعدم وجود المناخ الصحى والملائم للتحرك ولقد كان لضعف السلطة التنفيذية وتشتتها الأثر الكبير في نقص الإحساس بهيبة الدولة الوليدة والترويج لعدم الإحساس بجدوى أى شيء لقد اكتفت أجيال كثيرة بمضاعفة الشكوي وإدمان الحديث عن المرارة دون تنبه

إلى خطورة ذلك علي حركة الحياة الإمر الذى لا يتمشى وطبيعة الحياة وظهور بعض المتغيرات المحيطة .

على الصعيد المحلى إذن كان هناك القنوط والقول وعدم التفكير وبالأصح التعبير عن ذلك التفكير فى حين كان المحيط يؤذن بمتغيرات واسعة عبرت عنها بقوة التجربة المصرية التي بدأت خطواتها باعلان النظام الجمهورى ثم قانون الإصلاح الزراعي فضلا عن التصدى للأحلاف الاجنبية وهي التى كانت مطروحة طوال فترة ما بعد الحرب العالمية وجاءت مرحلة 23 يوليو وتبنتها . إن التجربة المصرية بدون شك لم تكن ذات وهج يذكر فى بدايتها الأولى بل إنها لما فى مبادئها من عموميات وما حل بين اعضائها من خلاف وما تميزت به من صمت إزاء بعض الأمور المبدئية مثل الدستور الذى شكلت له لجنة ثم تم الصمت عنه لم تستطع أن تستقطب أحدا وكذلك بما أقدمت عليه من لعبة الاعتقالات ووجهت بشيء من التحفظ بالرغم من أن كل ما يأتى من مصر يؤثر بالضرورة فى تلك الأيام فى الوطن العربي كله لقد كان الوجدان السياسى مرتبطاً بالتجربة التقليدية وكان يتطلع الى تلك الأمور المبدئية إلا أن انعقاد مؤتمر باندونج وبروز عبدالناصر كقائد وطنى تبنى شعارات التحرر وتحقيق العدالة ومقارعة الوجود الأجنبي قد أعطت الحياة طعما جديدا وللعمل السياسى لوناً متميزاً فالحديث عن اجتماع يضم تلك الملايين الضخمة من البشر امر

لا يمكن أن يمر دون أن يحرك شيئاً في النفس ويثير شيئا من الإحساس العارم بالأمل الجميل كى يداعب النفوس التى أقلقها الإحباط ونال منها ما ساد الواقع المعتم عند اختفاء معظم الرموز الوطنية واستواء الأحوال لمن كانوا فى الاتجاه المعاكس .

لقد بدأت مصر تسترد دورها الذى كاد أن يضمر عقب قيام حركة 23 يوليو من دون برنامج سياسى يتجاوز تلك الشعارات العامة المتمثلة فى الاتحاد و النظام والعمل والتى أخذ يرددها محمد نجيب قبل أن يختفي من مسرح السياسة المصرية ويبرز عبدالناصر وسط اكوام من المشكلات الداخلية .

على أنه من الناحية الشخصية لم يكن قد خرج بعد من عوالمه القلقة فانعدام النضج وحداثة العمق لا تؤدى فى الحقيقة إلا لهذه النتيجة .. كانت خيارات متعددة أمامه : الدراسة الدينية فى البضاء ، دخول ميدان الحياة ، العمل بالوظيفة العمومية. إن الانشغال بالأمور العامة قد فعل فعلته فى طريقة التحرك وكانت الظروف التى جري استيعابها ذات تأثير واضح. كان الخروج من القرية وولوج باب المدينة لابديل عنه ولا محيص منه تحت أي شكل من الأشكال وكانت الظروف التى حدثت عندما اضطر الشيخ إلى شراء نصيب أحد أقاربه بالمزرعة وما نتج عنها من مصاعب أمام الأسرة نتيجة هذا الشراء الذى وقع اضطرارا وخوفا من وجود شريك من خارج الأسرة ، بحيث تم استنزاف جميع المداخيل وحدثت مواجهة

أصـعب مع تلك الظروف الصـعـبـة فى السنوات الأخـيـرة من الاربعـينيـات وطوال اوائل الخـمـسـينيـات وهـى دخـول الشـيـخ عـضوية مجلس الولاية وهى فترة مؤقتة ستـزول بعد مـدة ولابد من الاستـعداد لهـا بـالتـفكير فى عـمل ما فكـانت الحـيـاة صـعـبـة للغاية إذ لا راتب يمكن أن يسد الرمق ولا دخل آخر غيـر الزراعة التى لا امل فيـها لملوحـة المياه وقدم الأرض وقـوة الجو الصـحـراوى الذى يحـتـاج إلى قـوة عـمل قـاتلة والعـمـال ذاتهم لم يـعـودوا يطيـقـون هذه لحيـاة ، الكل يسـتـعد للهـجـرة شـرقـا أو غـربـا لقـد انتـعـشـت الحـيـاة لكنهـا طرحـت هـمـومـا كـثـيـرة فـمـدة المجلس محـدودة ولابد من الاستعدا د من الآن ولا مـجـال لتضـييع الوقت بدون التفكير فى الدخل .

7

من بين عشرات الرجال الذين برزوا في المدينة الصغيرة وارتفعوا إلى مستوى الرمز الفاعل والعنصر المؤثر ذلك الفقيه الكفيف الذي استطاع أن يجمع في ممارساته الحياتية وسلوكه اليومي مجموعة من الصفات التي جعلته أكثر تفردا ربما حتى عن عديد أقرانه من المبصرين من بين هذه الصفات الذكاء وشدة اليقظة حتى انه يكتشف ما يمكن أن يستنتجه ممن يجلس إليه في بعض المناسبات لدرجة أنه يفلح في تمييز نظرة من يمر أمامه لمجرد أن يقوم بإلقاء السلام الذي لامفر منه بالنسبة لسكان المناطق الصغيرة ويوجه خطابه إلى من يجلس إلى جانب ذلك المعوق فيأخذ في وصف نظرة ذلك المار وما اذا كان قد ألحق نظرته بابتسامة أو لفتة أو إشارة من الإشارات أو ان التحية أرسلت كيفما اتفق ، إن المرء ليصعق حقا حين يستمع إلى هذا الرجل وهو يضبط مشروع الابتسامة التي كثيرا ما تكون مخفية أو أنه يفاجئك وأنت تتحدث إليه فيلفت نظرك إلي الطريقة التي تنظر بها أو أنك تومىء لغيرك من المارة لدرجة أن البعض يقسم باغلظ الايمان أنه ليس كفيفا وإنما هو مبصر بحق وبالاخص أولئك الذين لا يقتصدون في أحكامهم .

– انت والله إلاّ يشبح يكذب عليكم وين يقول أعمى :

ذلك هو إقتناع أعداد كبيرة من الناس الذين استوطنوا البلدة الصغيرة وخبروها وخبرتهم فضلا عن الذين انحدروا من صلبها أولئك الرجال الذين كانت لهم لغتهم الخاصة وكان للناس منهم موقف أكثر تسامحا حين تقبل منهم وصف أحد الفقهاء بالكذاب عندما يفاجئهم باكتشاف سلوكياتهم وهم ينظرون اليه ظنا منهم أنه لايبصر ثم يعلق عليهم ذلك التعليق الذي ينفذ إلى الاعماق .

يذكر أنه دعي ذات مرة لحضور اجتماع من الاجتماعات المكرسة للنظر في خلاف من الخلافات المتصلة بمشكلات الإرث وقضايا الحقوق ، وكان الأمر يتعلق بتحديد نصيب إحدى الأرامل الغريبات وقد نصحت بأن تسند إليه مهمة الدفاع من خلال دعوته للحضور باعتبار أن المهمة ستكون من مشمولات الرجل كأبرز المتطوعين لكلمة الحق ولأن المجتمعات الصغيرة لاتعرف السر ولا تخفي على أبنائها خافية فلم يكد الرجل يصل ويستقبل ضمن المدعوين من الفقهاء وأصحاب الحل والعقد بحضور الرجل المستهدف بالمساءلة والذي استقبله بلهجة فاحت منها رائحة السخرية أو المكر أو عدم الثقة فما كان من الكفيف وهو يرد التحية على ذلك الذي خاطبه بكلمة عمي مخالفا التقاليد المعمول بها فبادره :

- خير ياعمك محمد .. وصارت لك تبسيمة !

بمعنى أن هذه الصفة من الخطاب تدل على سخرية مقصودة

ولم تنطلي وكان ذلك كافيا لإحراج من أراد السخرية .

مثل هذا الموقف يتكرر مرات عديدة خاصة وهو يقطع جميع طرق المنطقة من دون أى دليل يرشده ويدله على أى بيت يعِّن له أن يغشاه مهنئا بمسرة من المسّرات أو مواسيا في حزن من الأحزان أو متفقدا في أمر من الأمور فأحداث الزمن لاتتوقف وسهامه تصيب القوم صباح مساء والعلاقات متداخلة واللحمة قوية ومثله مدعو إلى أن يقوم بهذه الوظائف مجتمعة المواساة في المكروه والتهنئة بالمسرة والتفقد بين هذه وتلك .

لقد ابتلي بالعمى في طفولته المبكرة إذ يروى عنه قوله إنه لم ير في حياته ولم يعلق بذاكرته سوى اللون الأحمر والذي كان رباطا على رأس والدته وهو عبارة عن قطعة منسوجة من الصوف الأحمر القاني تربط بشريط أكثر منها حمرة لقد كانت النسوة على زمنه يحــرصن على وضع ذلك الرباط على الرأس وهو يحدد مولده بمطلع القرن الهجري في حين يعود سبب فقده البصر إلى مرض الجدرى الذي كان دائم الإصابة للناس كبارا وأطفالا على السواء وقد كان حلوله في بعض المرات وهو في بداية الحياة .

لقد كان ذلك الوباء عنيفا للغاية مع هذا الرجل إذ بقيت آثاره ظاهرة على وجهه بالكامل وقد أدت تقاطيع وجهه الكبيرة إلى البحث عن نظير له في التراث باعتباره ليس عاديا في المجتمع ومواقفه كذلك ليست عادية فغدا ينعت من المطلعين

على التراث ببشار ولكن من الناحية الشكلية فقط .

كان اهله يمتهنون الزراعة غير إنه قد امتهن غير تلك المهنة ولعله الأول في العشيرة الذي استطاع ان يطرق هذا الميدان وأن يكن الحاج الأمين قد سبقه منذ زمن بعيد وربما يكون وراء إقناع ابيه لتوجيهه هذه الوجهة ولعل فقد البصر كان في مقدمة ما جعل الأهل يقبلون منه هذا التوجه بدلا من المضي في طريق الفلاحة خاصة وأن بنيته كانت قوية .

حفظ القرآن الكريم حفظا جيدا وألم بأحكامه كاجمل ما يكون الإلمام وأفلح في التراتيل المتميزه وكان في مقدمة الذين اضطلعوا بصلاة القيام تطويلا في رمضان الكريم طيلة حياته وهو من بين الذين تلوا أمام السيد أحمد عندما مكث هناك ردحا من الزمن .

درس الى جانب القرآن الكريم مبادئ اللغة العربية والعلوم الدينية كما استظهر عديد المتون خاصة عندما فرضت الإقامة الجبرية على الشيخ علي ودرج الكفيف على ملازمته صباح مساء غير مكترث بملاحظات العسس وملاحقة المتطوعين بالتخويف وإثارة الشكوك والأوهام على اعتبار أن الإقامة الجبرية قد قررت عوضا عن عقوبة الجلد التي طبقت على عديد الوجهاء والأئمة بحيث لم يفلت منها سوى ذلك الفقيه الذي أصر على المحاكمة بطرابلس ناهيك من الشيخ الذي كان حديث العهد بالعودة وربما لم يتخذ موقفا معاديا كالآخرين وربما

شفعت له عودته من المهجر وبمقتضى عفو عام وربما كان الفضل للترجمان الذي قدر فيما يقال بعض العلاقات الأسرية.

كان الكفيف على رأس الذين يتحلقون حول الشيخ بمجرد عودته من المهجر وفي مقدمة الذين بادروا بالمساندة والإسهام بإحاطته بتلك الهالة من التقدير والاحترام ولما يحن وقت طويل على قدومه حتى إن الشيخ أطلق عليه رجل الملمات وهو يسند هذا الوصف الى شقيقه الأكبر شهيد عافيه لتوفير مزيد المصداقية والذي كان أساس الصداقة.

وقد استنفر لموقفه الإيجابي هذا تجاه الشيخ كل أبناء عشيرته الذين جمعوا أنواعا متعددة من الرجال أحاطوا بها الشيخ عقب عودته على أن الصداقة في الحقيقة تعود إلى أيام بعيدة حين نشأ الفقيه مع ذلك الشهيد وتزاملا في الدراسة وسنوات الشباب وكان الكفيف موضع سر ذلك الفارس ومثار تقديره وعطفه ورعايته وكان الوحيد الذي حضر ذلك اليوم التاريخي الذي هوى فيه سقف الغرفة على أبناء الفقيه حمد جميعا في تلك الليلة التي لولا ألطاف الله لذهبت بهم جميعا من دار الدنيا ومعهم هذا الكفيف لقد هوى البيت المكون من دورين بتلك الكوكبة وهم يتسامرون ووالدتهم تقدم لهم ما يحتاجون اليه من خدمات إلا أن العناية الإلهية قد تدخلت وحالت بينهم وبين الموت المحقق حتى إن الكثيرين صاروا منذ تلك الليلة ينسبونه إلى الاسرة أكثر من نسبته إلى عشيرته كما

أن الأسرة ذاتها كانت تتعامل معه على هذا الأساس لقد كان بحق أدنى اليهم من أقرب الأقارب حتى إنهم عندما كانوا في طريق الهجرة وهم يتساءلون عمن سيفقدهم وقبل أن يندلع القتال في عافية ويلقي الشهيد حتفه إذا به يقول :

- فلغوش يامختار أول من يفقدنا يقصد ذلك الكفيف لأن لقب عائلته هكذا.

وعلى كثرة ما عرف من حدة في مواقف هذا الرجل وعزوف عن الانصياع لأى كان عرف عنه كذلك شدة حرصه على الامتثال لآراء الشيخ وتقديره وتعظيمه والإشادة بدوره وقبول تدخلاته حتى ولو لم تكن صائبة بالكامل وفاء للصداقة الموروثة والتي أسسها حتى دون أن يسئ أبدا.

حين رزق الشيخ مولوده الأول الذي خلد به اسم صديقه ذهب إليه في بداية الليل مبشرا بالحدث ونشوة الفرحة الأولى وحين تعرض الوليد لبعض أمراض الطفولة كان الكفيف يحرص على المرور بالبيت كل يوم بل صباح مساء فإذا ما وجده باكيا أسرع لحمله بين يديه الساعات الطوال مرددا تلك الأرجوزة الأصمعية الخالدة التي طالما رددها بلا ملل تسلية للوليد حتى إنه قد استظهرها قبل أن يدرك معاني الكلمات وغدا يقرؤها كلما التأم شمل المجموعة وأراد الشيخ أن يفاخر بحافظة ذلك الوليد التي وجدت التدريب في وقت مبكر للغابة ومن تلك الأرجوزة تحديدا :

صوت صفير البلبل

ولوتراني راكبا

على حمار أعزل

يمشي على ثلاثة

كمشية العرنجلى

وقال لا لا لا

وقد غدا مهرولى

وولولت وولولت

وقلت لا تولولى

والطبل طب طب لي

والكعب كع كع كع لي

حتى « اذا ما استمرت رحلة العمر وبدت الخطوات الأولى نحو المعرفة تبين أن الارجوزة كانت الحيلة التي لجأ إليها أحد المتسابقين للتخلص من تلك الحافظة التي تعبد كل شئ تسمعه لأول مرة فكانت هذه الكلمات التي ليست من الشعر في شئ وبواسطة إعادتها بفهم أن ذلك الذي يعيد إنما يحفظ عن أول رواية وإن ادعى غير ذلك أو سيعجز كلية .

اما عندما بدأت مرحلة التكوين وأخذت الأسئلة تطرح حول بعض الأمور فقد كان الكفيف شيئا آخر ،كان موسوعة كاملة عن الأحداث وحجة لاتمارى في قولة الحق مهما كان الثمن الذي ينتج عن ذلك .

في زمن الاحتلال الإيطالي كان في مقدمة الجماعة التي حضرت اجتماع ببيت الشندولى بقصد الرد على ذلك القاضى المتطاول حين تقرر معاقبة الجميع فلم ينقذه من العقوبة سوى أنه كفيف البصر .

في زمن الإدارة البريطانية فترة مابعد الحرب واثناء بروز مشكلة تسويق التمر كقضية مركزية اختار الرجل موقفا إيجابيا بالانحياز إلى القوة المعارضة لفكرة احتكار التصدير حين قال غيره إن الأمر مجرد صراع بين التجار كما أنه لم يسلك ذلك المسلك لان لديه أملاكا يخاف عليها ولا منتوجا يخشى عليه من الكساد ولم يكن مساهما في شركة من شركات التصدير إذ الواقع أنه لا يملك إلا أقل من القليل بل إنه لو صرف النظر وانحنى امام العاصفة لكانت مصالحه اكثر ضمانا سواء عن طريق السلطة المحلية أو الشركة المتطلعة للاحتكار فقد تتضاعف حصته من السكر وقد يصرف له أكثر من رداء يمكن أن يستفيد من ثمنه وقد يمده الحاج أحمد بشئ من الزكاة التي يحرص على صرفها لمن هم في مثل هذه المنزلة وكانت نسبة بعضهم تشكل دخلا ثابتا يعول عليها في سد حاجات الزمن .

لكن الكفيف اختار موقفا آخر فكان في مقدمة الذين تعهدوا بالمعارضة لهذا التوجه وكان صوته أعلى من كل الأصوات حماسا وحركة وتصميما على التصدى للمحاولة الماكرة بكل الطرق والوسائل .

حتى عندما وصل الكولونيل وشرع في التحقيق مع المسؤول الذي تظلم من وجـوده الناس بموجب خطاب مكتـوب وتم استدعاؤهم للمناقشة في تظلمهم بادر باتخاذ موقف من احظر المواقف وأكثرها إحراجا وذلك عندما ذكره على مرأى ومسمع من الناس بتدخله السافر في شؤون التقاضي والانحياز لطرف من الأطراف يوم أن انسحب الكفيف من وكالة أسندت إليه حين لمس تدخلا من المسؤول فقال وهو ينسحب :

- تعسا لمن خصمه قاض

وقد شكلت الواقعة حين أعادها امام لجنة التحقيق دليلا حيا توقف أمامه الكونيل كثيرا وهو يصغي لكلمات المتظلمين .

تزوج في مطلع حياته من إحدى قريباته غير أنه لم يوفق على ما يبدو فعدل عن ذلك الزواج واضطلع برعاية شقيقتيه اللتين ترملتا في ريعان الشباب ولكل منهما طفل قام هو يتربيته

لقد انفق في سخاء وحمل مهمة الأبوة في صبر وشجاعة فافلح بالتالي في تكوين فريق جيد كان له حضوره في معظم الأحداث التي مرت والصراعات التي حصلت له لهجة منذرة بما يريد بمجرد أن يرفع صوته مناديا إحدى شقيقتيه وابنيهما حتى إنه عندما تخانق مع بعض المارة إثر خلاف نشأ في عرض من أمور الدنيا فصرخ مناديا ياشقيقتى (أم السعد) .

فإذا بها تحضر متأبطة إحدى العصى الغليظة التي تستعمل عادة في دور البيت وإذ وجدته مشتبكا مع أخيها أسرعت

بضربه بتلك العصا وإذا به يقع مغشيا عليه ويبقى في غيبوبة لم يفارقها إلا بعد فترة طويلة ولم يترك الحديث عنها طول فترة بقائه هناك كنوع من الهوان الذي لقيه في حياته على يد تلك المرأة التي فاقت في سرعة تحركها الكثير من الرجال لما غرس فيها ذلك الرجل من الاقدام .

أما عندما استتب الامر للاستعمار الايطالي وساد في البلاد عدد من المسؤولين الذين ارتبط وجودهم بتقريب بعض السفلة الذين اتخدوا من ارتباطهم المشين سبيلا لممارسة التكبر على بقية أبناء الشعب ودون تفريق بين الكبار والصغار وعبر تطاول على بعض الأسماء المعروفة من الشيوخ والمسنين والعلماء وحاول بعضهم أن ينال من ذلك الفقيه ذات مساء جمعة شهيرة وسط ساحة السوق وأمام مبنى البلدية ومقر الإدارة فلم يجد الرجل غضاضه في اتخاد موقف غاية في الجسارة فاق به الجميع وأذهل الجميع لقد امسك بكلتا بدية ذلك المتعجرف طالبا من ابن شقيقته ان يشبعه ضربا بتلك العصا التي كان يتوكأ عليها فمضى ذلك الشاب يضرب بلا هوادة ولا رحمة على مرأى ومسمع من الناس جميعا كما لو كانت عقوبة مقررة من السلطة فأمكن بذلك التصرف تلقينه درسا غاية في الدلالة فكان لذلك التصرف أثره الطيب عند الجميع بمن فيهم أولئك الذين يمتون إليه بصلة ، لقد ادرك بثاقب بصيرته ان من في سنه ومكانته الاجتماعية يمكنه أن يقدم على هذه الفعلة الجريئة

الكفيلة بتحجيم ذلك المتعجرف وطمأنة العديد من المواطنين الذين كانوا في حاجة إلى الوقوف أمام بعض المتغيرات التي بدت تضع حدا لمكاسب بعض الأذناب .

إن قدرة هذا الكفيف على مقاومة الزمن وعدم الاستسلام للعجز من الأمور التي تؤكدها شواهد كثيرة فهو بالإضافة إلى ذلك كله وإلى ما عرف عنه من القدرة البدنية التي تجعله يمسك كل من تطاله يداه فلا يستطيع الإفلات أبدا حين كانت المشاجرات كثيرة بين المناطق وكان الويل كل الويل لمن يقع بين يديه ، لقد كانت أشكال العدوان كثيرة والمعارك لا تعرف التوقف والناس يحتاجون لكل جهد خاصة عندما تكون المنطقة نائية والجهات لا تعرف الانقطاع لقد كانت هناك اسباب متعددة لتلك المشاحنات وكان لابد للقوم من أن يدافعوا عن الفتن ويسخروا كل قواهم وقدراتهم .. لقد أفلح في امتهان حرف كثيرة كدباغة الجلد وصناعة الحرير وبعض أنواع الحياكة وقد ساعدته على ذلك بنيته القوية وبصيرته الثاقبة وسعة صدره وإصراره على مقاومة الحاجة إن مقاومته للعجز لم تتوقف عند معادلة البراعة في عديد المهن ولم تقتصر على محاولة التحصيل العلمي والانتساب إلى الميدان المعرفي ، إذ على ما في ذلك من الأهمية فقد عهد إلى ما هو أكثر إيجابية عندما أصر على الانفراد بكلمة الحق والانحياز الدائم للضعفاء من الناس وأصحاب الحقوق المهدورة من الذين كثيرا ما تطالهم القوى

المتسلطة عندما يزين لها غرورها وصلفها أن السبيل إلى النيل من هذه الفئات آمن ، وقد تذهب إلى الانحياز لمن هو أقوى سلطة أو مالا أو جاها لولا وجود أمثال هذا الرجل الذي تراه من خلال مشاركته في فض بعض المنازعات واحدا من أبرز الأئمة الذين يقفون إلى جانب الضعيف والمظلوم وكل من هو من غير ذات الشركة بل إنه كثيرا ما يتفق مع إخوانه بتحمل مسؤولية المصارحة لمن يحتاج إلى المصارحة والردع عن الطريق المنحرف .

إن موقفه يتطور عبر الحوار والأخذ والرد فيكتسب النصير تلو النصير بواسطة المداومة وتتالي الحجج انطلاقا من القول المأثور «الحكمة ضالة المومن يبحث عنها أنى وجدها» وهو لا يتوقف بعلاقاته داخل مسقط رأسه فقط بل إنه يوسع هذه العلاقات وينتقيها ويعمل على تعميقها وتطويرها والتوسع فيها بشكل دائم لتشمل مناطق أخرى .

وهي علاقات تتجاوز الإطار الشكلي لتصل إلى العمق حتى ليحدث شئ من التنسيق في مواقف هذه المجموعات عندما تكون الآراء في عديد الأمور صريحة ومتصلة بحقيقة المشكلات التي كانت أولا وأخيرا مرتبطة بالفقر وضيق ذات اليد ولعله من القلة التي تتبنى دون دراسة ضرورة أن يتم تقييم الناس وفقا لظرفهم وأن تكون عيون الغربال أكثر اتساعا لبعض الناس حتى إنه يقول في بعض المواقف :

- «غربل بالشبكة» أى غضّ النظر وثمة شواهد كثيرة يلجأ

إليها وحكايات اكثر تسعفه بها ذاكرته التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة وإن تكن لا تروي في جميع الأحيان !

له ميل شديد نحو القصاص ورد الإساءة بالاساءة ويستند إلى موقف هذه الشواهد المأخوذة من الشعر الشعبي والأمثال السائرة فهو على صلة بعيون الأخبار والتراث وألوان كثيرة من التعبير غير أنه بالإضافة إلى هذه الناحية يميل إلى نصوص أخرى ينسب روايتها إلى رفيق عمره الأول الذي كان شديد الإعجاب بقول الشاعر :

وإن الذي بينى وبين بني أبي

وبين بني عمي لمختلف جدا

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم

وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وهو بذلك يريد أن يكرس الفرق بين من يؤثرون أبناء عمومتهم ويترفعون عن مقابلة اساءتهم بإساءة مثلها بل إنهم يقابلون كل فعل ناقص مدفون بنقيضه المحبب المشرف وهو يذكر ذلك كلما اشتد الخصام وتطور العتب الى قطيعة أو شبه قطيعة في حين يظل هذا الرجل ومن في حكمه من القلة القليلة يبذلون قصارى جهدهم لإصلاح ذات البين وترسيخ النموذج القادر على رفض مبدأ قصر النظر ورد الإساءة بالإساءة فوحدة المجتمعات وهى تنطلق من وحدة العشيرة لا يمكن أن تتحقق وأن تنمو إلا بإشاعة هذه الممارسات الإنسانية الرائعة التي تنطلق من

التسامح واستمرار المواصلة ونبذ المكافأة بالشر عبر أمثال شعبية تلخص التجربة المريرة مما لا يكف عن ترديدها أبدا .

اللى عد سيات الحبيب جفاه

ايدك إلياعفنت ما تقصهاش

اللى تبيه من الناس ديره ليها

اللى ليك يمضغك ولا يعديك

فهو إذن لايتبنى الموقف المسيحى القائل من ضربك على خدك الأيمن أدرله الخد الأيسر ولكنه بالمقابل يعطي للإيثار حيزا كبيرا في تفكيره وممارسته من دون الإخلال بالتوازن الضروري وهو لايتردد في التذكير ببعض ماقدم قومه من إساءات في فترة من الفترات حين يقابلونه بمواقف البعض فتراه يعود إلى التذكير وضرورة القبول بما جرى وتحمل الشدائد حين لامفر .

- عيب النسيان مش عيب الحملان

- ماتسلفش التريس غير العيش واللحم

- الراجل ما يقولش اح

إنها الحافظة التي تختزل عديد الحوادث النادرة والمشكلات التي وقعت منذ آماد بعيدة حتى إن الشيخ يلقبه مازحا بدفتر السوء لمايصر على التذكير به من عديد الحوادث التي أصبحت في حكم التاريخ لكنه في الحقيقة ليس كذلك تماما بمعنى أنه ليس من الذين يصرون فقط على التذكير بالسيء من الأفعال والرديء من المواقف فهو لا ينكر شهادته على سبيل المثال

مايرويه بصدد حادثة اغتيال حبيب الله التي تمت في ظروف غامضة عندما اقتيد مغلولا لتلك الرحلة التي لم يعد منها ابداً إثر الفتن التي جرت بالمنطقة والصراعات التي حصلت حول السلطة المحلية وعدم الاستقرار الذي طبع المرحلة .

فلقد اختلف البعض يومئذ مع من بيدهم الأمر وأيدهم البعض الآخر وكان الذين أيدو يتقدمهم أبناء عبدالرحمن لما رأت السلطة أن تزيح حبيب الله وتخرجه على تلك الصورة كي يبعد من أهله وذويه ولا يتخذ بشأنه ما يسيء في مسقط رأسه فأخذوه ومروا أمام الزاوية حين كان تفر من الرجال ينتظرون صلاة المغرب وكان من بين الحاضرين عبداللطيف الذي صاح فيهم قائلا :

- تحركوا هذا حبيب الله

بمعنى أنه وإن يكن من المختلفين مع حبيب الله إلا أنه لا يقر مبدأ حمله مغلولا وفي اتجاه المجهول فظل الكفيف يحتفظ بتلك الواقعة ويعيد روايتها في ظروف متعددة وفي خضم المنازعات والخلافات يلقنها للناس جيلا بعد جيل لأنه كان يخشى على الواقعة من النسيان .

إن هذه الصورة لا تبدو جلية إلا لمن اقترب من الرجل وأصغى إلى حكاياته الطويلة والتي لا يجئ بعضها عفوا الخاطر بقدر ماهي تتابع تفكير ومعايشة ومواقف حياتية معاشة . إنها في واقع الأمر الصورة الخفية التى لاتبدو في أحيان كثيرة إلا عن

تعمق خاص في ذلك الواقع

لقد قضى فترة طويلة من حياته بمنطقة سرت ، صحبة صهره الفقيه عتيق الذي تولى مسؤولية إمامة زاوية ابن الشفيع الشهيرة والتى شيدت خلال القرن الماضى لقد كان الفقيه عتيق مرافقا للشيخ مصطفى الذى عينه رمضان قاضيا بمصراته كما انتقل أيضا إلى سرت أو القصر كما كان يدعى باعتبار السكان يعيشون في الوديان ولايعيش داخل السوق سوى بعض المستخدمين والتجار وربما كان الحاج الأمين أول من بنى بيتا بالطوب في تلك المنطقة عندما نزح إليها مع أبنائه وأنشأ بها مزرعة وبنى بيتا من الحجر ولم يسكن داخل بيت الشعر . وقد اضطلع الفقيه عتيق بنشر العلم بطريقته الخاصة القائمة على البساطة بقدر الإمكان والعمل على التنويرأكثر من الانصراف نحو التعقيد والتقحر .

إن معظم الذين لجاؤا إلى هناك مسكونين بواقعين ، ضيق ذات اليد من ناحية والخوف من الربط من ناحية أخرى نجد ن أبرزهم الحاج الأمين وأكثرهم حكمة إذ لم يحمل إلى هناك أى خلافات فلقد ترك كل الأخطاء حيث هى وحل بسرت متجردا من كل الخلفيات كأنما كان يدرك أن كل الخلافات المؤقتة لا يمكنها أن ترتفع إلى مستوى العداوات الثابتة وأن ثمة أمورا أكبر وأخلد تفرض عدم التوقف أمام أى حدث عارض ومن هذه الافاق استطاع الكفيف أن يدرك الكثير من دقائق الخلافات التي

كانت تنقل إلى مجتمعه الصغير من طرف منحاز، طرف يلقي التبعة المستمرة على الخصم ، ومن خلال المتابعة والمناقشة على ما يبدو أمسك بخلفيات كثيرة يمكن تلخيصها في أن كثيرا مما جرى ليس من مصلحة الأغلبية بقدر ما هى مصالح أفراد محدودين .

كان يملي على سورة الأنبياء عندما اضطر الشيخ إلى السفر ضمن بحثه عن العمل وكان الحديث متصلا بما أقدم عليه الشيخ محمد بخصوص الثار للشريف عندما قال لمجالسيه من أولئك الرجال : كل هذه الدماء التي سالت وتسيل والرقاب التي أزهقت و تزهق لاصلة لها بمصالح الطرفين مجرد مشاحنات بين اثنين تؤدي إلى هذه النتيجة السيئة والدماء الغزيرة كلهم بلا أدنى شك يساقون إلى هذه الوقائع كالأغنام ولو وجدت العقول الراجحة لما حصل الذي حصل إطلاقا جل ما يجري إن لم نقل كله ضلال في ضلال وأى ضلال اكثر من الموت لامن أجل ماشية ترعى ولا أراض تحرث ولا تجارة تتناقل ما مصلحة الذين تقع أرضهم قريبا من البحر ويحرمون أنفسهم من العيش هناك ويأتون بالتالي إلى هنا حيث الصحراء الجرداء لأن الصف هنا .

كان يتكلم عن أسماء بعينها وعناصر معروفة بل وعشائر كاملة واجهت صعابا معيشية كثيرة جراء تلك الانقسامات القبلية البغيضة التي بدأت في الأصل صغيرة ومحدودة ثم أخذت تكبر مع الزمن لاشئ سوى أن الفتنة أرادت لها أن تكون

كذلك .

ويومئذ سئل في براءة وأجاب في ذكاء ووعي نقش في ذاكرة مجالسيه في فترة مبكرة وأخذ يتعمق يوما بعد يوم كلما ازداد فهم الحياة والعيش ومشكلاته إذ لولا تلك الفتن المختلفة والصراعات الساذجة لما ظلت قطاعات كبيرة تعيش في أعماق الصحراء محرومة من البحر وخيراته الكثيرة وهوائه النقي وتذهب بعيدا إلى الصحراء وتواجه عديد المصاعب لالشيء سوى أنها لم تكن إلى جانب الفريق الذي يقف موقفا منحازا اتجاه فئة من الناس ربما ليست من المنطقة بالأساس ان هذا الواقع في حقيقة الأمر أدى إلى تأخر قطاعات كبيرة حتى إنها عجزت عن اكتشاف عوالم البحر والاستفادة من عطائه وهوائه أيضا فهو مصدر الحياة الذي لا ينضب من حيث الكنوز ومصادر الرزق ومبعث الأكسجين النقي ، ولو أدرك القوم ذلك في وقت مبكر لما ابتعدوا عن البحر وهم الذين لاتفصلهم عنه سوى أمتار عندما اختاروا الحياة في الوديان وأعالي الجبال ، لقد ترسخ منذ تلك الفترة المبكرة لدى الذين درسوا هناك سؤال مهم عن الواقع المأساوي لفئات كثيرة من الشعب يعرف الجميع أصولها العائدة إلى تلك المناطق ظلت تعيش كيفما اتفق وتواجه من الصعوبات مالا يوصف ومن المؤكد أنها ما كانت لتعجز عن مواكبة الحضر ردحا طويلا من الزمن ، لولا انسياقها خلف ذلك الصراع المتمثل في حروب الثأر التي استمرت عقودا طويلة من

الزمن وكانت لا تهدأ مرة إلا وتنبعث مرة أخرى فتنهي حياة عديد الرجال وتيتم مزيد الأطفال .

كان هذا الحديث يتصل بأعداد من البشر تنحدر من قبائل موطنها الأساس حول شاطئ سرت تحديدا ولكنها لم تقترب عبر تاريخها من ذلك الشاطئ بل لقد بقيت بعيدة عن تلك المواقع ليس لها سوى وديانها في الربيع ومصائفها بمناطق الجنوب بعد ذلك اى منذ نشؤ الخلافات التي ارتبطت بالفترات الأخيرة من العهد التركي إى حكم يوسف باشا القره مائلي عندما انقسمت المنطقة إلى فريقين متنازعين لا حكم بينها سوى السلاح وهو واقع أثر في النمو السكاني والتطور البشري على السواء وظل قائما ومؤثرا إلى وقت ليس بالبعيد .

وثمة في تاريخ الرجل مواقف أخرى كبيرة يرويها الذين عاصروا الأحداث ، وتخلصوا من نقيصه التحامل وطهرت نفوسهم من داء الجحود مواقف كان فيها موضوعيا للغاية ومنتصرا لعقله على عاطفته من أشهرها اشكالية فقهية حصلت بشأن عصمة إحدى الأسر التي انقرضت (حناني) وذلك على أثر قنبلة يدوية انفجرت واودت بحياة آخر فتي من فتيانها بعد نزيف حاد وكان والده عبدالسلام حنانى من المنحدرين من نسل (عتوم بن علوان) ذلك الذي انقرضت عائلات كثيرة من عشيرته حتى لم يبق من أصلاب ذلك الراحل سوى بضع عائلات كان آخر من انقرض منها (حناني) فتقدم العصمة

الشيخ (بودندانة) وكان يتقلد مسؤولية مختار المحلة التي يقطن فيها الفقيه الكفيف وكان على خلاف حاد معه وكثير الشكوى من ممارساته في توزيع التموين بالذات وهو أسلوب شابه شئ من عدم الثقة .

ويومئذ اعترض هذه العصمة أبوزيد وهو من أقرب الأصدقاء لذلك الكفيف كان الخلاف حول نخيل حناني وأملاكه الكثيرة وكانت القرابة بين الأسرة غير موثقة في ورق بحيث صار في مكنة كلاهما أن يدعيها وكانت التوقعات كلها تخمن أن ينحاز الرجل إلى «ابوزيد» تقديرا للعلاقة وانتقاما من بودندانة واستفادة من عدم وجود الوثائق المكتوبة لكن المفاجأة كانت مخالفة لذلك إذ لم يكد ينعقد المجلس المخول بالنظر في الإشكالية وهو المتكون من مجموع الأئمة والمختارين من الذين يحرص القاضي على الاستئناس برأيهم في كل خصام لا تتوفر فيه البينة ولا تدعمه الاوراق ويكون من حق الحاضرين إبداء آرائهم وفي أجواء من الحيرة والقلق والعجز كانت الأسئلة تتوالى من ذلك الكفيف دون غيره من الحاضرين :

- عندكم شهود يابوزيد

- لا

- عندكم يا بوزيد(كواغط ورق)

- لا

- وهنارفع الرجل عقيرته

- الشرع يحكم بالظاهر حناني ماعنداش مرد على حد غير بودندانة وبوزيد ماعنداش ما يقدم العصمة لبودندانة .

فكانت الكلمات بمثابة القول الفصل الذي انتهى اليه الميعاد وأصدر القاضي على ضوئه حكمه فتخلصت المجموعة من الإحراج لأن الكفيف لا يمكن أن يعتبر متحيزا .

لكن الاشكالية الأكبر التي بادر بإثارتها واعتبرت ذات أثر في الحوار الفكري المتصل بأمور الفقه كانت على مزاح تم بين رجلين من الناس بحضور مجموعة من الرجال حين أخذا بطرحان مشروع مصاهرة من خلال المزح حيث طلب أحدهم من الآخر ابنته والثاني قبل الطلب وتضمن الأمر الإشارة إلى مهر محدد وانتهت الجلسة باعتبار الأمر مجرد مزح فكان أن نهض الرجل بإثارة المسألة من الناحية الفقهية ومن خلال الاستياء من التفكير بالحلائل والاعتداء على انسانيتهن بهذه الكيفية حيث يتخذ الحديث عن المرأة مجرد تسلية وملء الفراغ وتعبئة للجلسات في آن ثم الحديث عنه يعتبر بحق عقدا للزواج بكل معنى الكلمة من الناحية الشرعية ويومئذ حصل حوار موسع وجدل طويل استوجب الكثير من البحث والكثير من المراجعة والتنقيب لأن أمور الزواج لا تحتمل المزاح وفقا لهذا المنطق ولأن الحرائر أشرف وأنبل من أن يتحولن الى مضغة في الأفواه وإضاعة الوقت بالكيفية التي جرى بها لاشك إن الأمر كان أوسع من ذلك وابعد وكون النصوص غير واضحة فإن ذلك

لايعني اعتبار الموقف من قبيل الرغبة في إثارة المشكلات لأن الدفع بهذه الكيفية لا يخرج عن كونه محاولة للرجعة من أقرب الطرق واختبار أيسرها من حيث سهولة سؤ الظن بكل حوار يطرح وإشكالية تثار في حين أن المنطق يرفض التفكير بهذه الكيفية الساذجة وهذا المستوى من التسطيح وقد كان المخرج في النهاية إلزام الطرفين بإشهار الطلاق .

لقد كان لهذه المناقشات جدواها في اثارة الحوار وتدقيق البحث والحث على المراجعة وترسيخ الخيار الجاد في الأمور الشخصية المتصلة بالأخرى خاصة فيما يتعلق بعدم الاستسلام لنداء العواطف والتفريق بين الشخصي والموضوعي وفضيلة حفظ حق الغائب ومن عساه ان يكون صاحب حق في أى شأن من الشؤون دون تأثر بالعلاقة الشخصية التي كثيرا ماتزين لمن يكون راضيا أن يبالغ في التزكية بذات القدر الذي تدفع به إلى الإسراف في التقبيح والسخط وإبداء المساوئ ، لأن عين السخط هى الراضية اذ يرفض من أكرم إنسانيته أن يقبل أى مزاح في حق كريمته مهما سلمت النوايا .

كان الرجل راوية من أكبر الرواة في الشعر الشعبي المتصل بأيام العرب والمفاخرة بين القبائل وشرف الدفاع عن الأرض ووحدة الموقف ناهيك عن أحداث كثيرة حصلت بالمنطقة ذاتها وقد كان ما يميز رؤيته في النصوص تلك الدقة الشديدة في صحة النقل إذ يندر أن تجد لديه نصا غير مثبت مع سلامة النطق

المعرب على أنه لا يتردد في اللجوء إلى أساليب أكثر عنفا إذا مالاحظ عدم استقامة الخصم أو شططة أو لجوئه إلى اللجاجة وعلى الأخص في قضايا المصاهرة وما يلجأ إليه البعض في تغيير مواقفهم لهذا السبب أو ذاك فالحق انه بالرغم مما عرف عنه من ميل نحو عشيرته إلا انه يرفض وبشكل مطلق جميع المواقف المتخادلة لما يرى فيها من مخالفة لمبادئ الرجولة الحقة ولعله من القلة التي ضلت تروى بامانة شديدة تلك المعلومة التاريخية التي استنبطها الشيخ أحمد بن سالم بخصوص النشأة التاريخية للمدينة الصغيرة والتي كانت على أوكد المعلومات أثناء حلول خلف الله المناري في التغريبة الهلالية بالصحراء الكبرى جيئة وذهابا عندما كان حل مع أبنائه الثلاثة شيبون وابديوي وابوغص لينطلقوا مع عتوم وجمعة وعبدالكافي لتأسيس ما أسسوا منطلقين من ساكن بن مسكان مكافحين غائلات الزمن صامدين في وجه عديد المحن وصنوف الاذى صحارى واسعة ندرة بشرية ظاهرة وشروط غاية في الصعوبة بلدة ظلت لفترة بدون اسم يطلق حتى كان الاسم الذي اختاره السيد أحمد الزروق الصوفي الشهير داعيا لهون الصعاب وإن يكن من حيث الرمز توكيدا للانتماء العربي على مر العصور والأيام كما لو كان يريد أن يشير إلى أن الكفاح سيكون دائما مريرا وشاقا وبالغ الصعوبة كما لو كان الغيب قد كشف له بأن الرحلة ستكون دائما على موعد من المتاعب ولكن ضمن أن تكون

البشارة دائما متمثلة في النصر ، ذلك أن جزءا من الصراع بين من يريد ترسيخ الهوية العربية ومن يرفضها لسبب أو آخر وهو شديد القناعة بأنهم جميعا من بنى سليم وأن كل من سيلحق ويضيف ويؤسس ويناصر لن يكون إلا من تلك البطون الخالدة .

عندما تسأله عن أى كان يفلح في الإجابة التي توظفك لصالح المسؤول عنه فهو إما أن يقول لك إن المكان لايعدو أن يكون أرضا والأرض لكل الناس ، وهو لأكرمهم على أى حال كلهم جاؤا من أماكن مختلفة أغلبهم سُلميونٌ ولم يأتوا مرة واحدة بل على مراحل وكونوا باقتدار ماكونوا والفضل بعد الله لهم جميعا فيما وصل إليه المكان الآن ربما قال : ان هؤلاء غرسوا اول نخلة هنا وقد يحيل إلى موقف انفرد به رجل حديث القدوم ينحدر الآن منه حفيد أو اكثر .

هناك أحداث يراها فاصلة ومؤثرة وكفيلة بتثبيت الانتماء أولها مجئ عبدالجليل صاحب القارة وما نشأ عنها من خلاف تطور إلى قتال أدى بالتبعية إلى فرز المواقف وهى مواقف تتجدد وفي كل زمان ومكان وبعضها هذه المواقف يتحدث عنها في زهو كبير وبعضها الآخر يرويه في شعور بالأسى والحسرة على أنه يتفاعل مع رواياته وأحاسيسه لدرجة يصعب على المتلقى أن يأنف عن الضيق باولئك الذين لم يدركوا حتمية التطور ولم يتصوروا أن الأبناء بالضرورة ينبغى أن يكونوا مثل الآباء بمعنى

أن يرث الابن ظروف والده الصعبة وأن يعيش بنفس المستوى الذي فرضه تخلف التعليم ومستوى الاختفاء وغير ذلك من صعوبات الحياة كما أنه يرى أن الهوية الحقيقية لمن يسكن المكان تتحدد أولا وأخيرا بما بذل من دم في مواقف محددة .

لديه لغة مؤثرة حين يطلق للسانه العنان في معرض الدفاع أو التدليل أو التقدير وهو يوجه الخطاب إلى سائله عبر تنغيم يحمل الدلالة المناسبة ولاسيما في مجال التعجب أو الاستخفاف او الاستفهام القائم على التنكر .

ومرة انسحب الحلفاء من المنطقة بعد احتلال وانسحب كذلك جميع المستخدمين فعم الحزن وشاعت الكآبة وفي مواجهة الفراغ الذي ملأ الحياة رجع الكثيرون إلى الدروشة وإلى الطرق الصوفية القائمة على الجذب الأمر الذي لم يكن معروفا قبل تلك الفترة وقد شمل ذلك اعدادا كبيرة من الشباب الذين صاروا يطوفون الشوارع بشكل ملفت للنظر وهم يضربون الدفوف ويلعقون الحديد الساخن ويبلعون المسامير وما إلى ذلك من مظاهر الحركات الغريبة .

وفيما كانوا يشطحون في تلك الحقبة من الاربعينيات وقد كانوا اشبابا في عمر الزهور وكل منهم تعثر به حالة الجذب المعروفة وكان يومئذ مارا في إحدى الطرقات فتوقف قليلا ليفهم حقيقة الامر وعندما تأكد من سيطرة ذلك الواقع الذي لم يكن داعيا لسروره ولا حائزا لرضاه همس في أذن من كان

بجانبه ليبلغهم على لسانه :

- خلوا حصة الطبل :

أى دعوا بعضكم يوفرون أنفسهم لسماع صوت الطبل الذي يضرب عندما يحل بالبلدة ما يتطلب حضور الرجال وهم عادة لايكونون من الدراويش ولأن الشباب في الغالب هم أول من يستجيب لذلك النداء فليس من المعقول أن يتعرضوا إلى حلقات الدراويش .

كان يدرك إدراكا ثابتا أن العشيرة تحتاج في بعض المواقف إلى سفهائها ولهذا يحرص على ترديد المثل المعروف .

- خاب قوم لاسفيه لهم

وذلك لما يفضي إليه مثل هذه المواقف من حسم لبعض الأمور حين لا يكون ثمة مجال أحيانا ولهذا فهو لايقر مطلقا ما يعمد إليه البعض من إدانة مواقف الشباب التي تخالف أحيانا السائد لعلمه أن العشيرة تحتاج في أحيان كثيرة لمواقف هؤلاء إذ إنهم دون غيرهم يستطيعون حسم بعض المواقف المائعة أو الخارجة عن المعتاد .

كل جنس يبى جنس من اللي زيا

بيش يستون الارياح في باديهن

فحين ينعدم الاحتكام إلى العقل من قبل طرف من الأطراف يكون من الضرورة بمكان ان يلغى أصحاب العقول عقولهم

لتحقيق التوازن الضروري والرجل يسوق في هذا السياق أحداثا كثيرة وقع الاحتياج فيها إلى مثل ذلك الأسلوب وغدا من المستحيل أن ينهج غيره إن ذلك هو ماجعله أقدر على تمحيص بعض الأحداث وصونها من بعض الظروف التي تكاد ان تجردها من محتواها العميق على نحو ما حصل بشأن حادثة الخامس عشر من نوفمبر المتمثلة في إعدام أولئك الرجال كمحاولة وقائية من الطغاة إثر واقعة قارة عافية وما واجهته إيطاليا فيها من خسائر بشرية ضخمة شملت الضباط الإيطاليين والمجندين الإيتيريين الذين أجبرتهم إيطاليا على الحرب في ليبيا متلما أجبرت كثيرين من الليبيين وساقتهم للحرب في اريتريا والحبشة وكذلك استشهاد عديد الأبطال بالرغم من المعركة كانت من المعارك الأخيرة التي سبقت انتهاء المقاومة في المنطقة الوسطى حين أخذت بعض العقول القاصرة ترجع الإعدامات إلى الوشاية في الوقت الذي يدرك الجميع أن الموقف البطولي هو الذي ادى إلى تلك الإعدامات اللاإنسانية .

ذات مرة أخذ يناقش بعض الرجال الذين استفزوا للحديث عن حقيقة الحادث محاولين الانطلاق من حالة الوشاية المزعومة فأخذ يقرر بطريقته الخاصة :

– انا ما نبرّيش حد من «الفتنة» لكن اللي ما نقبلاش أن الطليان تحركهم كلمة من هنا أو هناك التريس حاربت والتريس عندها زاد وزواد ، والزاد منين يجى ؟ والطليان من اللي يبيهم ؟

التريس لقطوها تلقيط ومافيش نار بلا دخان احنا لو نشدونا انقولوامظلومين لكن بينا وبين نفسنا نعرفوا أنا كلنا ما نبوش الطليان وما نسيبوش المجاهدين من غير مد سوى السلام والا شئ ينصرف .

أما عندما تغير الموقف العام على أساس مقاومة تغيير التبعية الإدارية للمنطقة واختار هو الانحياز إلى القوى الرافضة وحصل شئ من التنابز بالألقاب بين الفرق المختلفة وشط كل فريق في موقفه فكانت خشيته من الفرقة كبيرة بل إن النهاية غير الطيبة كانت لديه فتراه متشائما بل ويائسا من المصير :

- عاد احنا توا شدلى نقطع لك

- زعما من اللي يربح .. الربح بخسارة خاسرة كلها هذا اللى فيه

فإذا أسفرت الأمور عن الوجه الذي لا يحبذه ولا يرحب به وإذا ما سيطر الوجوم على البعض ولاذ البعض بالصمت وكاد أن يتحسر ندما كانت عباراته الزاخرة حكمة وصمودا وإصرارا على المقاومة والصبر على الموقف غير السار وغير المرضي والمفجع بالضرورة .

- الخيل غالية ومغلوبة الراجل يكون كيف كلاّب الحداد ، مرة في النار ومرة في المية .. الراجل ما يقولش أح .

على المرء أن يصر ويتحمل ويبتعد عن الشكوى فمن ذا الذي يمكن أن يبعد المصيبة حين تحل . الثار يحتاج لوقت كبير

ولا حرج من الهزيمة بعض الوقت .

8

ترى هل يكون من الصواب أن ينعت بالمبالغ أو المدعي ما ليس له إذا ما قال إن طرابلس عندما حل بها أول مرة ، في تلك الفترة المبكرة من حقبة الخمسينيات من قرننا الذي لم تبق منه سوى سنوات ثلاث لم تكن مغايرة للصورة التى استقرت في ذاكرته عنها ، بل هى منسجمة معها كل الانسجام ليس لأنه قد رأى غيرها من المدن أو أنها قريبة من ذلك الواقع القروي الذي ترعرع فيه ، ولادة ونشأة وصبا ، وإنما لأن هذه الصورة قد تكونت من خلال الأحاديث التى كانت تعاد من قبل اولئك الذين عاشوا فيها طويلاً حتى اضطرت أسرهم عشية اندلاع الحرب إلى القفول من حيث أتت وظلوا هناك يتحدثون عنها في ليإلى الشتاء الطويلة ذات الرياح العاتية ومشاعر الخوف الكبيرة ، فضلا عن ليإلى الصيف المقمرة حيث لاحاجة ماسة إلى الملابس التى كثيرا ماتكون عسيرة المنال على البعض وحيث يكثر الحديث عن الحرب وكساد مابعد الحرب ، ربما بدأ تكون هذه الصورة من تلك الكذبة البريئة التي قيلت له وراح يرددها ويتحمل وزرها بالرغم من أنه لم يكن مسؤولاً عنها ، عندما قالت له الجدة وهم يجتازون ذلك السور للسلام على «للاحليمة » إن ذلك المكان هو طرابلس أى الحى الذى يسكنه

الإيطاليون ، في حين أن الأمر لايعدو أن يكون رغبة في الحفاظ على خصوصية اللقاء وصونه من القيل والقال مما جعله من حيث لايدرى أويقصد يبدو أمام أقرانه بمثابة من يتحدث عن أشياء لم تحدث .حتى إن بعضهم وصفه بالكذاب مع أنه يدرك تماما انه لم يكذب وإنما أعاد كلاما قيل له .

طرابلس إذن ومنذ ذلك الزمن تتكون في المخيلة من بيوت تختلف كثيرا عن بيوت الواحة لأنها مثل بيوت ذلك الحي لها شرفات تحيط بها أسيجة ونوافذ مرتفعة وأبواب خشبية ليست من جذوع النخل . الحياة فيها كذلك تختلف ، فهى كما قال محمد فرج الذي عاش فيها إلى حين اشتعال الحرب وعودته مع العشرات من أمثاله ، تمتلئ ليلا بالمعربدين الذين يقضون لياليهم في السهر فتضيع نقودهم أثناء الشجار والتسكع وتبقى مزروعة فوق الأرصفة ليعثر عليها أمثال محمد فرج الذين يعملون صبيانا مع بعض الأسر ويشترون ما يكلفون به من قبل « أعرافهم » حتى إن البعض وعندما انعدمت النقود كان يتمنى لو يكون في مكان محمد فرج بطرابلس بل إن الذي لاشك فيه أن الجميع تمنوا ذات مرة أن يكونوا في طرابلس ، وذات صباح ليعثروا فيها على النقود ، وخاصة عندما تنعدم النقود من الجميع ولا يستطيع أحد أن يدخل السوق ليشترى الدوَّامة «الزربوط» الجميل الذي يبيعه حسن القصير أو الحبيب وليس الشيخ السنوسي الذي كثيرا ما يعطيه بعض الأطفال

مجانا .

طرابلس كما تظهر ملامحها من كتاب «إلى الحياة » الذي ذبل باسم « الكاملين » الهمإلى والهونى شوارع وأزقة تختلف من حيث الارتفاع والانخفاض ، منها شارع ميزران وشارع ماكينة الذين غنى عنهما الأطفال العائدون ذات مرة وهم يحدثون بعضهم عن معارك حارة ظهر فيها أكثر من « قبضيّ» يخافه أطفال الحى بلا استثناء ويحتمون به أمام الأحياء الأخرى .

شارعنا شارع ميزران / واللى فيه اذراع يبان

شارعنا شارع ماكينه / واللى فيه ذراع يجينا

طرابلس تبعد عنها تاجوراء كثيرا حتى يطلق على من يتوجه اليها بالمسافر ، كما رددت « يامحنيّ ذيل العصفورة » في أغان كثيرة وبألحان متعددة وعلى ألسنة كثيرة صورت الأب الذي يعانى المرض جراء كسر رجله والأخ الذي لايفقه شيئا والأم والأخت والعم الذي سافر إلى تاجوراء

كانك خايف من خويا صغير يلعب في الكوره

وكانك خايف من بويا عايب وكراعه مكسوره

وكانك خايف من عمى مسافر يسكن تاجوره

إنها أغاني الخالة مبروكة التى فقدت تاجوري ، ولم يبق لها سوى الأحفاد الذين لم يفلحوا في ملء وجدان العم يوسف ذلك الرجل الذي عاش ردحا طويلا من الزمن بالمدينة يجر عربته من

طرابلس إلى تاجوراء ويعيش حياته بالطول والعرض وعاد ذات يوم مرفوقا بتاجورى وقد بلغ من العمر ما بلغ والامل كله في تاجورى لولا أن الزمن كان في انتظاره مع اول انفجار عقب الاحتلال البريطانى راح ضحيته تاجورى ذات ضحى مع اثنين من رفاقه ،كانوا جميعا نهاية السلالة لذويهم ، ليبقى العم يوسف مكلوما بجراحه ومأساته .

طرابلس يسكنها ناس أنيقون مثل العم علي خضور الذي عاد مرتدياً «طاقيته الحمراء» والحلة لسوداء وأخذ يحرص على ارتدائها رغم كل ظروف الحياة وضيق ذات اليد حتي لقد ظن الكثيرون أنه يتوفر على خزائن من مال وما علموا أنه لايملك سوي الصبر وكثيرا ما بات على الطوى . الأطفال أيضا لابد أن يلبسوا ذات الحلل التى أعطيت له ذات يوم عندما جلبتها الجدة بواسطة النجومة وثمة صور لأطفال عديدين في كتاب «إلى الحياة» المكتوب بعبارات سهلة الحفظ وبخط جميل جداً .

الحديث مع أولاد المدينة يحتاج إلى حذر شديد فبعض الكلمات تعطي انطباعا عمن يتحدث إليك أنه يسخر منك فلابد أن تقول نعم بدلا من كلمة (آه) هكذا قال محمد فرج وهو يوصي كل من يهم بالتوجه إلى طرابلس ويدرب البعض على الملاكمة لأن العركة في طرابلس تتم بواسطة الملاكمة والتى كان يقول عنها «البكس» كل ذلك قبل أن يموت في ذلك التفجير الذي تم بواسطة قنبلة يدوية كان يحاول فكها في ذلك

الزمن حيث جاء عدد من الشباب لايعرف أحد سبب مجيئهم وان كان البعض يقول انهم مبعدون لان هناك اشتباهاً حولهم . وأحتج البعض عن تحويل المنطقة إلى منفى حتى إن احدهم كان يقول :-

- ملاّ استقلال وملاّ حكومة . بعد ولينا كيف واو حريرة !

لباس النساء أيضاً في طرابلس يختلف عن القرية وبالذات الحزام الذي كانوا يطلقون عليه الحزام الطرابلسي الذي تتميز به فاطمة غيث وعيشة بنت حويل عن الجدة وغيرها من النسوة ، هم دائما يفرقون بين الحزام الطرابلسى وغير الطرابلسي وكثيرا ما يتضايقون من بعض البنات اللاتي يربطن الحزام الطرابلسى ربما لأنه أكثر إثارة وربما من باب التمسك بالموروث .

كانت الجرائد تتحدث كثيراً عن باب الحرية الذي يوجد فيه دكان الحاج بشير بن رمضان الذي اقتيد من دكانه مع مجموعة من شباب المؤتمر إثر قيام الجماهير ببعض المظاهرات الضخمة عندما اشتد الكفاح في سبيل الاستقلال ومن أجل إسقاط مشروع بيفن سفورزاً وتكريس الدعوة الرامية إلى وحدة البلاد ورفض النظام الاتحادي الذي رؤي أنه لن يرسخ الوحدة الوطنية وسيساعد على ضعف الشخصية الوطنية القادرة كما كانت تبشر وتدعو جريدة « الشعلة » التي أسسها احمد رازم ودافع من خلالها مع أسماء كثيرة عن وحدة البلاد وقاوم بكل ضراوة

ومن دون أى تردد المشـــروع الاتحـــادى ، حـــتى إذا مـــاقـــيض للمـــشـــروع الاتحـادى أن يمرر وللمـشـروع الوحـدوى أن يـســقط كـانت الاعـتـقـالات وكـان إبعاد أحـمـد زارم ذلك الإبعـاد الذي وصفه الشاعر الشعبى«باللز»

استقلال نبوه   وحق الحرية ندوه

اللى قال الحق حبستوه   بن عامرشن داير كنه

واحمد زارم لزيتوه   « ظالم »ليش يدافع عنا .

طرابلس إذن مشاهد متعددة واوجه كثيرة وبيوت لها صورة محددة .رجال لهم حضور ولباس متميز ، شباب لهم سلوكهم نسـاء لـهن طرق خـاصـة في كل شئ ، طـرابلس جـمـال مـؤكـد وعالم يحتاج إلى الاكتشاف !

عندما اقلعت السيـارة الايطاليـة القديمة التى يطلقون عليـها بالايـطاليـة رقم (34)«تريـنتـا كـواترو» المملوكـه شـراكـة بين الحـاجين ، يوسـف وعـجـيـلي والتى يقـودها على باكـيـر ذلك السـائق الماهر الذي عـرفه الناس منذ سنين طويلة سـائقـا لهـذه السيارة المخصصة لحمل السكر وخلافه من مصراتة لتعود محملة بعد ذلك بانتاج المنطقة من تمور في الغالب وفائض السكر ذاته في مناسبـة أخرى ، وبين الرحلتين يتم التطوع بجلب الماء الجيد من نبـع الحـمـام بـواقع «برمـيـل كـامل » لكـل مـواطن من أولئك المواطنين المعروفين والمرتبطين بشكل ما مع ملاك السيـارة بحكم المصلحة أو الشراكة أو حتى الوجاهة الاجتماعية ، ويقوم علي

باكير فضلا عن ذلك بحمل الأطفال وبعض الكبار إلى ذلك النبع الجميل ،وكذلك المسافرين إلى مصراته حين يقتضى ظرف من ظروفهم أن يقوموا بذلك السفر . .

عندما أقلعت السيارة نحو طرابس كان الحزن بحجم الارض، لفراق أولئك الأعزاء أكثر من خوف المجهول الذي يفترض أن يكون في انتظار كل مسافر ، إذ لم يكن ثمة مجهول بمعنى الكلمة ، سوى ما يمكن أن يخامر النفس بشكل خاص تجاه المستقبل فالمشاركة المبكرة في الحياة تجعل المرء يبدو في أحيان كثيرة أكبر من عمره ، طبيعة الحياة نفسها تدفع نحو هذا الاتجاه والطريق غير المعبد والمرصوف فقط بالتراب والطين منذ الثلاثينيات لم يعد صالحا للمرور لقد داهمته الرياح من كل جانب وكلما حالت كميات الرمل دو مرور السيارة نزل يوسف مساعد باكير والملقب «بالجرماني »لشدة احمرار وجهه ووضع ألواح الأخشاب فوق الرمال لتتمكن السيارة من المرور إنه يفعل ذلك المرة تلو المرة ،رافضا المساعدة من أى كان ، لا أحد يحمل الأخشاب غيريوسف وهو يحاول التدرب على القيادة ويستعد للحصول على رخصة الدرجة الثانية ذلك هو الطريق المتاح للعيش في ذلك الزمن والحصول على رخصة يمكنه بواسطتها أن يكون شريكاً ذات يوم ، أنه يقبل على عمله في حميمية جميلة وكلما حان وقت الغداء أو العشاء وقفت السيارة ليعد الطعام الذي يفوق طعمه كل الأطعمه لقد تزودت السيارة بكل ما

تحتاج إليه من لوازم ،بما في ذلك الماء الذى يُعبأ في القربة ويعرض للهواء فيكتسب درجة من البردوه تفوق كل أنواع التبريد ، وطوال الطريق وباكير يشغل الرحلة ببعض الأغنيات الشعبية

عرب فرقوا بينى وبين الغإلى عطهم طليقة نار يا دوكإلى

عرب فرقوا بينى وبين منايا عطهم طليقة نار يامولايا

وقد يرفع صوته بلهجة أخرى ، وقد يطلب من المرافقين أن يحدثوه بحكاية من الحكايات وقد يسأل عن موضوع من المواضيع ، إن الاسئلة لاتحتاج دائما إلى الاجابة .لأن على باكير لايريد في حقيقة الأمر سوى شغل الوقت حتى لايتسرب الملل إلى المسافرين جراء طول الرحلة ، وهو على أي حال يستنفد صبر الجميع وحكايات الجميع فالطريق لايتم أبدا والحياة منعدمة تماما لازرع ولاضرع ولا إنسان . قليل من الجمال تبدو في أحيان قليلة وجميعها تبدو هزيلة وبعض الأرانب تظهر على طول طريق السيارة وهى التى تقف حائرة وتتم أحيانا مفاجأتها من الخلف ،خاصة عندما يكون البرد على أشده لكن الطريق يشهد دائما لعديد من الرجال الذين طالما دأبوا على قطعه عبر الأيام والليالي وكلهم خير ومروءة وكلهم سخاء. كثيرون أولئك كانوا يقطعون ذلك الطريق طوال الاربعينيات ومطلع الخمسينيات .حين كانوا في بداية عملهم في ميدان قيادة السيارات بعضعهم كان يقود لمن يملك وبعضهم كان شريكا

وبعضـهم كان في بداية طريقه نحو إتقان المهنة وبعضـهم الآخر كـان يملك المركبـة وجميعهم تباروا في المهارة في حسن المعاملة للناس في الحرص على قضاء حاجات البشر على الإحسان إليهم في السـفر من كل جانـب . أسمـاء كـثيـرة لمعت في مـيدان النقل بدأت رحلتـها الشـاقة من ذلك الطريق عـثمـان البرقلى حـسن مسيمير مصطفى قنش إبراهيم حسونه بلقاسم شنيشح الهادى العـايب عـبـد السـلام الزرقـانى الـهـادى حـمـودة ابراهيـم الحلو البـهلول أنقـى، الشـريـف أحـمـد، الشـريـف عـبـدالله، مـحـمـد عميش وغيرهم وغيـرهم ممن يتفقـون في القيادة وحسن التـدبير وقـد يخـتلفون في المنطقة والحضـور في التاريخ، ولعـل الهـادي حـمودة أن يكون اكـثـرهم حـضـورا وذلك عندما أصـر على نقل اعـضـاء مـجلس الولاية من فـزان عـقـب أزمـتـهم مع السلطة وتعـرضـهم لقـرار الحجز فكانت مبـادرة الهادى بالـرغم من أنه كـان أكـثـر الناس انتـفـاعـا من السلطة والسـبب أن الرجل كـان يفرق بين المصلحة والسمعة وكان شعاره تلك المقولة الشعبية اذا ما طلب إليه تصرف مخجل : «العار أطول من العمر»

لاتوجـد بالـطريق عـلامـات تحدد المسافـة ليتسنى للمسـافـر معرفـة ما تم قطعه منها ومـا ينتظره مستقبلا .ولكن ذلك لم يمنع السـائقين من حل المشكلة بطريقـتـهم الخاصـة مـسـتـفـيـدين من الواقع وتحديد المسافات

قـبل بو نجيم تمر السـيـارة بالطار ذلك المحرث الذي يحـرص

الأهل على حرثه كلما جاءت السيول ليس فقط لخصوبة أرضه وحسن عطائه وإنما لأنهم امتلكوه حين حلوا هنا في رحلة الهلاليين لتوكيد الوجود العربي بالصحراء الليبية عشية مقدم خلف الله المنارى وإخوته السلميين عائدين من الساقية الحمراء كما يذكر تاريخهم الشفهي ومن ثم شراؤهم للمحرث من أولاد محمد بالذات. هناك إذن تنتهى حدود وتبدأ حدود أخرى بين القبائل فتذهب شمالا نحو الفطيمية ثم خشم محمد فإذا تجاوزت بو نجيم كان وادى بي ذلك الذي ليس مفيدا بما فيه الكفاية حتى إنهم يدعونه بي الخايب لانه ليس في خصوبة سوف الجين كان ثلث الطريق الصعب قد نفد حتى الان فبدأت ملامح الأمل تلوح بالرغم من شدة الإعياء التى نتجت عن رمال بو نجيم التى تعتبر بحق رحلة من العذاب دون غيرها وحينها رفع باكير صوته عاليا :

عينى على الزينين

سكب دمعتها لين سيلت غبين

وزمزم وسوف الجين

ووادي نفد من بونجيم لجاي

عينى على مشكاى

بكت لين بكت كل زول معاى

الكلمات قديمة للغاية صدرت ذات يوم من شعراء كانوا يعيشون في هذه الربوع واللحن كذلك من الألحان الشعبية لكن

الزمن أشاع اللحن بواسطة «الجرامافون» انها في هذا الطريق تبدو وكأنها سمعت لأول مرة . النبات هنا أكثر وجودا أما الحطب فتعلوه الخضرة وثمة قطعان من الخراف تلوح بين الفينة والفينة، خراف لاتفصح عن البؤس ولاتدل على الجوع بقدر ما تشير إلى إختلاف المناخ واختلاف جودة الأرض حيث توجد اسباب الحياة وعلاماتها الدالة على نحو أفضل وادعى إلى راحة النفس .

مع ابو قرين تبدأ الحياة يتأكد الشعور ببلوغ شاطىء الأمان إن المكان في واقع الامر لم يكن اكثر من مفترق للطرق يربط بين الطريق الردئ المتجه نحو الجنوب والطريق الساحلى الذي يشق الوطن شرقا وغربا وهو لم يكن معروفا بهذه التسمية هناك من يصف المنطقة ببئر الزعفران وهناك من ينسبه إلى قبائل الهيشة حسب الوصف التاريخى لكن الشهرة هذه ترسخت من إقامة الفقيه حمد بو قرين الذي حاول أن يستفيد من الموقع في مشروع تجارى بسيط عبارة عن بقالة صغيرة ألحق بها مكانا مغطى غطاء بدائيا للغاية أمكن بواسطته إيواء القادمين لغرض تغيير اتجاههم في ذلك المتقاطع من دون أن يتقاضى عليه اى مقابل بالإضافة إلى توفير بعض المستلزمات بيعا وشراء وإعارة مع حسن الاستقبال والإقراض في بعض الأحيان بحيث لم تكد تمر سنوات قليلة حتى عرف المكان بذلك الاسم .

إن الامـر ليس غـريبـا إلى الحـد الذى يثـيـر الاسـتـهـجـاين أو التعجب المبـالغ فيه إذ إنّ أماكن كـثيرة عرفت بأسمـاء الأشخاص أشهرها بدون شك قصر أحمد بمصراتة.

كل المدن صـغيرة وليـست ذات بال بما في ذلك مصـراته التي حل بها المدير منذ مدة وصار من الضـروری أن نتوقف بها لغرض السـلام ليـس فـقط بحكـم العـلاقـة المتـينة وإنما إلى جـانب ذلك النقل التعسفى الذي ما يزال أثره باقيا وماثلا لدى الناس جميعا حتى إن الرجل ترك عائلته هناك ولم يعد يأتي إلى أسـرته إلا في المناسبـات دون أن يقتـرب من رئاسـة المتـصـرفـيـة ولم يذكـر أحد عنه أي نوع من أنواع الانحناء .

ومع أن الحـياة تبـدأ من بوقرين إلا أن مـنحنى ومنحدر النقـازة كان يؤمئذ من أسوأ وأخطر الأماكن واصعبها على المارين ففضلا عن منحـيـاته الكثيـرة فهو ضـيق للغـاية تحيط به المنخفـضـات من كل جانب وكذلك المرتفعات مما يقتضي أن يتم اجتيـازه في سير بطيء للغـاية يمكن المشـاة على الأقدام أن يصـعدوا إلى السـيـارة وينـزلوا منـهـا مـتـى لزم الأمـر ، الأمـر الذي أدى إلى أن تـكون السـرقات كبـيرة للغاية ولاسيمـا عندما سكن في المنطقة على بن عـمـر «فحـيـج» ذلك الرجل الأسطورة والذي نـسب إليـه الرواة أشياء ليست له وكان أبعد الناس عنها ، فعلي بن عمر فحيج لم يكن قـاطعا للطريق بمعنى الكلـمة ولكنـه مشروع متـمرد اختـار طريقه هذا حين استشـعر الظلم في مسـألة التفـريق بين الناس من

حيث التصريح بحمل السلاح فإن موقفه ذاك الذي أخذ يتطور يوما بعد يوم وشرعت السلطة تشوهه وتجرده من حقيقته كذلك يوما بعد يوم وذلك في خطط ماكرة نهجتها السلطات واحتوت بها الموقف باتجاه إفراغه من محتواه ومزجه في إطار الحرابة وقطع الطريق بدلا من صفة التمرد الحقيقية والتي كانت دائما وأبداً بداية كل الأحداث الكبيرة التى حفظها التاريخ وكان من الممكن أن يكون الموقف من على بن عمر فحيج متجها ذات الاتجاه .

من مصراتة اعتاد الناس أن يغيروا وسيلة النقل القادمين فيها بوسيلة أكثر سرعة كان نظام سيارات الأجرة قد بدأ به العمل وقد بادر الحاج بإحضار السيارة التى توقفت عقب الانطلاق أمام ثلاث محطات يمتلكها الإيطاليون فالرجل الذي استأجر السيارة يتكلم اللغة الإيطالية السائدة وهو ككل أبناء جيله يميل إلى هذه اللغة علي ما يبدو باعتبارها دخلت العقل في بداية العمر وهي على أى حال لغة الغزل كما يقولون . المحال عادة تدار بواسطة الأسر يندر أن تجد هناك أنثى غير مقبوله ورحمة الله وسعت كل شئ إن المحال التى تقف أمامها السيارات تقع في مداخل المدن الصغيرة والتى لم تكن في بدايتها مشاريع مستعمرات بدأت في الاضمحلال بسبب المتغيرات الدولية التى بدأت بسقوط إيطاليا الفاشية فخروجها منهزمة من اللعبة الدولية بالكامل .

وحدها الخمس التى تبدو مدينة مكتملة المعالم و لا يعلم هل كان تأثيرها بسبب العمران أم أن الأمر يعود إلى تلك الحقبة الزمنية التي قضاها الأهل هناك في العشرينيات حين كانت الإقامة المفروضة على الاهل وكان حسن استقبال اهلها.

على أن مداخل طرابلس وقد أطلت بعد ساعة من السير كانت مجرد غابات متداخلة في بعضها ولايستطيع الرأئي أن يميزها لكن جمال العطر الفواح يبلغ أوجه في الهضبة الخضراء إلى يغلب عليها الاسم الايطإلي (كولّينا فيردي)

يقع البيت الذى لامناص من الركون إليه للاقامة لكل من يأتى من المنطقة وهو على قدر من اليسر بمنطقة أبى الخير وهى منطقة سميت شوارعها بأسماء المدن الليبية حين بدأ ترتيب البلدية ، بحيث لم تبق سوى أزقة محدودة تحمل الأسماء الإيطالية أغلبها لشخصيات لاعلاقة لها مباشرة بالاستعمار الإيطإلي على ما يبدو منها زنقة « ڤلليبلى » عنوان البيت تحديدا إنه يتفرع من شارع بنغازى المؤدى إلى شارع عمر المختار الذي شاع اسمه عقب اندحار ايطاليا مباشرة البيت مؤجر بثلاثة دنانير تقسم على عدد أيام الشهر لمواجهة نفقات الكهرباء والمياه وكان إيجاره قد تم لإيواء القاطنين من التجار الذين كانوا يقومون بتسويق منتوج التمر ويعودون حاملين ما يحتاج اليه السوق من السلع ولهذا عرف باسم حوش التمر وذلك منذ الأربعينيات . إن الذين يرتادونه لابأس بهم وهم يجيئون

ويذهبون أما الإقامة الدائمة فمقتصرة على الحاج وبعض أصدقائه وأقاربه الخلص والذين اخذ بعضهم يتجه إلى أماكن اخرى بهدف الاستقرار النهائي بالمدينة هكذا اقتضت المصالح والظروف . على مرمى البصر يوجد متجر الحاج الذى تم شراؤه كخلو رجل منذ سنوات قليلة عندما اقتضت ظروف نشاطه أن ينقل مركزه إلى طرابلس وقد جعل منه محلا لبيع المواد الغذائية بالجملة والقطاعى وفقا للتقليد المتبع في تلك الأيام حيث يحرص التجار على الجمع بين التعامل مع السوق بوجهيه العام والخاص ربما لتحقيق ربح أكبر وأغلب الظن الرغبة في الاتصال بالشارع والأقارب .

إن كل الخدمات هنا متيسرة والاتصالات كذلك متاحة فالاسواق لاتخرج من باب الحرية وشارع المأمون وشارع الرشيد الذي ما يزال في مرحلة التكوين كما أن سوق الجملة أو الثلاثاء كما شاعت التسمية قريب للغاية وكل شئ يتم في دقائق . يفتح المحل على شارعين متقاطعين على أن المدخل الأساسى هو الذي يقع في شارع لبيد في مواجهة المسجد ، حيث يقف مباشرة سى محمد بن حميدة المشارك بقوة عمله ، رجل أربعيني يستقبل رواده بود غير مفتعل وجدية غير خافية وهدوء لا تصنع فيه يتحدث في صدق ورزانة بعيدا عن التحذلق والتظاهر بالمساعدة في السعر التى كثيرا ما يقوم بها بعض الذين تدربوا على أساليب التجار اليهود أى المبالغة بالسعر المبدئي ثم

التخفيض الكبير يخيل لمن لايعرف الرجل أنه غير متحمس للبيع والشراء لكن من يذهب إلى غيره من التجار ويسأل عن الأسعار يستطيع أن يكتشف الحقيقة فالرجل كما يقول عن نفسه صاحب كلمة واحدة وسعر واحد ، التجارة لديه تقوم على التعامل مع الناس ولا صلة لها بأصحاب المراكز الذين يرتادون المحل من أكثر من جهة باحثين عن الشريكين لأمور تخرج في أحيان كثيرة على التجارة . وإن كانت في صلب المصالح فهو لايقترب حتى من جمال بك الذى تولى النظارة ثم رفع إلى منصب الولاية ، بالرغم من أنه من مسقط رأسه وعلى علاقة بأقاربه ، إن سى محمد لايقترب من المقصورة التى يرتادها أولئك النظار أبدا يحرص على متابعة الصحف اليومية والوقوف على أخبار المجتمع شديد الاتصال بالناس ، وقد يعيد لاصدقائه أخبار الإذاعات يرفض رفضاً باتا النظام السياسى القائم ، يمقت مقتا شديدا بعض الذين غيروا مواقفهم وقبلوا العمل أوسعوا إلى امثال الصديق لما في ذلك من التذبذب المخجل وعدم الثبات على المبدأ ، لديه اقتناع أن الانسان سيد نفسه ويستطيع الاحتفاظ بموقفه. إذ الأرزاق حسب هذا الفهم الذي لايحيد عنه بيد الله ، وهناك أكثر من سبيل للعيش بدلا من الانضمام إلى ركب الفساد يتوفر على زهد في كل غرض دنيوى وشخصي يتجنب أى تطلع للآخر ، حكمته الدائمة :-

-اللى عنده رزق عنده بطن تاكله .

معلوماته عن طبيعة الأحداث التي مضت دقيقة للغاية حين تسأله ولايجد حرجا من الإجابة يحدثك بما يعلم دون لف أو دوران كان البعض يتهيبون من الحديث معه لما كان يبد وعليه من الصراحة ومن الاقتصاد في الحديث ولرفضه القاطع لأي شكل من أشكال الانحراف أو لون من زيف الكلام .

اقترب منه من البداية فوجد الاستعداد والنصح والإجابة على كل الاسئلة التى طرحت بوضوح وكان الرد واضحا وجريئا أرجع الامر في البداية إلى صلته بالوالد غير أنه ما لبث أن توصل إلى ماهو اعمق فقد كان الرجل يحب أن يهب معلوماته لكل من يطرح سؤاله بصدق وجدية ومن الاجيال الجديدة تحديدا فعلى هذه الأجيال يعول الرجل كثيرا على ما يبدو وهو يحب أن يلقنها مالديه من معرفة بخصوص ما في البلاد من معارك الجهاد إلى مواقف الأسماء المعروفة قديما وحديثا .

يبدو أنه قد استقر في المدينة منذ فترة قريبة فأطفاله الأربعة يومئذ مازالوا صغارا لقد رجحت كفته على الأقارب ورجحت الكفة لديه أيضا لقد كان القاسم المشترك هو رفض الواقع القائم وما كان يجري من ممارسات مؤلمة وسيئة ولكن بدون أي ثرثرة أو صوت مرتفع . في البيت عدد من الذين يمتهنون التجارة يجيئون ويذهبون ذلك ديدنهم طوال أيام الأسبوع يتولى مسؤولية الطهي فتى تم اختياره من باب الأنسانية والحاجة ،

الوجبة بسيطة جدا كمية قليلة من اللحم وبعض يقول الموسم بالإضافة إلى الخضروات ، المجموعة تحرص على تناول الخضر بشكل دائم وهم يتقاسمون توفير الأشياء وفي الرد على من يطرق الباب او يطلب اى شئ. مالم يكن المرء سريع الحركة فلا يستطيع ان يقوم بأى خدمة

يوم أن جلس معهم تذكر وهو يلاحظ سرعة التحرك والسباق على خدمة المجموعة توصيات الجدة وهى تقوم بالتربية والتوجيه وفي بدايات العمر الأولى وفي معرض حثها على ضرورة الإسراع والحركة عند طلب أى حاجة من الحاجات فلا يسرع بها :

ـ ابنادم يكون عظمه خفيف

تمشى فيك عاده البخل وقلة الحركة وحتى لما تكبر وتسافر مع الناس يولو «يضحكوا عليك و ويقولو اخفيف العظم يحبه كل حد»

لقد كانت خشيتها كبيرة من أن تسيطر تلك النقائص المتمثلة في التلكؤ بتقديم الخدمة العضلية التي تفرضها عادة الرفقة وحياة العزوبة للمجموعة حيث يعزز اسلوب التعاون والمساهمة من الجميع والسمعة دائما لمن يترفع عن المحاسبة ومن يبادر بتقديم كل ما يستطيع لأولئك الذين يعيشون معه ويقاسمونه صروف الدهر. إنها الفضائل التى تغرس من الصغر وتكتسب عند الواعى من بقية الناس والحق إن أولئك الرحال

كانوا بالرغم من أعمارهم خير مثال على سرعة التحرك والمبادرة بتقديم أجل الخدمات لكل من يأويهم المكان .

أعداد من البشر كانوا يترددون عى المكان فلا يضيق بهم رغم صغره ولا ينتاب القلق أحدا رغم الكثرة لقد احتلوا بحسن خلقهم الوجدان وبهروا النفس وقدموا أروع الأمثلة في حسن التوجيه. الحاج حسن جابه . الهادى الرزين . الشلافطى البسيط الطيب عمر عبد الله الذي يقول كلما يعتقد الحاج عبد الرحمن الذي لايهدأ له بال مالم يمزح بطريقته الخاصة ا‍ ‍حجوب الذي يكتب على بضاعته المستوردة من مصر مختارا ‍حجوب لعب أطفال فيأخذ نظراؤه في الضحك لان الحاج المحجوب شبه نفسه بلعب الأطفال ويأخذ هو في الضحك من الأعماق .

- اندرى عليها نا المهم البضاعة وصلت

كان الرجل دليلا حيا على تقلب الزمن وتداول الأيام وعلى قدرة الانسان على التحمل فهو الذى أعطى الحاج يوسف أول رأسمال في حياته عندما حل بهون ذات يوم وها هو الآن وع‍ ‍ ظروف وصعوبات مرت يعود فيطلب رأس المال من الحاج يوسف ويحاول أن يتجاوز ظروف الحياة الصعبة من جديد

إنه لاينكر هذه الحقيقة ولا يتحسس منها بل يقولها على مرأى ومسمع من الناس كافة وبالذات عندما يلعب الورق (الكارطه بستة) اللعبة التى يحبها حتى الإدمان ويخسر فيها كثيرا ويظل يلعب حتى يتحقق له النصر الأخير وقد لا يتحقق

قائلا :-

- الخيل غالبة ومغلوبة . ويمضى في لعبه بدون كلل حتى يحقق ما يريد ويظفر بالانتصار وينهض زاهيا بذلك النصر بالرغم من أنه قد خسر جولات كثيرة وقبل أن يضع رأسه على مجموعة الأجولة التى يبيت فوقها على هيئة سدة عاليه يمضى في كلمة المعهودة :-

- مايوجعك من مات إلا الغلب على من بات

بعض أولئك التجار يعجزون عن إعداد قائمات بضائعهم وبعضهم يحتاج إلى كتابة رسالة موجهة إلى شريكه تحوى أخبار السوق وهم يسمون هذه الشركات على التكتلات الدولية مجموعة تدعى (الكومنولث) وأخرى تدعى (الكوفترن) أمام البيت ، وفي الطابق العلوى تطل عمارة قديمة ذات طوابق مرتفعة فوق الطوابق تطل فتاة سمراء البشرة تتكلم الايطالية والعربية يبدو أنها تشتغل مع السكان بالرغم من عدم وجود من يطل من الإيطاليين . إنها تجمع الملابس أو تنشرها للشمس وقد تصعد بدون اى شئ كانت تحاول أن تضبط كل الأسماء ولاتمانع في الحديث مع صغار السن بالذات عندما حاول أن يبقي ذات مساء من المساءات وتناهى ذلك للحاج حسن قال بحزم وبلهجة غير عربية «توكافيرو» أي أمسك الحديد وهو تعبير دارج إيطالي بمعنى احذر وأشار إلى مدخل البيت مشيرا بضرورة الخروج وعدم البقاء مساء قريبا من المتجر والبيت . أيضا توجد

عـمارة ضـخـمة بها الشـركة الطرابلسية الزراعية مكانتها تعلو العمـارة وتطل على شـارع عمـر المختـار يمكن لمن يدخل هناك أن يطل على الـشـارع وبنواحـيـهـا اى نواحى الـعـمارة تعرض الالات على الشـارع ومـحل كـبـيـر كـتب عليـه . «إخوان زغوان» توجـد واجهـة وكان الحوار اللغوى المطروح هل من الفـصاحة بمكان أن يطلق على المكان عبارة إخوان أو إخوة إلخ المرابط بشير خليفة يعمل فراشا بالمكان صباحا مساء . خاصة أيام الحفلات . إن الأمر لايكلف شيئا بل من الممكن أن يستمتع بشرب الشاى الأحمر الذي يطبخه كل يوم العم « كوفيه » عليه فقط ان يصغى لأحـاديث المرابط المكررة عن رحلتـه التى لـم يعـد بعـدها إلى مـسـقط رأسـه ابدا إذ تحـرك الركب في اتجاه ورفلة اسـتمـر في السفـر حتى وصل طرابلس وخليفـة الذي يعمل مدرسا في المعارف ولديه شهادة في هذه المهمة ومع ذلك مرتبه أقل من مرتب عديله مصطفى الذي يعمل بالمدارس الإيطالية وبدون شهادة وبمرتب أكبر والدنيا كما يقول المرابط أقسام ونصيب إن المرابط كثيرا ما يردد بعض الأزجال التي قيلت هجاء في عشيرته بالكامل لمجرد أن تخطر بباله فكرة ما أو تصرف قدر أنه ليس في عداد الجيد وهو يريد أن يبرر غيبته التى طالت أن المرابط رجل مسن وكل الذين عرفهم في مسقط رأسه فارقوا الآن الحياة وكذلك الذين حلوا معه في المدينة لم يبق منهم إلا القليل لكن ميزران حى كبير ، والناس هنا متآزرون ومستقرون

منذ آماد بعيدة فهو لايحس بأي نوع من أنواع الغربة ولا يستشعر الوحدة أبدا فخمسون سنة من الإقامة الدائمة كفيلة بأن تخلق من صاحبها مواطنا عاديا في المكان الذي عاش فيه .

في مطلع شارع ميزران تطل الهيأة الرياضية العليا التي يرأسها العم مسعود ويتردد عليها بعض الإخوة الذين يعملون معه . ومسعود وإخوته من الأسماء الحاضرة قبل دخول عالم المدينة فهم الكرة والكرة هم . عثمان يعمل هنا عملا بسيطا لكنه مهم للغاية فهو يسمك بمفتاح المبنى ويتخذ من إحدى حجراته مبيتا له ، بموافقة العم مسعود ويمكن أن يقدم أي ضيف ولكن شريطة ألا يترك أى التزام أو أى أثر ،،من هذا المبنى يمكن الإطلال على شارع ميزران يمكن كذلك رؤية المارة في ميدان الشهداء ويمكن كذلك رؤية بعض الأسماء إلى تتردد على مصلحة المطبوعات والنشر وإذاعة طرابلس وتقديم رسالة لبرنامج ما يطلبه المستعمون فيعلن الاسم في الإذاعة وكذلك التهنئة بالمواليذ والتعزية في الوفيات فعثمان صاحب حظوه لدى الأستاذ عبد القادر الذي آلت اليه الصحيفة وكل ذلك يشكل ميزة غير متوفرة لعديد الناس الذين كانوا في المدينة والشهرة محببة والظهور تتوق إليه نفوس معظم الشباب ليس هذا فحسب بل إنه إلى جانب ذلك يضمن لمن يعرفه الدخول إلى ملعب كرة القدم بالمجان يومى الأحد والجمعة من كل أسبوع خاصة وأن تشجيع فريق الاتحاد من الأمور المفروغ منها طالما ان

محمد شفرو من بين رياضى هذا الفريق وهو الذي يملأ بصورته وأخباره صفحات الجرائد باستمرار الأمر الذى شكل فخرا للأهل جميعا إذ اتخذ من مسقط الرأس «لقباً له».

أسماء كثيرة ترد المكان فالنشاط الرياضى هو البديل على ما يبدو لما تعطل في الحياة العامة من بداية سياسية لم تستطع أمام الضغط أن تصمد طويلا فحاولت أن تعوض بهذا التوجه أو أن السلطة من ناحية أخرى وجدت فيها المتنفس والإطار عندما دأب الوإلى على حضور المباريات وقدم ما أمكنه من الدعم والتشجيع وكذلك رعاية المشاركين.

لم تطل إقامته بطرابلس ولم ير إلا القليل من معالمها فقد كانت الترتيبات تقتضى أن يذهب إلى بنغازى ويدرس في المعهد الدينى الذي وقع تأسيسه بالبيضاد بدلا من التوجه للأزهر فهو كما قيل ضمن خطة تهدف إلى الحيلولة دون توجه الشباب إلى مصر للدراسة الدينية هي خيار الوالد الذى ليس له من أمنية سوى أن يراه شيخا من شيوخ العلم . ولم يكن أمامه إلا أن يقبل في البداية ويومئذ امتطى إحدى التاكسيات صحبة الابن الصالح الذي تعهد برعايته إلى هناك وقد كان مرافقا لعدد من الركاب فقدمه لهم ابن أخ أو ابن أخت وذلك لأمر يتصل بتحديد قيمة الإيجار في اتجاه التخفيض وهو لم يكن ملتفتا لهذه الحيلة ، فأطلق لنفسة ، حين طالت الرحلة ، العنان كى تدندن ببعض الألحان والسيارة تطوى المسافات البعيدة . لقد

كانت الرحلة جميلة ومثيرة فالابن الصالح لم يرق له هذا التصرف ولم يكن متيسرا معالجة الأمر على أن أجمل ما في الرحلة الاستراحة التى وجدت في منطقة بن قواد (قصر بو هادي) ذلك المكان الذي تشيع فيه نادية (تلك الفتاة الايطالية) وهجا خاصا وطيفا يفوق الوصف فاللحظة تخلق العمر والعمر لايخلق اللحظة . والذاكرة سيدة هذه الأشياء وعذابها الذي لايتغير على مر الزمن والأيام .

نادية تعمل في استراحة والدها لايهم أن يكون مالكا أو مديرا فهو المتصرف أمام الناس الاستراحة تتكون من مطعم ومقهى عندما جلسوا أقبلت وعرضت القائمة ثمة من يدرك هذه اللعبة فأطال التحديق إلى القائمة وأخذ بعد ذلك يسأل وينتظر الاجابة والهدف دائما التمتع بالنظر إلى ذلك الوجه الطافح بالبشر . وجنتان تصارعان الورد الصدر النافر كان يرصد هذه مجتمعمة دون أن يتمكن من المصارحة فالابن الصالح سينوب عنه في كل شئ بما في ذلك توجيه الطلب إلى نادية وهو لم يسرف في الطلب كى لايثقل على المضيف ولم يأكل الإ ما يسد الرمق بيد أنه أفلح في افتراس النظر لكل شئ :-

فوضوية الشعر الخإلى من التصفيف

النمش الذى يملأ الوجه

الزغب الذي يلوح على المعاصم

يقينا إن مرور «على دومة» الذي يقود الحافلة بمهارة وإنسانية مفرطة ووقوفه هناك وقدرته على الغزل الجميل قد أثار في النفس مشاعر أخرى من المؤكد أنها جعلت المقارنة مع بنت الجيران ليست لصالح تلك البعيدة والحب ليس دائما للحبيب الأول . إن الجنس الأدبى الأقرب والأقدر هو الشعر وربما كان الشعر الشعبى . والجلسة على أى حال لم تطل كثيرا فقد أزفت ساعة الرحيل وبسرعة أقلعت القافلة وفقا لتوقيتها المحدد ، وتحركت سيارة الأجرة وتلفت القلب حين عجزت العين .

كانت بنغازى نقطة تحول بداية أخرى من بدايات الحياة ربما كان ذلك لحسابات خاطئة وتقديرات كان من الأفضل والأجدى لو لم يتم الأخذ بها فبحكم علاقة موروثة بدأ النشر عبر صحيفة الزمان وكان الموضوع متعلقا بذكرى معركة قارة عافية . إن الأستاذ عمر وشقيقيه أيضا لايخفون تعاطفهم وتقديرهم لدور البلدة في الجهاد المقدس كما يرفعون أصواتهم معلنين عمق العلاقة كان الجيل كله مشغولا بالانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى

بدت بنغازى قرية صغيرة كل الأحياء متواضعة كان يمكن أن تكون أكبر من ذلك نفسيا لو لم تتجه سيارة باكير صوب بوقرين في اتجاه الشمال مما جعل الأمكنة كلها لم تستطع أن تملأ العين أو تأسر القلب حتى الصابرى و الأقارب يستغربون كيف يمكن لمن يستطع أن يعيش هناك أن يأتي إلى هنا حتى زيدان

الذي التقيته هناك بعد أن افترقنا منذ سنين كان يستعد للرحيل إلى سبها التى بدأت فرص العمل تتاح فيها للبعض .

كان مقيما لدى ميلاد بالفويهات حين مر الشريف أمام المزرعة النموذجية متوجها إلى المدينة وبطلب من ميلاد حمله الشريف معه دون أن يتحدث عن أي شئ بالرغم من أن ميلاد قال له إن هذا ابن الشيخ لكن الشريف كان مشغولا بما يسيطر على تفكيره ولم يكد يفترق عنه وتمر دقائق معدودة حتى تناقلت الأنباء وفاة السيد ابراهيم على يد الشريف كانت إقامة الوإلى قد حددت قبل هذا اليوم وسط معلومات مشوشة عن مشروع يرمي إلى تأجير مزارع الجبل الأخضر للإيطإلى مرزوتي . كانت فرص العمل لاتمنح إلا لمن لديه بطاقة من مكتب الاستخدام إن الإجراء لايتجاوز العادى من الناحية التنظيمية إلا أنه كان لحداثته ملفتا للنظر الامر متصل بالإقامة ، والاقامة لاتمنح إلا لمن ولد بالمدينة لكن الإجراء نظر اليه كخطوة ترمى إلى ترسيخ الجهوية ، خاصة عندما شاعت حملات الترحيل المفروضة والتي كانت والعهدة على الراوى - تتم بمجرد أن يعجز المراد ترحيله عن نطق بعض الكلمات كما هي شائعة هناك لم تكن ثمة تجارة تذكر سوى بعض المواد التى تهرب من الجيش البريطانى بما في ذلك الوقود الذي تتم سرقته بالتنسيق مع السائقين من خزانات السيارات بطريقة يسمونها طريقة الحلب . إن الوقود معفي من الرسوم الجمركية فإن بيعه

للمستهلك سيكون بثمن بخس إن التسويق يتم بواسطة عناصر قادرة لقاء دراهم معدودة وبثمن بخس وكثيرا ما يكونون في هذه السلع من الزاهدين .

استقر الرأي بعد أخذ ورد على العودة إلى طرابلس وفي هذه العودة تمت محاولة اكتشاف عوالم المدينة بالكامل ومن خلال الشوارع الخلفية التي تميز المدينة عن القرية كما يتخذ من عوالم مختلفة وعلاقات ذات نكهة خاصة . عوالم روتها الكتب وتحدث عنها الكبار وحالت دون خوض تجربتها ذات مرة حداثة السن .

كانت الذاكرة تحمل شيئا عن شارع سيدى عمران وشارع الباز وجميعها مناطق حين بحث عنها وجدها لاتبعد عن بلخير لكن الحياة كانت عادية وليس ثمة ما كان يشغل باله موجودا هناك بعض الشوراع كانت مأهولة من الإيطاليين فجأة وجد نفسه في شارع الكندى لكنهم لم يكونوا ينطقون الاسم بهذه الكيفية وإنما ينطقونه بالإيطالية ربما ظنا منهم أن الكندى من عباد الله الصالحين ولايجوز أن يذكر اسمه مقرونا بذلك الحى وما يشيع فيه من ممارسات وكيف ما كان الحال فالناوى وما نوى ، ومن حام حول الحمى لحقه مالحق . كل الشوارع تحمل أسماء اعلام معروفين وكل من تحسس طريقه نحو المعرفة لا يجهل تلك الأسماء الرازى الإدريسى المازنى الخ . . .الخ

كان الدليل صديقه دافه الذي حل هنا منذ سنين طويلة

واستقر به المقام طاهيا بأحد المطاعم التابعة للجيش البريطانى وسط شارع العزيزية وعلى مرمى البصر من ميدان الشهداء وقد أمكنه بواسطة عمله هذا أن يضمن بالإضافة إلى المرتب توفير كمية من السلع الاستهلاكية شملت السجائر الانجليزية وبعض المشروبات فغدا بها يتميز من دون عديد الأقران الذين يحاولون ولوج تلك الأبواب فتحول دون آنيتهم تلك حداثة السن وضيق ذات اليد في حين يجد هؤلاء الأبواب مشرعة ، ذلك أنه كلما فكر في التوجه إلى هناك ملأ جيوبه بتلك السلع وربما حمل بين يديه محفظة اخرج منها بعد ذلك مالديه من هدايا يحرص دائما عى إنفاقها في سخاء صادق ، مما ساعده على توثيق العلاقة بتلك العوالم فلم تصدر مطلقا تلك الكلمة النابية

-بروا فروخ

كلما يجرى هناك يختلف عن الحياة التي الفها الجميع ، طريقة اللباس التعليقات النابية . «والغرامافون» يذيع الاسطوانات داخل البيوت وفي المقاهى والحانات والمحال المجاورة تبدو وكأنها منسوخةمن بعضها البعض فريد الأطرش يتربع على عرش أحزانه إسأل الفجر والغروب ...عبد الحليم حافظ يخطو خطواته الأولى : صافينى مرة وجافينى مرة ولاتنسينيش كده بالمرة ، صباح ، وشادية ، ونجاة وفائزة أحمد ، وغير هؤلاء كثير . الشريف يرتدى طربوشه ويعرض بضاعته وكذلك تعليقاته السفيهة والمشمومة على أذنه وقصصه الكثيرة التى

لاتسلي كثيرا عن عمره الذي ذهب سدى والدكاكين تتنافس على إذاعة الاسطوانات

عند الاقتراب من الباب كانت الخشية من حدوث ماحصل في اليوم السابق ، لكن الذي حصل أن دافة استطاع أن يمرق عبر مجموعة وبإشارة ما أمكنه أن يدخل هو الآخر بدا واضحا أنه مألوف لديهم وموضع معزة ، من جهته أخرج علبة السجائر الضخمة لعارفيه ، خاطب الخالة في المدخل باسم خالتي منوبيه في حين كان الحديث الأكثر احتراما نحو أمي فاطمة .أما صغيرات السن فكان الخطاب بكلمة أختي .

اتضح أن الاسم المجرد لاوجود له هنا فالكل خالات وأمهات وأخوات ولاعلاقة للألقاب بما يجرى خلف الأبواب الموصدة سلبا كان أو إيجابا حتى ولو كان الطرد هو المكسب الوحيد إذ لابد أن يخوض المرء اكثر من تجربة لابد ان يتحرى من توصف بسعة الصدر وليس أكثرهن تشددا وأشدهن إيثار أو بعثا علي الرغبة . خلافا للأسماء الحقيقية والأسماء المستعارة التي اقتضاها أسلوب العمل توجد ألقابا شخصية وقع الاصطلاح عليها وتم القبول بها والرغبة دائما شديدة

معظم الشباب لهم تجارب طويلة على مايبدو ،لكن المتفق عليه ألابدخل أحد خلف صديقه .كل عليه أن يخوض تجربته بنفسه وإلا يفشى سر ما جرى ففي حالة أى خلاف فإن الرد سيكون سيئاً للغاية وماذا يمكن ان ينتظر في حالة تفجر أى

خلاف سوى ان يرمى المرء بما حصل وبما لم يحصل !

عـــدد لابأس بـه من الـكبـــار يمرون من هنـاك دون أن يـقـــفل عليـهـم باب من الأبواب إنهـم يكتـفـون بـالحـديث والهـزل ثـم يقـفلون راجـعين الـبعض يرجع مـرور هؤلاء إلى عـلاقـات قـديمة وارتبــاط إلى الإنـسـانـيـة أقـرب والـبـعض يرجع ذلك المرور إلى ترتيبـات أخرى بعض الذين يـتـردون على باب الحرية يمرون هنا أيضـا ويدخلون في مناقـشـات طويلة تدل على عـمق العـلاقـة .هناك من عـاشت على مـا يبـدو وفي أكـثـر من مـدينة إحـداهن كـانت تعـيش هناك في ذلـك البـيـت الوحـيـد في زمن الاحـتـلال الايطإلي فهي تذكر أسماء بعينها الأسطى جداد ، الفقيه محمد الذين عرفتهم في زمن الشباب وارتبطت معهم بشكل وثيق

لم يـكفـه المبلغ الذى أخـذ ســوى أيام قليلة الأهل يقـدرون المصروف بـالقهوة والفطور فـما حـاجة المرء للنقود لـكن الأماكن تحتـاج إلى مبالغ خمسة عشرة قـرشاً في الشائع وأكـثر من ثلاثين في القليـل والزيـادة لامناص منهـا اذ من العـيـب أن يقــتـصـــر التسـديد على المقـرر وقد يكون التعـبـيـر بصغـر السن من ضـمن وسـائل الضـغط كانت اجرة العامـل لاتتجاوز السبعة عشر قـرشا . المرتب إن وجد في حدود ثمـانية أو عشرة جنيـهات او دنانير ، وقد بدأ لامفـر من اللجوء إلى العـمل . كـانت العودة من بنغـازى كـافـية لتأكـيـد هذا الخيار بمراجـعة بسيطة جرى التـعيين بجـهـاز الأشغال العامـة كانت الوظيفة بسيطة تمثلت في تسـجيل الصادر

والوارد ثم تطورت الي مشاركة في تحرير الرسائل إدارة الأشغال إيطالية بالكامل . وهي منقسمة بين فريق يدعو إلى التلييب وآخر يرى ضرورة التعاون مع الفنيين الايطاليين أصابع الاتهام اتجهت إليه كعنصر طارئ من الممكن أن يكون مزروعا من الناظر لمعرفة ما يجرى في القسم غير أن الحوار وأسلوب الصراحة أدى إلى تذويب هذا الشعور بل وسس بدلا منه شعورا مناقضا كان بداية لعلاقة إنسانية مع البعض وأفلحت أن تتعمق مع الزمن بيد أن المشكلة على الصعيد الشخصي كانت ماثلة في اتخاذ الموقف الحاسم ، فالانتصار للفريق الداعى إلى التلييب هو الخيار الأصوب لكنه سيخلق منه شخصا لابأسره المعروف ولايرد الحسنة بأمثالها . إنها ممارسات فطرية جبل عليها الناس في كل مكان حين كانت مشكلاتهم محدودة وقضاياهم لاتتجاوز اليومي فكان الكرم وكان السخاء فيما كان الموقف المناقض يعني التخلى عن قضية أكبر وأمر مصيرى لامبرر للتخلى عنه تحت أى ظرف من الظروف إذ يكفي أن أصحاب هذا الخيار كانوا دائما واضحين ويشار إليهم بالبنان كنوع من التوابع المناهضين للخيار الوطنى ومايزال عميقا في الوجدان منذ أن افلحت الجماهير وسط ظروف دولية مواتية ان تسقط محاولة «اسفورزا» الرامية الي محاولة الحفاظ على طرابلس عند طرح مصير المستعمرات السابقة في المحافل الدولية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية لقد كان أكثر المعبرين عن ضآلة الشخصية

وضعف الحس الوطنى أولئك العائدون من أشباه المهندسين الذين أمضوا تحت الملاك الإيطإلى المتحالف مع الفئات المتطلعة للكسب والاستفادة من مشاريع الصيانة ، بالرغم من ضآلة الامكانيات وحداثة الكيان السياسى .

أكثر الشخصيات الوطنية قوة كان الأستاذ بادي ذلك المحاسب المقتدر الذي يعرف كل الممارسات وكل الخبايا التي تتصل بتنفيذ العقود وكل التجاوزات وكل الشبهات التي تحوم حولها وهو لايكتفى بإلقاء ملاحظاته بشكل إداري رسمى بل إنه ينقلها إلى مواقف معلنة حتى أنه يخلط بين الخلاف السياسى والعلاقات الإنسانية كان يعتبر بعض المصاهرات تعبيرا عن ضعف الشخصية وهشاشة الموقف السياسى كما فعل مع الأستاذ عبد الهادئ الذي اقتضت علاقات القرابة أن يصاهر أحد الشخصيات المختلفة مع السعداوى فكان الأستاذ بادى يري في ذلك تخليا من الأستاذ عبد الهادى عن الخط الوطنى ولم يستطع أن يستوعب المسألة في حدودها الإنسانية ومراعاة أبسط القواعد التى لاتبيح أن يعاقب الابن بجريرة أبيه .

كان بادي يومئذ ينشر بعض الكتابات المكثفة بجريدة طرابلس وهي كتابات استقى مواضيعها على ما يبدو من ذلك الواقع الإدارى الذي كان شائعا ، حيث تكتشف الممارسات اليومية عن ازمة الأخلاق وانهيار المثل وضعف الشخصية لدى البعض وقد أفلح الرجل في انتقائها وتمثلها والتعبير عنها في

غموض محبب وإيقاع جميل ولفتات يمكن الوقوف عليها لكل ذى بصيرة

لم يكن غريبا فلقد سبق له إن حل بالمنطقة قبل الفترة بسنين طويلة بغرض تصفية ماترك الحاج محمود من بضاعة وتجهيزات في إحدى مخازن الشيخ التي كانت مؤجرة للأسرة وأقام معه علاقة متينة ومن ثم عمل في بلدية مصراته ووصف من قبل المتسرعين بالمترفع لكنه في الحقيقة كان شديد الاعتزاز بنفسه اما التعإلى فهو لايمارسه إلاّ تجاه من يستحق ذلك وهو موقف دفاعى في الغالب وربما يكون ضروريا لكن من الذي يستطيع أن يعدل في حكم صدر وإشاعة ترددت وشاعت مهما بذل من جهد قد يستغرق العمر كله وقد ساءت الأمور في الأشغال عندما أثيرت مسألة الصيانة بمجلس الولاية وتحدث البعض عن وقائع يبدو أنها قدمت من داخل الجهاز من حيث المبالغة في التقديرات والتساهل في التسديد وعدم مراعاة شروط التعاقد وفاحت بالتإلى رائحة استغلال النفوذ وأصبح في حكم المؤكد أن المعلومات قد سربت من بين العاملين داخل الجهاز ممن كانوا على قدر من العلاقات الشخصية مع الذين تحدثوا عن تلك الأوضاع في شئ من الصراحة والتحرش والجرأة مستهدفين بذلك المسهمين في الخطيئة والمتعاونين عليها والمستفيدين منها

ماتزال طرابلس غير ملائمة . وكان أكثر دواعي عدم

الملاءمة هذه متجسدا في السكن إذ كان من المستحيل أن يقبل المرء بالإقامة المؤقتة ومع ذلك العدد الكبير من الناس غير المستقرين في حالة ما إذا كان يريد الانطلاق إلى مواصلة التحصيل والتكوين الثقافى بهدف التعبير بواسطة الإبداع الشعرى او النثرى فإذا ما وضع في الحسبان ان الإقامة بهذه الكيفية تعتبر من قبيل الإحسان الذي يتعذر قبوله لكل من يتطلع للقيام بدور ما تجاه الواقع المحلى والوطنى مما جعل التفكير في الاستقالة والانصراف إلى العمل الحر يبدو أكثر إلحاحا وأدعى إلى أن يغطى الأولوية

وقد توالى في هذه الفترة ذهاب الكثيرين إلى الجنوب بهدف الإقامة هناك والانخراط في السلك الوظيفى الناشئ.الشباب دخلوا سلك التعليم وبعض الأسماء المعروفة استلمت مراكز قيادية مكتب الوإلى المجلس التنفيذى التجارة الخارجية حتى لقد أصبح الماثل لدى الجميع أن معظم المراكز التنفيذية به قد انيطت بذلك الثلاثى المتناقض في كل شئ وصار القوم هناك لايتحدثون إلا عن هذه الظاهرة وكان ذلك يتناقل ويثير تعليقات القوى النامية هناك والمختلفة مع السلطات والتي رأت في تدفق هذه المجموعات ما يهدد ويقوى من قبضة السلطة كما أن السلطة من جهتها وفي إطار الخطط التي تدفع إلى اللعب بأكثر من ورقة والتحرك في أكثر من سبيل لم تكن حازمة بما فيه الكفاية رغبة أو اضطرارا مما جعل العناصر ذاتها تدخل في دوامة

الصـراعـات وتواجـه أكثـر مـن ضـغط وتقـع فـي النهـاية فـي شـرك الخـلافـات المتـتـاليـة فكان الـسـحب وكـان النـقل وكـان الفـصـل التـعـسـفى ، بـحـيث توالت الإجـراءات التي اثـبـتت ان سـهـولة الدخـول تضـاهيـهـا وبشكل أسـرع سـهـولـة الخروج كـان لهـذا التطور أثـره في مـواقف المجـمـوعـة ذلك أن المجـتـمعـات الصـغـيـرة شديدة الارتبـاط ببعـضـها والتأثير في بعضـهـا ، خاصة حين يكون الامـر مـتـصـلا بالسلطة ومـجـسـدا لممارسة ظالمة . ان ردة الفعل كثـيرا مـا تقفـز للتاريخ وقد تذهب إلى توظيفه وتخريج مـواقف شـبـيـهـة منه . وقـد اختلفت مـواقف العـناصـر الموجـودة هناك من مسـرف في الخـضوع وملتـجيء للقضـاء ومع اللجاجة في القـول وذى منزلة بين المنزلتين في حين كـانت الـقـوة الحـيـة الـنـاشـئـة في البلدة مستنكرة لمبدأ الانتقـام حريصة على مناصرة كل من لحقه الاذى ولو بعدم استهجان موقف التقاضى .

وقـد تزامنـت هذه الأحـداث مع قـرب إجـراء الانتـخـابات النيـابيـة الثانيـة التى تلت الإحـصـاء العـام للسكان فبدأ التـفكيـر والاسـتـعـداد وتبلورت وجـهـة نظر تقـوم على ضـرورة خـوض المعـركة مهـما كـانت الظروف إذ كـانت الاحتمالات كلها تؤكد أن المنطقـة سـتكون دائرة لوحدها ولن تربـط مع أى جـهـة أخـرى كـان هناك قلق من أسلوب المراوغة الذي دأب البعض عى نهجه وذلك بإظهـار عدم الـرغـبة من نـاحـيـة والعـمل عليـهـا من نـاحـيـة أخرى فـضلا عن استـهجان فـكـرة الاستخـلاف ومبدأ فـرض الأمر

الواقع لاسيما بعد أن ظهر في الأفق ميل نحو المشاركة من قبل بعض الذين عملوا في الجنوب والصقت بهم تهمة المساهمة أو التأييد لبعض الاجراءات القسرية التي اتخذت هناك كما أعاد إلى الذاكرة أساءات قديمة وكان هذا بتأثير الشباب والإنصات لنداء الهوى المخالف للعقل الذي يوجب طي كل الصفحات القديمة وعدم التوقف أمامها فليس من المصلحة أن تثار أمور مضى عليها ما يقرب من عشر سنوات واكثر وتمت تسويتها بطريقة أو أخرى وتوفير الجهد لما هو أجدى واقرب إلى الواقع

سارت الأمور كيفما شاءت لها الأقدار فانسحب من انسحب وتقدم من تقدم ووقع البت في المعركة من أقصر الطرق حيث كانت الطعون هي السيف المسلط وبالذات في حسن القراءة والكتابة اذا أن مبادىء القراءة كانت في الغالب من الكتاتيب وليس ثمة شهادات تمنح والصفة الغالبة هي عدم اتقان القراءة والكتابة وهو وتعبير يكتنفه التعميم لقد كان موضوع الموقف بين التبعية الإدارية المطروحة هو المحرك إذ رأت سلطات المقاطعة ان يحال بين من يعمل خارج ولاية طرابلس أولا يقيم إقامه دائمة بها ومن يكون مساندا من القوى الساعية إلى تغيير التبعية الإداريه . أو مجهول الموقف تجاه مسائل كثيرة فأدى ذلك إلى فوز البلدة بالمقعد فكان هذا الإجراء بداية لتحرك أكبر ومساع أوسع بحيث طرحت فكرة الرغبة العامة للسكان هى كبداية للتحرك وهكذا اوجد الذين لم يحققوا رغبتهم

والذين لم يصادف المخطط هوى في نفوسهم والذين لهم علاقات تاريخية والذين لهم مصالح قائمة وأخرى منتظرة ضالتهم المنشودة ، فتبنت التعبير عن رغبة التغيير صراحة وعلى مرأى ومسمع من الناس وفي غياب واضح للسلطة المحلية ، بحيث لم يحرك أحد ساكناً وهو يشاهد الإعراب عن الرغبة المناهضة للسلطة المحلية يعلن في رابعة النهار . لا لأن هناك من يحترم الرأى ويتحرج من التضييق على الناس وإنما لأن الأمر لايعنى سلطات طرابلس لحسابات أخرى بعضها يتصل بمجمل مراكز القوى وبعضها يعمل في اتجاه الحد من اتساع الرقعة في مكان والدفع بها نحو مكان آخر . ومما لاجدال فيه ان الوالي بالذات قد اختير كشخصية ضعيفة وذات مصالح لاحدود لها مع مراكز القوة ومصادر القرار ، لايهمه بأى حال من الاحوال ما يراد اقتطاعه من طرابلس فهو بحق مناقض للرجل الذي أنيطت به هذه المسئولية في بداية الدولة الحديثة في الخمسينيات عندما دعا بمناسبة عيد الفطر مجموعات من الموطنين من لقبوا بالأعيان ومن بينهم مجموعة من سكان المنطقة وقال أمامهم جميعا وفي حزم واضح

- الولاية غير مستعدة للتنازل عن شبر واحد من أراضيها

فكان قوله هذا تحذيرا للجميع ورسالة موجهة إلى مختلف الجهات . أما الآن فإن الموقف مختلف تماما إذ لايوجد سوى التردد والتهاون وعدم الاكتراث باى شى بدعوى أن الرغبة

الشعبية هي الأساس في حين كانت الاتصالات والاجراءات كلها في اتجاه تمرير اللعبة والدفع بها يوما بعد يوم

ولا غرو فجميع الذين لم تصقلهم التجربة الداخلية ولم يتبلور لديهم مفهوم الوطن بما فيه الكفاية والذين طبع تفكيرهم التشرذم والتعويل على الأشخاص يكون تقييمهم للأمور منطلقا من حسابات شخصية وقد كشف عن ذلك الحوار الذي أثير بمجلس الولاية حول صيانة بيت ذلك الوإلي والذي أدى في النهاية إلى إقصائه من موقعه ولكن بعد أن نفذ المخطط بالكامل .

أعلن في هذه الفترة عن امتحان لشغل بعض الوظائف بمجلس الولاية أولا . والمحاكم ثانيا . وبالرغم من عدم الاستقرار في موضوع الإقامة من حيث البقاء في المدينة أو العودة فقد أمكن ولوج باب الوظيفة مرة أخرى من خلال التقدم لتلك المسابقة ، ومن ثم العمل في الإدارة التشريعية . كانت الدرجة المعلن عنها هي السادسة حسب ملاك ذلك الزمان والذي يقوم على النظام العكسي القاضي باعتبار أهمية الدرجة مقرونة بتناقص الرقم إذ تكون الأولى أفضل من الثانية وهذه أهم من الثالثة وهكذا .وفيما كانت الإجراءت تتخذ الاستلام العمل، أمكن اجتياز امتحان المحاكم وبترتيب جيد للغاية (الثاني على مستوى الولاية) وكان ذلك في إطار التفكير في العودة إلى القرية والإقامة هناك لكن نصيحة ساقها مدير العدل المرحوم

الطاهر الشريف مفادها أن من وجد درجة أكبر يخطئ تماما حين يقبل العودة إلى الخلف وأن المستقبل دائما للمدن وأن على المرء دائما ان يتفاءل بالتقدم إلى الأمام

رجحت لديه فكرة الحاج الطاهر وبدت بوادر أزمة السكن في الحل عندما أمكن الحصول على بيت في مدخل المدينة القديمة (شارع سيدى عمران) وقد شكلت هذه الخطوة تطورا غير عادى فلاول مرة كان السكن بدون وصاية وأمكن تسهيل مهمة الأهل أيضا في هذا الصدد وبدت خياراتهم التجارية والسياسية حرة بالنسبة لشؤون المنطقة إذ إن حاجتهم إلى من يساعد في المدينة كانت حائلا قبل هذه الخطوة كانت التيارات كثيرة والصدام لايتوقف وبالتالي فقد كان لتحرير الحاجة أثره الواضح والكبير .

على صعيد أكبر بدأت أول محاولة اعتراض شعبية جمعت بين التعبير عن الضيق بالاتفاقية الأمريكية التي مررت وعرضت على القنوات خارج مدينة طرابلس في وقت سابق وكان التجاوب مع الخطوة إلى اتخذت في مصر بتأميم شركة قناة السويس بالإضافة إلى اشتداد المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسى ومارافق هذه الخطوة من توجهات سياسية استهدفت كسر احتكار السلاح ومقاومة الأحلاف وحاول بعض الوطنيين ان يدعو لهذا التوجه السياسى المتطور واختاروا أن يكون منطلقهم من المسجد . وقد تمثل ذلك في خطاب سياسى

القاه بمسجد أحمد باشا وعقب صلاة الجمعة مباشرة وجه وطني له حضور في التاريخ النضالي كثيرا ما ظهرت أخباره في الصحف عند طرح القضية الليبية بالمحافل الدوليه ثم ما لبث أن اختفى بعض الوقت وإذا به يظهر في ذلك الظهر في تلك الجمعة الشهيرة كان رجلا نحيف الجسد أبيض البشرة طويل القامه شديد الأناقه يتحرك بطريقة ذات تأثير واضح

لم يترك للمشاهدين أن يحاروا في معرفته فقد بدأ بكلمات محددة :

« رب قائل إن علي رجب قد رجع للسياسة . . .وأخذ بعد ذلك يتحدث في شئون كثيرة شئون كانت ملحة وشديدة الحضور والخطورة وأكثر إثارة لتفكير الناس وأدعى لجلب اهتمامهم كانت القضايا واضحة والتناول جيدا والقدرة على لفت اهتمامهم وإثارة حماسهم جيدة وقوية بحيث لم يكد الرجل يفرع من حديثه حتى خرجت الجماهير الغفيرة في مسيرة عارمة تشق شوارع المدينة من أقصاها إلى أقصاها استنكارا للموقف الاستعماري الآثم تجاه الجزائر وتجاه مصر وللممارسة الليبية الرسمية وممارسات حلفائه .

كان الموقف متمثلا في مجموعة من الهتافات المدوية دأبت الجماهير على ترديدها وهي تشكل صفا خلف صف في طوفان بشري عارم فبما ظل هو هو مترددا أمام هذا التطور المذهل ولم

يستطع أن يمضى مع تلك المسيرة العارمة لينفذ بجلده ويفرع نفسه لاستلام عمله ويذهب إلى البيت الذي لم يمض على فتحه سوى ايام معدودة فطريق العمل في هذه المسارب محفوف بمخاطر كثيرة ومن الممكن أن يكون أى تصرف محسوبا ومثيرا لشماته بعض الأطراف اذهل يستطيع أحد أن يتبنى موقف المناهضين في كل مكان وهل يستطع أن ينجو من إحدى الضربات التى قد تقع على رأس المرء في غفلة وعلى رأى المثل :

– من بيك ياداير الليل . لقد قفزت الجملة من الذاكرة التي ملئت بعديد التوصيات عند الرحيل من هناك لأول مرة من الممكن المضي بين الجموع ولا أحد يعرف ، ومن الممكن الذهاب إلى البيت ولا أحد آخر يعرف ، فالجموع سائرة والمسألة تحتاج إلى أن يحدد المرء ماذا يريد ؟

وقد بدا الرأي من الصواب أن يحرص على تحديد القدر الأدنى من الاستقرار ويعتبر ذلك من أولويات المستهدف ، كانت الحياة السياسية راكدة إلى حد كبير ، وإن كان موضوع الاتفاقية الأمريكية قد حركها بعض الشيء ما يجري في الوطن العربي هو الآخر بات يؤثر ، غير أن القوى المحركة كانت مترهلة للغاية بالنسبة للأمور التقليدية . أما البديل فلم يحدد على مايبدو أي رقم ، كان التحدي يتم من قبل رموز معروفة ، ربما لأن الطبقة العاملة هي القاعدة الاساسية لذلك التحرك وهي طبقة تفعل أكثر مما تقول

والخطاب السياسي مهم وبرنامج العمل ضروري صحيح إن اسئلة الواقع واضحة والمطالب العامة معروفة ، لكن التخطيط من المسائل المهمة والضرورية .

لقد كانت القاعدة الأمريكية موجودة قبل الاتفاقية التي أبرمت في ذلك الزمن وكان الجنود الأمريكيون يملأون المدينة ومن الشائع أن يراهم الإنسان يرتادون عديد الأماكن التي بدأت تتكون وتعتمد على إنفاقهم السخي ، فهي تعيش عليهم دون غيرهم ، وهم كذلك يشكلون ظاهرة. ازياؤهم مختلفة سلوكهم مختلف ، بالرغم من أن لغتهم انجليزية كبقية الإنجليز ، ويشبهونهم إلى حد كبير من حيث الشكل لكن جلوسهم على كراسي المحال العامة في رواق ديبونو (الكرامة حاليا) حيث يحرصون على وضع أرجلهم فوق المناضد يلفت إليهم النظر في الغالب ناهيك عن إطفاء عقب سجائرهم في صحون الشاي والقهوة .

أماكن كثيرة كانت تصبح بهم وبغيرهم من الناس ، وفي الغالب تحدث بعض التحرشات معهم. كان الاشمئزار من السلوك الامريكي بالغ الحد والضيق من الاتفاقية الامريكية شديد الكل يقول إنها أسوأ من الإنجليزية والكل يقول بصدد أي اجراء يتخذ حول أي مسؤول من المسؤولين إن له علاقة بالاتفاقية الأمريكية .

كثير من الناس لايخفون تبريرهم النسبي لما جرى مع

الإنجليـز ، ولكنهم لايجدون أي مبـرر لما تم مع الأمـريكان ، ولا يستنكفون من إعلان امتعاضـهم وتبرمـهم لهذه الاتفاقـيـة ، فـالإنجليـز ووفق هذا المفـهـوم سـاهمـوا فـي طرد الطليـان أو أن الظروف الاقـتـصـادية أملت بشكل أو آخـر ضـرورة الاعـتـمـاد عليهم ، لكن ماذا يمكن أن يقال بصدد الأمريكان .

لكن الفترة في الحقيقة كانت فترة أمريكا ، بالنسبة للشرق الأوسط ككل ، فهي الوريث الشرعي للاستعمار الغربي الذي تمثلة كل من فرنسا وبريطانيا . كلاهما تنسحب لصالح أمريكا بما في ذلك بعض معارك التحرير وبعض الانتصارات كانت في حقيقـة الأمـر تقوم بإفسـاح الطريق للنفوذ الأمريكي القادم ، حـتى فكرة تعديل النظام الاتحادي او تقليـصـه كانت في واقع الأمر مشروعا أمريكيا ، فقد كانت امريكا تهدف إلى قيام انظمة قوية تحاول أن تستفيد من ممارساتها من حيث لاتدري .

ومن هنا كانت الدعوة التي تبنت فكرة توحيد الجهود تاتي متزامنة مع ابرام الاتفاقية الامريكية ومع توقيع عقود الامنياز النفطي مع الشركات الرأسمالية الامريكية صاحبة الحظ الأوفر في التنقيب عن تلك الثروة ، وكان ما نشر تحت عنوان المجالس التشريعية لا فائدة منها بمثابة التحذير للعناصر الوطنية التي وجدت مجالها في تلك المجالس كيما تعيش حالة من الرعب ، حـيث جـرى تهـديدها بشـعـار الوحـدة في حين كـان الهـدف الحقـيقـي هو الحد من وجـودها داخل الأجـهـزة ومـحاولة تقزيم

دورها ما أمكن التقزيم .

إن اللعبة لم تنطل على عموم العناصر الواعية يؤمئذ فلم يجصل بالتالي أي تجاوب مع تلك الكتابات ولم يترك إثارة الموضوع أي صدى في الأوساط الشعبية لقد كانت الثقة في واقع الامر منعدمة بالكامل .

كانت طرابلس تمثل مسرح الأحداث ، كان قد حل بها في مشروع إقامة طويلة وإن يكن غير منفصل عما كان يجري هناك بل لعله مايزال إلى ذلك أكثر عنفا وأشد تأثرا وتفاعلا ، وكان دوره كذلك أكثر تاثيرا .

كانت لديه صورة عن المظاهرات التي انطلقت في أنحاء كثيرة من الوطن العربي اعتراضا على الوجود الأجنبي ابتداء من حادثة دنشواي التي خلدها مصطفى كامل ، ووصولا إلى تحرك المواطنين ذات يوم هنا فتلك التي ملأت المدينة عند طرح المصير الليبي ، ثم أثناء تزييف الإرادة الشعبية عندما كانت السجون مصير جماهير المؤتمر الوطني والكتلة الوطنية الحرة وجمعية عمر المختار وغيرها من التنظيمات الشعبية ولهذا فإن الإحجام عن المضي خلف المسيرة والإسهام فيها ، لم يَحُلْ دون سؤال بدأ يتكون وبالأصح يواصل بداياته القديمة .

9

تليست القنونية التي ترتاد كل البيوت وتسهم في إحياء أفراح الجميع أيضا وبلا استثناء سوى امرأة ذات حس فنى عال ، ونفس كبيرة لا تنهزم أمام الزمن وأهواله والفقر وذله واليتم ومخاوفه والأيام وفواجعها .

وآية ذلك أنها لم تكن مرتزقة بتلك الهواية المتمثلة في حب الغناء لدرجة العشق والحماس للطرب بلا حدود فهى تبدو دائما متحفزة للجلوس إلى الطبل لتسوق من مقولها ومنقولها دائما وأبدا غناء معبرا عن العمر وتقلباته والمعارك وتاريخها والخلافات الحادة التي جرت عبر الأيام وتركت بصماتها على حياة الناس ولونت مواقفهم الكثيرة ، حتى لقد بدت في الغالب غير ثابتة وغير صامدة بما يجب .

لقد واجهت حياتها محرومة من كل قريب غير مرحومة أو معذورة أو مساعدة من أى بعيد منذ أن اغتال الردى اشقاءها في معارك الجهاد الأولى وحط غراب البين بأبناء عمومتها عندما يمموا وجوهم شطر الجنوب فعدوا لسنين طويلة في عداد الأموات .

لقد كانت أغانيها المبتكرة سجلا صادقا لما جرى وتعبيرا دقيقاعما كان يجرى .. وكان ذلك يتم وفي أحيان كثيرة على

السجية ودونما تكلف أو تفكير وكان معينها على ذلك عمق اطلاعها واتساع تجربتها وسرعة البديهة التي تنطلق منها في ذلك الواقع المعاشي الصعب الذي تعاملت معه بالصبر ، وذلك الزاد الوافر من التفاؤل حين كانت البسمة لا تفارقها أبدا حتى وسياط نائب عريف الشرطة تجلد صغيرها ولم يحرك له أقرب الناس إليها ساكنا بالرغم من أن الأمور كانت بين يديه .

لقد كانت ترتبط بعلاقات الخؤولة مع معظم السكان كان زوجها الثاني أو الثالث أبوأحمد الذي أنجبت منه أحمد ، على كبر ، آثر ان يقطن معها في بيت الزوج السابق الذي ترك لها ابنا برًّ بها عرف طريق السفر مع والده وهو في بداية العمر فعرف تقاليد المدن تجاه الموتى وقام بوضع أول لوحة مكتوبة على شاهدة قبر والده إذ كانت العلامات قبل ذلك تتم من دون كتابة واطلق عليه بالتالي قبر الابن الصالح ، ويتحدث عن أفضاله بالمجالس وترفع القنونية صوتها لتغنى بكلماتها الجامعة بين الدعاء والأمل

ياصالحين ارعوه لاهو دعي من أمه ولا من بوه

وأبوأحمد في الحقيقة ليس مغاليا ولا مجافيا للواقع حين ينعت ربيبه بالابن الصالح بأي حال من الأحوال فقد نهض بمسؤولية إعالة الأسرة وهو في بداية العمر ، ليس فقط من محصول التمر وهو المنتوج الأساسي للمنطقة والذي ورث منه الابن الصالح الكثير والكثير بل وبدخله من قوة عمله البسيط

المتمثل في بيع الخبز والبيض المسلوق للعساكر الطليان ثم من عمله في البناء عندما حل بطرابلس في العشرينيات وصار يشتغل في مواطن عمل كثيرة ، حتى كان الذهاب إلى المناطق الشرقية حينما ساعده الفقيه عبدالواحد على العمل في مجال التجارة من خلال بقالة صغيرة بمدينة المرج الناشئة وهى البقالة التي تحولت الى ملتقى يضم كل الناس المعروفين هناك من المستخدمين الذين كانوا يعملون مع الإيطاليين في شؤون الخدمات الإدارية والمرافق العامة ودائرة النفوس أولئك الذين أصبحوا فيما بعد يشكلون الركيزة الشعبية القادرة والتي مالبثت أن أفلحت في إثبات وجودها والدفاع عن وافر مصالحها محققة من السمعة ما طاب ومن المنزلة ماعلا .

لقد امتلك الابن الصالح جاذبية خاصة وواضحة للغاية فهو من الذين لا تفارقهم البسمة ولديه رصيد لاينفد من الحكايات النادرة أضفى عليها حسن روايته وتاتأته المميزة حين يتكلم طعما خاصا ووقعا مميزا مهما بدأ على بعض مايقول من ملامح الخيال .

لقد أتاح له المكان فضاء ملائما للتحرك وعبر التنقل بين أضاحي الشرق والجنوب حيث كان يرفع العسل في اتجاه الجنوب ويورد التمر في اتجاه الشرق وكذا الإنفاق على من يستحق فاكتسب الابن الصالح مكانة مرموقة لدى الجميع ، الجيل الذي سبقه وجد فيه الرجل صاحب المبادرة المستمرة

والذي ينتمي إليه وجد فيه حلقة الوصل الجيدة فكان وجوده ضرورة ملحة لكل الأجيال .

إن القنونية أيضا بما وفر لها الابن من الطيبات من الرزق وما جبلت عليه كذلك من الكرم ، لم ينل منه النقيض الذي عليه أبوأحمد باعتباره مجرد ضيف بالبيت من حيث الملكية ومن حيث التزام الابن الصالح بالإنفاق وتوفير جميع اللوازم إن كل ذلك جعل من البيت ملتقى لعديد الرجال كلما وصل الابن الصالح للمنطقة لغرض السلام عليه والتحدث معه وما يزف لهم من التحيات من أسماء كثيرة ناهيك عن مصالحه التجارية ومشاركاته الاجتماعية التي لا تعرف التوقف ، أو الزيارة للقنونية بقصد المجاملة والسؤال عن الابن الصالح والتخفيف من ذلك الفراغ الناشئ عن غيابه ولقاء تلك السيدة وليس معها سوى الابن الصغير وأبواحمد الذي لا تشغله في حقيقة الأمر سوى نفسه ورغبته المستمرة في الأكل ، فالبيت ملاصق للجامع العتيق الذي يصلي الجمعة فيه الجميع وتلحق به الزاوية التي تقرأ بها سورة الكهف في ذلك المساء .

فالزيارة دائما واجبة وربما هي بالنسبة للبعض تصل إلى درجة السُنة التي لامناص من إحيائها منذ أيام ذلك الوالد الراحل إن الشعراء من ذكور وإناث موضع اهتمام الجميع وفاء ورعاية وتعهد والقنونية شاعرة تنشد وتلقى وتجيد في الاثنين خاصة حين تنزل كائنة من الكائنات أو ملمة من الملمات .

ومع أن الابن الصالح قد اقترن بابنه عمة وأنجب الأولاد من ذكور وإناث وخلد أسماء الأهل والأجداد ونقل الوالدة حين بلغت من العمر عتيا وأسكنها الى جانبه واستطاع أن يجد سبيلا لإدخال أخيه في ملاك الوظيفة وظل هو يوالي نشاطه التجاري وضرب في الأرض شرقا وغربا قاصدا الإسكندرية وتونس مرات ومرات حتى تكون بصدده مفهوم مفادة أنه لا ينشد من سفره التجارة وحسب حين لم يستطع تكوين أى رأس مال ولم يقلع عن عادة السفر في ذات الوقت ، بمعنى أنه حسب هذا المفهوم ينشد الفسحة أكثر من التجارة إلا أنه منذ مطلع الخمسينيات سلك طريقا آخر اختلف عن الماضي تماما وذلك عندما حل بالمنطقة مرفوقا بعدد من الرجال وفي مجموعة من السيارات قاصدين يومئذ ضواحي إفريقيا انطلاقا من تشاد فقد قيل يومئذ إنهم نقلوا تجارة ضخمة لقد كان ذلك عقب إجراء اول انتخابات نيابية حين أقدمت سلطات مقاطعة مصراته على التدخل السافر تجاه المنطقة بقصد ضمان الفوز لحسابات جهوية في الغالب .

لقد بقى ركب الابن الصالح يومئذ بضعة أيام مما أتاح فرصة شحن بطارية المذياع الوحيد الذي ظل لفترة متوقفا لعدم شحن البطارية وأمكن الاستماع إلى الاخبار والارتباط بالعالم من خلال ذلك الرباط الوحيد ، فالمنطقة حرمت من الكهرباء منذ سنوات حين أقدم الانجليز على سحب محرك الكهرباء الذي

كان الأول من نوعه الذي أضاء البلاد الليبية .. كانت الأخبار في تلك الأيام متضاربة عن أحوال مصر السياسية ومظاهر أزمتها تبدو من تعاقب تشكيل الحكومات التي كانت كلها من أحزاب الاقلية السياسية بمجرد أن أقيلت حكومة النحاس التي ألغت معاهدة 1936 وبدأ تعاقب حكومات الأقلية التي لم يقبل بها الشعب المصري بالرغم من كل المحاولات إلى إن أعلن في ذلك المساء البيان الذي أعلن فيه عن تنازل الملك فاروق ومن تم التنازل ذاته كان البيان بصوت غريب وكلمات مقتضبة شرع النابهون بسرعة يحللونها ويقلبون أوجهها المختلفة فالناس في الصحراء يشبهون إلى حد كبير سكان السجون ليس لهم من شئ محبب مثل الإغراق في التحليل والتخريج الذي قد لايقف عند المعطيات القائمة بقدر مايسرف في تحليلها .

وقد مكث الابن الصالح مع المجموعة التي حل معها لأن البيت لم يعد صالحا للسكن وقد روى لمجالسيه الكثير عن فاجعة جعودة الذي فقد زوجه وهى في عز الشباب مما جعل الشريف عبدالله يصوغ مرثية مؤثرة ربط فيها بين مأساته حين ماتت أم البشير وأمسك الشريف عن إكمال نصف دينه من جديد حرصا على ابنه من حيف امرأة أخرى قد لا تعطيه حقه ولا توفر له ما يحتاج إليه من حسن الرعاية وموفور العطف مما جعل الشريف يتولى واجبات الأمومة والأبوة نحو ذلك الولد حتى لقد نشأ البشير نشأة مختلفة عن الجميع فكان أشد الأطفال

حركة وأكثرهم جرأة كما لو لم يكن ابن ذلك الشريف الطيب، فكان معظم الأطفال يعتقدون أنه أحد أبناء الجندرمة الذين طالما اتخذوا من مراكز آبائهم سبيلا للتسلط على عديد الأطفال وبالذات عندما يكون ثمة ما يدعو لإشاعة بعض الظروف غير العادية. لقد كانت أشعار الشريف عبدالله من أجمل القصائد التي صورت لواعج النفس المكلومة لفقد الحبيب الأول الذي يظل فراغه شاغرا أبد الدهر .

ومن المؤكد أن قدرة الشريف عبدالله على تمثل التجربة المريرة التي تعرض لها جعوده وهو المعروف بميله اللامتناهى لعوالم الشعر واضطلاعه بمسؤولية الزراعة في المرج وما ينتج عن ذلك من توفير أرقى أنواع عسل المرج الشهير من الأسباب القوية التي وفرت الدعوة من قبل الابن الصالح للشريف كي يكون ضمن ذلك الفريق الذي اتجه صوب أدغال افريقيا في رحلة كانت مثيرة ومحببة في ذات الوقت بالنظر للأحوال الاقتصادية السيئة وحاجة الكثيرين لمثل هذه الفرصة السانحة.

إن الرحلة طويلة وصعبة وتحتاج لمن لديه القدرة على الحكي وحسن المعاشرة وخفة الدم وسرعة التحرك مثل الشريف عبدالله فضلا عن القدرة على قيادة السيارة مع إصلاح أى خلل كثيرا ما يطرأ أو يحول دون مواصلة الرحلة مالم يوجد الميكانيكي القادر ولكن الابن الصالح كان في مقدمة الذين وثقوا علاقتهم بعبد الجليل وابن عمه يوم أن عادوا من المهجر

والمهم ماحلق بالمنطقة من المظالم ممن بادروا بإمضاء مذكرة موجهة إلى الجهات المسؤولة ترمى إلى تغيير التبعية الإدارية للمنطقة من طرابلس إلى فزان بحجة إن العلاقات التاريخية وتقارب العادات والمسافات تشجع على المضي في مثل هذا التوجه وهو مطلب لم يؤخذ فيه رأى القاعدة الشعبية ولم يراع فيه مبدأ الشرعية التي تقتضى أن يكون طرح الأمور المصيرية الخاصة بمستقبل المنطقة معتمدا بالدرجة الأولى من أولئك المقيمين داخل المنطقة ذاتها وليس من المقيمين خارجها وإن كانوا خيارا من خيار كما هو الحال بالنسبة للابن الصالح .

لقد كان ذلك الموقف تعبيرا عن رفض ماحلق بالناس من الغبن حين فرض عليهم من ليس منهم ومن لم يكن لفرضه من مبرر سوى ما شاع من استغلال العناوين السياسية لتحقيق المآرب العشائرية غير أن العقلاء من القوم كانوا يفضلون عدم الإقدام على طرح مثل هذا الموضوع المصيري قبل الرجوع إلى القواعد وكذلك استطلاع وجهات النظر التي من المفروض أن يدلى بها بكل شجاعة ووضوح أصحاب الحل والعقد وليس من المقيمين في بنغازي والمرج أو غيرهما من المدن الليبية خاصة أن الموضوع قابل للاختلاف كما حدث بين ناس كانوا لفترة قصيرة بمثابة حلفاء العمر .

واصل الركب رحلته تلك إلى ضواحى افريقيا انطلاقا من تشاد وتواترت أخبار كثيرة وقصص مشوقة ونماذج شعرية

جميلة كثيرا ما ألقيت من البعض في الأعراس التي توالت عقب تلك الرحلة المتزامنة مع بعض الانتعاش الذي طرأ على الحياة العامة ، إلى أن تمكن الركب من العودة وقفل الابن الصالح عائدا من حيث آتى وتحديدا بنغازي التي نزح إليها من المرج إلا أنه بمجرد الاعتداء الذي حصل على الدكتور حسين كلستانة ذلك الطبيب المعروف وما نجم عن ذلك العدوان من تحقيق مع الكثيرين ومن بينهم عبدالقادر أحد أقارب الابن الصالح وارتباط ذلك كله بالنشاط البهائي الذي تحدث عنه كثيرا الشيخ شاهين عبر أعمدة الصحف وما وقع التوسع فيه من تحقيق شمل الجماهير والمسؤولين على السواء وماران على الحياة العامة من فتور وتخبط وردود أفعال متضاربة عقب حادث الشريف وروح الانتقام الذي ساد وانتقال معظم الذين كانوا يرتادون البقالة الصغيرة التي طالما جلس فيها الابن الصالح محفوفا بعديد الأصدقاء من الذين أخذت مسؤولياتهم تكبر شيئا فشيئا وتعذر عليهم من ثمة أن يستمروا في بنغازي كل ذلك ادى به إلى التفكير في الانتقال الى طرابلس التي غدت تستقطب الأنظار أكثر فأكثر .

ولما كان أحد رفاقه في تلك الرحلة (السيد الطاهر) قد استلم رئاسة مجلس الولاية وتحصل على مجموعة من التوكيلات التجارية وعديد المحال فقد كان تحقيق رغبته في الانتقال متيسرا كل التيسير إذ لم يكد يطرح رغبته تلك حتى

كانت مبادرة ذلك الرجل الطيب بتخصيص المكان واقتراح النشاط والعمل على تسهيله في سرعة البرق فقد وفر له مكانا بسيط الإيجار وسعى له في دوائر الاحتكار للحصول على رخصة لبيع السجائر بالجملة مما يسر له الحصول على دخل ثابت ودون الالتزام برأس مال كبير والخروج من دوامة الفواضل «والموديلات» والتالف كما هو الحال بالنسبة لتجارة الملابس أو المواد الغذائية أو المنزلية اذ لايعد الأمر وان يضمن المرء مجموعة من المحال التي تستهلك لتأخذ ما تحتاج إليه وتوفر العمولة المحددة من الشركة بالأساس ولأن هذا النوع من النشاط يعتمد على العلاقات وهي متوفرة ويمكن تطويرها بفضل أولئك الرجال الذين تحلقوا حول الابن الصالح وأهمية الموقع وقد كان في شارع عمر المختار وبين أعداد كبيرة من المقاهي ومحال القطاعي فقد أمكن للمشروع أن يحقق أحسن المردود ومنذ الأيام الأولى من تأسيسه .

وهكذا فبين يوم وليلة تحول المكان الصغير الكائن بإحدى زوايا شارع البيضاء ليشكل ملتقى من أهم الملتقيات بالمدينة فكان لتلك العلاقات الناتجة عن تردد عديد العناصر وأشهرها أكبر الأثر في جلب مزيد الزبائن ومن الشركات العامة تحديدا تلك التي وجد أصحابها ضالتهم في التردد ونسج أوثق العلاقات وقضاء أصعب المصالح وطرح أعقد المشكلات من ذلك اللقاء المتيسر والذي ما كان له ان يتم لولا وجود الرجل ،

وتعيشه من ذلك النشاط الخدمي الذي يمكن وصفه بالسهل الممتنع .

لقد كان الرواد جميعا يتكونون من حديثى العهد بالمدينة الذين جاءوا بحكم العمل في دواوين الحكومة ومن مستويات وظيفية متقدمة في حاجة إلى هذا المكان إذ لم تكن التقاليد لتسمح لأمثالهم أن يجلسوا في المقاهي ربما تحسبا للعسس الموجودين عادة في تلك الأماكن وربما حرصا على خصوصية الجلسة والتي تمكن للمرء أن يظفر منها بقسط وافر من الراحة والحذر من الاختلاط المخل ، ان التقليد الشائع في المدينة ن يعمد من هم في مثل هذه السن إلى الجلوس في مقصورات المتاجر وعند بعض الحرفيين المشهورين مثل مقصورة علي المبروك في شارع الوادي ومحل الاسطى سالم (قلاريامريوطى) وبيوت فندق الزهر وغيرها إن معظم الشخصيات المعروفة كانت مرتبطة بأماكن محددة للجلوس المسائى ويمكن لكل من يسـ أن يعثر عليها بكل يسر حين يتم التخلص من المسؤولية ود ة الحياة القاسية .

على أن شارع البيضاء وإن يكن أحدث الملتقيات من الناحية التاريخية فقد كان أكثرها حضورا وازدحاما وحيوية من البقية ، صحيح أن البداية كانت متواضعة باعتبارها انطلقت من مجموعة كانت تعرف بعضها من بنغازي والمرج كما أن آخرين كانوا يحضرون من باب القرابة لكن انتخابات 56وما نتج عنها

جعلت لقاءات المكان تكتسب بعداً آخر .

كما أن المناقشات ذاتها أخذت تنحو منحى مختلفا فلم تعد اللقاءات تتم لتمضية ساعات الفراغ والتسلية والتخلص من المسؤولية بل إن الفراغ نفسه غدا يستهلك قضايا أكبر ويتسع لحضور أكثر شمولا واشتباكا مع معركة الحياة من حيث المستوى المعاشي والمصلحى وتناقضات الإدارة ومظالمها المتعددة وتداخلاتها اللامحدودة فالضابط الذي خقل من قوة دفاع برقة بعد أن شق عصا الطاعة على القبيلة بما يشبه الابعاد لا يمكنه أن يتخلى بالكامل عما يجرى هناك من أمور لاتروقه ولا يرضى بها هو ومن في حكم تركيبته الاجتماعية ورؤيته الفكرية بل لابد له من أن يتابع وأن يتحدث للناس تجاه ما يجرى بل إنه حتى ولو حاول الابتعاد فإن الذين تركهم لايمكن أن يظلوا صامتين ولهذا فهم لايتركون التردد ولايترك هو التحدث عن تلك الأوضاع المتخلفة بالرغم من علاقة الابن الصالح الجيدة مع بعض الرموز كقوة دفاع برقة والتي تعود إلى سنوات الشباب الأولى كما أن الإداري الذي أخرجه الصراع القبلي من المديرية ولم يحقق طموحه في الوصول إلى منصب الناظر بالولاية وذهب بالتالي إلى مجال النفط سيكون بدون شك شديد النقد لكل ما تركه خلفة وبالذات حين يكون عمله في مجال العلاقات العامة وعلى قدر واسع من الاتصال بالناس والاستماع إلى آرائهم وتوجهاتهم وكلما أمعن الآخرون في قصر الفرص على ذويهم

فإن جهده في إطار توسيع دائرة النقد إن لم نقل السخط سيكون أكثر فاعلية وإسهاما والشاعر الذي جمع إلى نصه الشعري العمل في مجال القانون ومن أكبر هيأة قضائية في البلاد لابد له وهو الشاب المتوثب والمؤهل المتحمس من ان يدلي بدلوه في أمور كثيرة لعل أهمها المخالفات الإدارية التي ترتكب والتعسف الدائم في استعمال السلطة على أن يتحمس أكثر فأكثر حين يجد من يناقشه في قضايا الشعر والادب والادباء والثقافة والمذاهب الفكرية وأشكال الصراع السياسي والفكري والذي يملأ الحياة وسبق له ان عاشه بمصر فاذا مأأنس في أحد الحاضرين القيام بنشاط ما كان احتفاؤه أكثر وإقباله على تنمية العلاقة أوكد واظهر .

على أن الحاج بن رجب يبدو في الغالب صاحب رسالة حضارية مهمة وحامل رسالة خطيرة فهو بالدرجة الأولى نذر نفسه للتخفيف من الحساسية التي طالما ملأت المنطقة وافسدت حياة الناس وعطلت نموهم وكدرت صفاءهم ردحا طويلا من الزمن فقد دأب على إثراء الحوار وإحاطة الملتقى بمزيد الفاعلية وقد عبر عن موقفه هذا بالحديث عن التاريخ غير المكتوب للمدينة التي حل بها مع مطلع القرن وعاصر العديد من أجداد الذين كانوا يملأون الحياة يومئذ وهو لايغادر صغيرة ولا كبيرة ابتداء من السلوك ووصولا إلى الموقف السياسي .

ويستحيل تأسيسا على ذلك أن تجد أحدا غير معروف عند

هذا الرجل وهو لايتردد في التذكير بأسماء الذين لم ينالوا حقهم من التقدير وكذلك فضح الذين أخذوا ماليس لهم ولايرى غضاضة في التصريح بما انتاب بعض مواقف حياته من سلبيات وهو على كل حال لايدعي البطولة .

ومن الممكن أن يذكر مشجعه بمواقف أحمد الصغير عبدالصمد الجيدة من الناس طيلة عمله في الأمن الايطالي والإنجليزي على السواء وهى مواقف انقذت عديد الرجال في سنوات كان فيها الموت بالمجان والأمر نفسه بالنسبة لحسونه باشا كما أنه من جهة أخرى يتحدث بصراحة لاتخلو من تجرد عن التاريخ الحديث والملابسات التي رافقت العمل السياسي عقب الحرب العالمية الثانية والتي بلغت أوجهها بإنبعاث المؤتمر الوطني والحاج لا يجد غضاضة في القول ان توجيهها قد صدر عند عودة أبرز الوجوه الوطنية من الوالى الإنجليزي بلاكلى بضرورة الاقتراب من الرجل والعمل معه وأنه تأسيسا على ذلك ارتبط بالرجل ولم يقدم استقالته حتى عندما استقال غيره وأنه عندما كسب الناس جميعا قرر ان يعمل بمفرده فكانت المجابهة الإنجليزية التي قضت على كل شئ ودون أى مجهود يذكر انه يبدو في احيان كثيرة سجلا مفتوحا يمكن قراءته على مرأى ومسمع من الناس جميعا وعبر دقائق تسرى من دون أى تأثير لهوى النفس ومزاجها وقد ساعده على ذلك ما تهيأ له من الشجاعة والقدرة على نقد الذات كلما تبين له خلل ما في

مواقفه وبالتالي فهو لايتحرج من إدانة أى موقف يرى أنه جدير بالادانة وقد يحدث أن تقول بعض الصحف إن الحاج بصدد طباعة مذكراته فيسأله المتفرجون ويكون رده الذي لايمله :

- ان لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب

وهو بذات القدر من الفلسفة يدافع عن ممارسات أخرى قد لا تكون مدعاة لسرور بعض من لايقدرون ظروفه أو لايدركون عمق تجربته وهو يحتكم إلى رصيد من الشعر العربى القديم ابتداء من زهير ابن أبى سلمى إلى نصوص أخرى كثيرة تسوغ له مايريد ان ينهجه ان الرجل لايلقى الكلام على عواهنه ولاهو بالذي يهمه أن يقول أي كلام وإنما هو ذلك الذي يجيد الحوار ويجيد أن يعطى الجلسة طعمها والمستمعين ما يحبون أن يستمعوا كل ذلك مالم تكن له رسائل يحب لها أن تصل .

كان النشاط النفطي يومئذ قد طرق الواقع الليبي وغدا يستهوي أعدادا كبيرة من رجال الأعمال وصارت بعض أخلاقياته تطل على الناس وتطبع ألوانا شتى من سلوكيات حياتهم إذ لم يكن ثمة من عيب في الاتجار بأى شئ ولو كان هذا الاتجار في قوة عرق الناس أو تمويتهم او أى شئ يتصل بهم فالمطلوب عند عالم النفط خدمات محددة وليس أسلوب عمل .

المطلوب أن يكون هناك شخص واحد يتحمل مسؤولية خدمة مالايهم أن تكون هذه الخدمة لاتحتاج لجهود العشرات أو حتى المئات ولآلاف ، والمطلوب كذلك أن توفر سلعة من السلع

ربما تكون غذاء لآلاف العمال من الصباح حتى المساء لقاء آلاف الجنيهات تسلم لذلك الرجل ويحقق من ورائها أضعافا مضاعفة من الكسب فتلك هى الفلسفة مالم يكن الربح فاحشا فلن يكون المردود متقنا مالم يكن الزمن طويلا فلن تكون الخدمة مرضية وكان ذلك السلوك غريبا ويثير الاشمئزاز بالنسبة للعقلية الليبية وعلى الأخص الفئات المستنيرة وتلك التي امتلكت وسيلة التعبير أو لديها من النشاط الاجتماعي مالها فقد كان المجتمع الليبي بكرا بكل ما في الكلمة من معنى حتى إن الترافع أمام المحاكم عن الشركات ضد الأفراد بات في حكم التخلي عن العمل الوطني ربما كان هذا الفهم موغلا في الخيال أو مسرفا في التطرف إذ الأصل في التقاضى أن يكون للطرفين من يترافع وأن الترافع مالم يتم من قبل القانوني الليبي فسيكون بمثابة إعطاء المجال لغير الليبي لكن هذا الواقع كان موجودا وكان الحديث عن مثل هذه القضايا بمثابة اليومي الذي يطرح دائما هناك وفي إطار متابعة ما يمكن أن بوضع في حساب ما يمكن وضعه من بين أشكال التفريط بالمصلحة العامة وعدم الالتفات إلى السؤال الوطني .

إن المكان لم يعد مجرد ملتقى لعدد من الرجال الذين يقضون ساعات فراغهم وليس صاحبه مجرد بائع للسجائر ولكنه تحول إلى نقطة انطلاق لما يمكن وصفه بالنشاط السياسي ابتداء من تلك السنة الخامسة من الخمسينات 56 عندما أكمل

مجلس النواب مدته الدستورية وتم اجراء الانتخابات وفيما كان ثمة حوار طويل بين أبناء المدينة الصغيرة حول الموقف الذي ينبغي أن يتخذوه والمرشح الذي يجب أن يتم الوقوف إلى جانبه في المعركة بعد ان تقرر أن تكون المنطقة دائرة لما لها وذلك عندما تلكأ المرشح التقليدي في إعلان رغبته وحاول أن يعطي الفرصة لعنصر آخر دون استئذان من الذين وقفوا إلى جانبه أكثر من مرة وفيما كان البعض يستعد لتقديم صفحة تقوم على التفكير في مناقشة القضايا المطروحة ومشاريع القوانين التي يمكن أن تطرح وفي إطار التنسيق مع أطراف أخرى مؤثرة وكانت قد رحبت كثيرا بذلك التوجه-ورأت فيه دليلا على عمق التفكير وقوة الوعي والاستعداد وإذا بالابن الصالح يمتطى إحدى السيارات ويقدم إلى المنطقة معلنا عن رغبته في خوض المعركة .. كان واضحا أن المخطط يستهدف كثرة الاسماء وتفجير المنطقة بالاختلاف عل ذلك يسمح بالعودة إلى طرح الموضوع مرة أخرى وإلى حيث البداية وراهن البعض على أن الطرف الاساسي يخطط بهذه الكيفية لكن الأمور لم تسر وفق هذا المخطط وإنما أخذت منحى أكثر امتلاء بالمفارقات فقد انسحب الجميع كل لظروفه الخاصة ولم يبق سوى أحد العناصر المغمورة الذي أمكن التخلص منه .

كانت السياسة المقررة منطلقة من الحد من الاقتراع ما أمكن وكان المسح السياسي أو الأمني إن شئنا قد انتهي إلى حقيقة

مفادها أن التطرف الذي يوجب التدخل السافر غير موجود وأن العقلية التي تقود إلى ظهور عنصر متطرف وقادر على جلب المصاعب للحكومة غير متوفرة وغدت بالتالي لعبة الطعون هي المخرج الوحيد لكي يتحقق التوجه الرامي إلى الحد من الاقتراع وما يجره من مصاريف النقل والإعاشة وعلاوات رجال الامن وأشياء أخرى كثيرة يصعب على المرء ان يدعو إليها حين يكون واقع المتقدمين بهذه الكيفية ومستواهم العقلي على هذا النحو فأصبح الابن الصالح نائبا محترما وذلك فيما يشبه الحلم الذي لايصدق والخيال الذي يتجاوز الواقع لقد تم كل شئ بدون جهد يذكر وبدون مصاريف يمكن أن تزعج المرء باستثناء الاتفاق الذي أبرم مع إحدى المناطق وبسعي من الحاج بن رجب دون غيره حيث اتفق على ان يكون تلك الدورة من نصيب الابن الصالح ومنطقته والدورة التي تليها من نصيب الفريق الآخر على أن هذه العضوية كانت تعنى من البداية أن الابن الصالح لايستطيع أن يتقدم إلى موقع أكبر كما لم يكن منتظر امنه أن يلعب دورا مهما في المجلس فضالة التكوين الثقافي وانعدام القدرة على تحقيق أي تطور في هذا المجال والسلوك المتمثل في كثرة الحديث لايشكل من الايجابيات شيئاً مذكورا ولا املا كبيرا اللهم الا المزيد من اتساع العلاقات .

كيفما كان الحال فلم يعد الابن الصالح مجرد بائع للسجائر بالجملة يتعيش على عمولة تقدر باثنين ونصف في المائة ولم يعد

مكانه أيضا مجرد متجر صغير لهذا النشاط المتواضع فلقد أصبح عضوا بمجلس النواب وقد زاد من مكانته بدون شك العلاقة الوطيدة التي نشأت مع الحاج مفتاح الذي ترأس أهم لجان ذلك المجلس والذي كان والحق يقال يتوفر على شخصية نادرة وذات خبرة وطيدة بالمدينة وأحوالها ومواقف العديد من رجالها فضلا عن مناطق أخرى كثيرة وهذه الخبرة نشأت من عمله المبكر في السلك العسكري الإيطالي ثم انتقاله إلى الجمارك زمن الإدارة البريطانية فتكونت له معرفة واسعة بالمتهربين من القانون والمتاجرين بكل شئ وهو العمل الذي بقى فيه أيضا إلى أن استلم مكانه هذا و ذلك من خلال الموازنات القائمة والخط الذي لعب دوره عن طريق هذا الرجل تتدفق كل المعلومات وتصوب كل الاخطاء وتكشف أوراق كثيرة ربما قال آراءه صراحة وربما عن طريق التلميح الذي لايصل إليه سوى من خبر الأمور وتفقه في الإشارات وتوصل إلى معرفة الشفرة الخفية التي كثير اما يعمد إليها ذلك الرجل المتقد ذكاء على أنه لم يكن عدوانيا ولا فظا غليظ القلب ولكن فقط يرفض التحايل ويضيق ذرعا بكل قول غير صحيح خاصة عندما يتعلق الأمر بمسؤول يتملقه القوم أو منحرف متلبس لبوس الوطنية ، كان ثمة مكان على بعد أمتار أطلق عليه وكالة عامة ويومها وصلت معلومات مفادها أن صاحبه على صلة بجهة من الجهات فاقتضى الأمر ان يتجه إلى شئ من التحفظ بالنسبة لامور كثيرة

فأصبحت الإشارة بين الجميع خدمات عامة. خدمات عامة .

يحدث أن يحضر الأستاذ كامل ويختفى أحيانا أخرى خاصة عندما تكون بعض القضايا الحساسة معروضة غير أنه يضطر إلى الحضور كثيرا حين يكون رفيق بطرابلس فالابن الصالح على علاقة وطيدة بشاعر الوطن منذ أن كان في بنغازي وإن يكن المرض قد يضطره في بعض الأحيان الى الغياب. إن المجموعة مغرية للغاية بالنسبة لرفيق فهو يحتاج إلى «خمسة فرفشة» كما يقولون وهنا يستطيع أن يتبسط في الحديث ويتكلم عن جميع هواياته فالمكان على طريق رئيسي والمارة من كل الأجناس يوفرون المجال للشاعر كي يعلق ويعلن عن جميع هواياته وقد كانت الشفرة المستعملة عند مرور أى حسناء هي كلمة (دهشة) كانت في البداية شبه خاصة لكن الترديد جعلها معروفة من الجميع كان البعض لايذهب إلى التصريح بتعليقه بخصوص الجمال نظرا لفوارق السن غير أن هناك من يتجاوز هذه المسألة ويحتكم إلى الأثر المعروف :

- إذا خلوتم فاصبوا

كما أن الحياة تتسع للجميع وهناك من يتشبت بالوقار فيكون وضعه مضحكا للغاية ففي مرحلة من المراحل تنتهى جميع الفوارق لقد كانت أكثر اللقاءات اتساعا من حيث الجلوس والوقت تلك التي تلتئم في فصلي الصيف والخريف خاصة عندما استؤجر البيت الكائن بالناصية لإحدى الشركات

بحيث تحول إلى مكتب وشبه مخزن وأنتهت حساسية السكان وأمكن تأسيسا على ذلك استغلال الفضاء بالكامل لقد كانت الجلسة في اتساع مستمر حتى لقد شملت صاحب الناظور التقليدي الذي كان لفترة طويلة يمر في تبرم من المجموعة وإذابة يحضر في أحيان كثيرة ويقضي الساعات الطويلة جالسا مع المجموعة ومامن سبب دفعه لذلك سوى انه وجد الجلسة فضاء مفتوحا والأحاديث عادية ولامجال للترفع الذي كان يتحسس منه والمتمثل على مايبدو في الشعور الطبقي الأمر الذي لاعلاقة له بحياة الناس في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الكيان .

أصبح الابن الصالح إذن في موقعه الجديد فاكتسب مكانة مرموقة من حيث العنوان والجلساء وترتب على صداقته المتينة للحاج مفتاح قوة لدى البعض كما أثار السخط والحساسية لدى البعض الآخر ، كما كان للورشة الفنية التي اسستها قبل هذه الفترة وزارة المواصلات الاتحادية ضمن لفتة كريمة من السيد عبدالمجيد الذي انتصر للموقع الممتاز كما جاء في التقرير الفني الذي قدم في الخصوص والالتماس الذي وقعه الشيخ المختار شارحا فيه ظروف البلدة وحاجتها إلى مثل هذا المرفق مما جعل سي عبدالمجيد يرجح كفه المكان بالرغم من الجهود التي بذلتها مواصلات الجنوب بضرورة أن يكون مقر الورشة برئاسة الولاية ، شكلت هذه الورشة مجالا واسعا للعمل أخذ يتطور يوما بعد يوم نتيجة التوسع في أعمال الصيانة وزيادة النفقات في مجال

التعيين والخدمات كما أعطى المدير أبوبكر الذي نقل للعمل بالجوازات وهى الجهة المرتبطة ارتباطا وثيقا بالشركات الأجنبية وبمقتضى تنسيق محكم مع مكتب الاستخدام الذي تولى أمره الاستاذ حامد مزيدا من التقل لتحقيق المزيد من فرص التشغيل لأبناء البلدة حتى لقد أصبح من المستحيل أن تجد فردا واحدا بدون مرتب ولم يعد ثمة من يحتاج لان يولى وجهه غير هذه الوجهة كما لو كانت فطرتهم التي فطر الناس عليها .

على أن الامور لاتسير دوما وفق ما يقرر لها الافراد لتمضي في اتجاه الطمائنية الدائمة فمن رحم السرور يولد الحزن ومن التخمة يولد الجوع وتطل المسغبة ومن كل واقع يتفجر واقع آخر فلم يكد الابن الصالح يتبوأ مقعده وتظهر المجموعة كل مشاعر الفرح والسرور بذلك الانتصار دون أى مراعاة للذين تقدموا لخوض المعرضة وعدلوا لسبب أو آخر والذين فشلوا لهذه الوضعية أو تلك حتى أثيرت مسألة التبعية الإدارية مرة أخرى وكان في مقدمة الذين عملوا عليها من المواطنين أولئك الذين فشلوا في المعركة من الخصوم وكذلك الذين كان لهم تصور من التصورات من أبناء البلدة ولم يتمكنوا من فعل أى شئ وكان أن وقع إهمالهم من الفريق المنتصر وعدم الالتفات اليهم بأى حال من الأحوال لقد كانوا في الحقيقة يشكلون عددا مهما من الناس كما وكيفا على السواء فالفريق الذي كان له رأى غير هذا الرأي من أبناء البلدة عددهم كبير والذين كان لهم توجه ما من أبناء

البلدة يكونون كذلك نسبة كبيرة فتشكل منهم تبعا لذلك تحالف موحد بادرت الجهات المعنية بمساعدتهم ودعمهم والتزمت الجهات الأخرى سياسة غض النظر عنهم بدعوى أن المسألة مسألة شعبية ومن له رأى فليعلن ومن لديه رغبة فليسع لها والطريق مفتوح امام الجميع وكان هذا يعني ببساطة شديدة ان الطرفين غير متساويين في العمل والرعاية على السواء وكانت الحسابات العاقلة تقتضى ان تجرى محاولة للالتفاف على الإشكال وأن يعمد إلى استيعاب المجموعة أو حوارها أو محاولة الوصول معها إلى حل ما لكن الذي حدث كان عكس ذلك تماما فقد أهملت هذه الفئة وبدأت رحلة المعارضة غير المحسوبة وغير المدروسة فشكل الابن الصالح وفوده ووقف المؤيدون له وقفة شجاعة ولكن دون تدبر الطبيعة الإشكالية فلقد طرحت القضية يومئذ من منطلق الحقائق التاريخية التي تنطوي على شئ من المشروعية ومن رغبة السكان التي لايمكن التقليل من وجودها أو أهميتها ومن مبدأ المبادلة بين منطقة وأخرى وهى أيضا لاتمانع في ذلك التوجه بل لقد وجد في الدوائر العليا أحد أبنائها الداعين لهذه الفكرة أهلية على أن اشتداد المقاومة الجزائرية وإصرار السلطات الفرنسية على مواصلة الاحتلال وشراسة المقاومة واحتمال أن تكون تحالفات مع بعض مراكز القوى كل ذلك جعل الفكرة تبدو أكثر معقولية وأدعى إلى أقناع أطراف كثيرة بمن فيها سكان المنطقة

الوسطى الذين كان يهمهم أن تلحق المناطق بعضها ببعض غير مكترثين كثيرا بمن تسند إليه مسؤولية الإدارة بل لعلهم على ما كانت تعانيه الإدارة من سوء وتخلف وما يطبع بعض السياسات من اشكال الرعونة والتسلط فإنهم يفضلونها على غيرها من الجهات ، وهذه فكرة لابد من احترامها لدى كل من ينظر للأمور بعقلية واعية فكثيرا ما يقبل المرء واقعا ما على مافيه من تخلف وسوء طالماء وجد داخله من ينظر إليه ولايجهل أصله وفصله ، فخطأ اليوم ، حسب هذا المنطق يمكن أن يتحول إلى صواب الغد ومن كان على علم بك وأساء يمكن أن يعدل من موقفه في أي محطة من المحطات أما الذي لايعرفك من الأساس فلا سبيل إلى التقائك به تحت أي ظرف من الظروف . إن النظرة بهذه الكيفية لاتنطلق من فكرة الدولة بدون شك ولكن هل كانت الدولة قد تأسست وهل كانت في يوم من الأيام متجاوزة للعقلية السائدة .

وفيما كانت الوفود تتوالى على مراكز القرار مبدية رغبتها في تغيير التبعية للمنطقة أو ماسُمى يومئذ بالانضمام ، وكانت الإمكانيات المالية توفر والدعم المعنوي يقدم ، كانت القوى المناوئة تقف وحدها في الميدان . صحيح إنها من هذه الناحية ربما عبرت عن موقف واع إلا أنها من جهة أخرى كانت بمثابة من يتعلق بركب من لايقيم له اي وزن ، وكان من المفروض في الحقيقة أن تلفت هذه المواقف السلبية نظر الفئات الواعية التي

يتقدمها الابن الصالح وألاتمعن في التمسك بتلك التبعية ولكن هذا الأمر لم يحدث وبقي التشبت من جانب واحد ، حتى أن سلطات الولاية لو لم تكن متواطئة لما تخلفت عن اتخاذ بعض التدابير تجاه كل الذين حملوا تلك الوجهة المعادية بالضرورة لمصالح الولاية .

وقد كان من الواجب أن يراعى ذلك كله قبل المضي في اتخاذ مواقف غير مدروسة مواقف لاصدى لها عند اطراف كثيرة ، فقد كانت مسألة الحدود بين الولايات على مايبدو بعيدة كل البعد عن اهتمام الناس وبالتالي فإن الموقف الذي راهن عليه الابن الصالح وظاهره عليه كل أصحابنا لم يكن مرتكزا على أي أساس موضوعي من حيث التوجه العام ومن حيث الحسابات القائمة عندئذ ولو تم النظر بهذه الكيفية لتجنبت المنطقة وتجنب السائرون في ركب الابن الصالح سلسلة طويلة من الإخفاقات نتجت لمصالح أكبر وأمور أشمل وأعمق .

ومن المؤكد أن السلطة الاتحادية قد رأت من البداية ان الموقف مناقض لامور كثيرة فقدرت بالتالي مواقف وان تاجلت إلا أنها تقررت من هذه الأمور أن الرجل سبق له أن طرح هذه الفكرة بمقتضى رغبة مكتوبة وموقعة وأن هذه الرغبة موثقة ضمن أرشيف السلطة وأمكن العودة إليها لإثبات صفة التناقض وعدم الالتزام بموقف ثابت ، خاصة عندما حدثته نفسه أن يكون ضمن الموصومين بالمعارضة ، ومنها أن الفوز الذي ثم بواسطة

الطعن هو في حقيقة الأمر لايخرج عن إطار المساعدة المقنعة من قبل السلطة وهو أمر لم يخفه أحد الوزراء قبل أن تؤول إليه رئاسة الوزارة حين طلب من الابن الصالح أن يتذكر موقف السلطة منه عندما قدم نفسه لنيل العضوية وهو طلب لايخلو من المعقولية ولايختلف عن واقع الحال إن الحاج مفتاح نفسه اختلى به أحد المسؤولين وأطلعه على صور من المراسلات الموجهة إلى بعض الجهات متضمنة الرغبة في تغيير التبعية الإدارية للمنطقة في مرحلة من المراحل والتي ترتفع الأصوات متضمنة معارضتها الآن على أن الأمور سارت بهذه الكيفية رغبة تقابلها رغبة وكتابة تقابلهما كتابة حتى وصل الأمر إلى تشكيل وفدين كبيرين أحدهما مؤيد والآخر معارض ، فوقع الاعتذار عن المقابلة وصودق على قرار اللجنة الذي أوصى بتحقيق الفكرة على أساس المبادلة باعتبار المصلحة العليا فوق كل اعتبار كما أن الناحية الشعبية مغطاة إلى حد كبير ، على أن التقييم الحقيقي للموقف أدى بدون شك إلى ماكان يعانيه الابن الصالح من انعزال عن مجريات الأمور وعجز عن الوصول إلى أي معلومة حقيقية وإن الذين يجلسون إلى ملتقاه صباح مساء لايخرجون عن أمرين ، إما مشاركته في الانعزال أو عدم الإكتراث بهذا الأمر ، أو أنه شخصيا لايعنيهم كثيرا ، صحيح أنهم بمجتمعهم اليومي قد أعطوا المكان ثقلا لاينكر وأنهم كذلك لم يترددوا في تقديم خدمة من الخدمات بمعني أن التغيير

في تلك الفترة لم يطل أحدا في مصلحته إذا ما استثنينا الإدارة المحلية والمحكمة عنصرين متحركين تم إقصاؤهم من المنطقة ، وما عدا ذلك فقد ظلت الأمور حيث هي بل لعل ما تم استحداثه من نقاط عديدة في البوليس وغيرها من الوظائف قد أسهمت في وجود حركة تجارية لابأس بها أفضت بالضرورة إلى فتح عديد المجالات الجديدة ناهيك من ازدهار القائم منها . من الأكيد أن الدورة الاقتصادية بالكامل كانت وقتئذ اخذه في التحسن لكل مناطق البلاد ، إلا أن الذي لاريب فيه أن تغير التبعية الإدارية كان له اثره البين في حركة الحياة العامة والدفع بها نحو آفاق من الازدهار والحركة ، بصرف المنظر عن بعض الهنات التي عبر عنها عدم سعة الصدر التي يحتاج إليها مثل هذا الموقف ، ذلك أن قدرة الناس على المقاومة كانت دائما متوفرة وقادرة على التطور والمواكبة لكل الأحداث ، ومرد ذلك إلى قوة العلاقات بين بعضهم البعض مهما كانت درجاتهم يعيدون النظر في أي شيء أثار غضب الناس باستثناء ذلك الموقف الذي افتعل إزاء لعبة «الشيشباني» التي لم تتجاوز إحياء عادة من العادات الشعبية درج الأطفال عليها منذ آماد بعيدة ، وإذا بها تطرح كنوع من أنواع الخروج على النظام العام والإخلال بالأمن وبالتالي تكليف القوة المتحركة بالتحرك من أقاصي الجنوب ليدعى بعد ذلك أحد الذين لهم خلاف تاريخي بشأن عقار صغير بيع في بداية القرن ورجع ايام الاستعمار الإيطالي وأثير

في أوائل الأربعـــينات وأريد لـه الآن أن يرجع تحت أجـــواء من الإجراءات الاستثنائية ، فاعتبر الرجل المستهدف مسؤولا ووقع بالتـالي وقفـه ومن ثم شـرع في مفـاتحـتـه في الموضـوع وهو وراء القضبان ، وحرر معه محضر وافق بموجبه على البيع ، قصاصا من موقف سابق وإصرارا على تنفيذ المخطط بالكامل ، لقد كان العـقـار لايصلح لشيء ولكن الرغـبـة في تصـفـيـة الحسـابات والإصرار على مبدأ العقوبة هو الذي سوغ الإجراء وشجع على القيام به في الوقت الذي كانت فيه كل الظروف تدعو للتجاوز وتفرض مبدأ غض الطرف .

لقـد اتخـذت هذه الإجراءات القـسـرية بحـضـور عـدد من الأقـارب على هيـأة بيع حـتى يقـفل باب الشكوى حـاضـرا أو مستقبلا على أن الأقارب الذين حضروا كان هدفهم الوصول إلى مصالحة يتم بموجبها طي الصفحة بالكامل ، حتى لاتظل المشكلة وسيلة للابتزاز ومناخا يساعد على تحرك كل من اعتاد أن يسعى بالنميمة وأن يستفيد من الخلاف القائم بين الناس فالمصالحة تتيح فرصة العمل في مجالات أوسع وأنشطة أكبر وعلى الأخص من لهم قدرة على الساهمة في أعمال التجارة والصناعة وشؤون الصيانة وكلها أنشطة فتحت أبوابها في ذلك الزمن الذي بدأت فيه الأحوال الاقتصادية تتحسن والدورة المالية تتحرك ، لقد كانت ثمة بدايات للنشاط الخدمي كالنقل وغيره ولابد لكل من تتطلع نفسه إلى طرق مثل هذه الأبواب من أن

يكون على علاقة جيدة بالسلطة المحلية ، خاصة أن بعض الأعمال تتم بواسطة التكليف .

ويبدو أن إعطاء صورة المبالغة من قبيل إعطاء الأمور حجما أكبر من حجمها الطبيعي ومسافة تبعد عن مسافتها المعقولة لقد كان التجمع كبيرا للغاية ذلك الذي يلتئم كل مساء بشارع البيضاء ومن المؤكد أنه قد وفر قدرا وافرا من الحماية فترة طويلة من الوقت غير أنه من جهة أخرى أثار القلق أيضاً ، على أنه لم يخرج من إطاره ولم يتجاوز التسلية في مرات عديدة وتعليل ذلك أن الابن الصالح لايتوفر على إمكانيات شخصية تتسع لدور أكبر من الدور المتمثل في تجميع عدد من الناس ، كان أكثرهم يقضون أوقات فراغهم ويتخلصون من مشكلا تهم بمنأى عن التكلف والتعب في مواجهة الأمور صحيح أنه قد حاول أن يصبغ نفسه بصبغة المعارض أثناء عضوية المجلس ولكنه فشل في ذلك فشلا ذريعا ، فهو من الناحية الشخصية غير مؤهل وهو من ناحية أخرى مرتبط بواقع المنطقة التي ليس في إمكان المتقدم منها أن يطرق هذه الأبواب فالصفة النيابية يومئذ وعند اولئك القوم ومن في حكمهم لاتخرج عن إطار التكليف بتقديم عديد الخا .نعامة وربما نقول إنه مجرد ضابط اتصال لأولئك المقيمين في الريف والناس والمصالح التي تجد في المدينة ، فهل يستطيع من عليه أن يتصل بالدوائر صباح مساء ليقدم الخدمات أن يدعي لنفسه إمكانية معارضة أي كان ، أليس من

واجبه وهو المطالب بالاستقبال والتوديع وتشغيل من لايعمل ومرافقة من يريد أن يتظلم وتسهيل مهمة كل من يحب التداوي أن يكون على علاقة طيبة بالجهـ.ت التي تتكفل بتوفير هذه الخدمات لأولئك الذين اختاروه ووضعوا بطاقاتهم في صندوقه ؟

إنه في الحقيقة لم ينمّ علاقاته تـ[illegible] ـه الكفاية حتى إنه لم يستطع أن يخطو خطوة واحدة نحو أولئك الذين يسكنون البيت الذي يوجد على بعد خطوات من بيته ويضمّ عددا مـ النواب المنحدرين من الجنوب ولم يفلح في تنسيق أي جهد ولم يوثق علاقته بهم أيّ توثيق فحرم نفسه من تجربة عميقة للغاية وإمكانيات مهمة للتحرك ، إذ لو خطا أي خطوة في اتجاه الاختلاط وتبادل المشورة لوفر على نفسه الكثير من الحسابات الخاطئة فبواسطة هؤلاء كان يمكن أن يدرك أبعاد المعركة التي خاضها ومواطن الخلل التي ينبغي أن يتجنبها وفي النهاية أن يصون نفسه ومن سار في ركبه من مأساة الأخذ على حين غرة .

هناك في الواقع من يعيد الخلل إلى بداية العلاقة بالمدينة حين حل بها في الخمسينيات واستأجر البيت الذي سكنه لأول مرة والذي اتفق مع مالكه على مبلغ اثنى عشر دينار ولكن مالبث أن قدم شكوى إلى لجان البلدية طالبا تقييم الإيجار حيث خفض له إلى ثمانية دنانير ، فاستطاع أن يفوز بأربعة دنانير ولكنه بالمقابل خسر كلمته في المدينة ، فهو قبل كل شيء تاجر

والتاجر الذي يريد أن يكون ذا صيت في التجارة فلا بد أن يحترم كلمته وهو لم يحترم كلمته ومن ثم فرط في أماكن كثيرة إن الذي يدخل من باب الوظيفة يجوز له أن يلجأ إلى الشكوى اما من يدخل من باب التجارة فلايجوز له أن يفعل ولعله لذات السبب لم يستطع أن يحقق تقدما يذكر لاالأن المصاريف كثيرة أو أن الخسائر متتالية بل لضيق عوالم التحرك ، اذ على كثرة ماعرف بالمدينة فقد ظل عالمه الاقتصادي ضيقا للغاية ، على الرغم من أنه قد سلك طريق الكسب من البداية سواء من حيث تحقيق دخول بواسطة الإيجارات أو بواسطة المساهمة في الشركات وجميعها كانت تنتهي بخلافات حادة تصل أحيانا إلى التقاضي أمام المحاكم ، لقد كان موضوع التمويل متاحاً حيث إنه من أوائل الذين أخذوا تسهيلات من بنك روما (مصرف الامة) .

لقد أتاح المكان فرصة نادرة للاحتكاك بعديد العناصر التي تمثل قطاعات مختلفة وجهات متعددة من الوطن : الجبل الأخضر ، الجبل الغربي ، الزاوية بنغازي ، مصراتة كل يتحدث بما لديه ويطرح ما عنده ، وكانت الأحاديث تجمع بين الجد والهزل وإن كانوا في الغالب إلى العام أقرب وبه أحفل وإليه أميل .

لقد أخذت إشكالية الحدود بين الولايات الكثير من وقتهم في فترة الخمسينات وذلك لاعتقادهم ان التعديل يعني تثبيت

هذه الحدود أي الشكل الاتحادي وهو الشكل الذي رفضه الشعب من البداية وبموقف فطري ، ربما حتى بدون إدراك لحقيقته ولظروف الواقع الليبي ذاته ، إن الاعتذار عن مقابلة الوفد المعارض لم تقابل من الجميع بعدم الاكتراث ، بل نظر إليها كنوع من الاستهزاء بإرادة الأغلبية وبالأحرى قطاع مهم من الناس يقضتي الواجب ان ينصت إليهم وإلى مافي جعبتهم .

وعندما وقف الشيخ عبدالرحمن واصفا الإجراء بأنه أمرُ دبر بليل فإن التجاوب مع كلماته كان كبيرا للغاية بالرغم من أن البعض كان يتحفظ على مواقف ذلك الرجل ويرى أنها تتغير بحسب علاقته بالسلطة والموقع الذي يكون فيه ، بمعنى أن آراءه تتلون حسب علاقته بالقرار ، ويبدو أن هذا الحكم كان يصدر عن نزعة متحاملة وعن سطحية في تناول الأمور وسوء تقدير لمواقف الرجل ، ذلك أن أمورا كثيرة حين يستدعي المرء ذاكرته سيدرك أنها من الأفضل لولم تحصل وأن التفكير الهادىء لو وجد لما حدث اللجوء إليها ، ومن الإنصاف أن نقول إن هناك من فكر بهذه الكيفية وطرح الأمور من هذا المنطلق لكن التجاوب لم يكن موجودا إن لم نقل كان منعدما تجاه ذلك الطرح الذي أملاه العقل ودفع به الوعي المبكر والذي لم يستطع أن يفعل شيئا أمام الاندفاع ، لقد كان النفط الذي يوشك أن يتدفق ، وتاكيدات بعض الخبراء العاملين في حقله من عرب وأجانب وبالشركات الأمريكية تحديدا وفي جلسات كثيرة أنه

لن يستخرج من الجنوب والوضع الإداري بهذه الكيفية المتخلفة كل ذلك كان كافيا لمن يعمل فكره الايهدر وقته في معارك لايمكن أن تصمد كثيرا أمام الزمن بمعنى أن الزمن كان والحالة هذه يحمل في شروطه الموضوعية ضرورة الوصول إلى وضع إداري مختلف تمام الاختلاف عما كان سائدا يؤمئذ فهل كنا بعيدين عن ذلك ولم ننتبه من قريب أو بعيد إلى ملامح المستقبل ؟

أبدا ، غير أن تهور البعض حال دون المضي في أي تفكير هادى ، إذ سرعان مايتهم في مثل هذه الظروف كل من يدعو إلى التريث وإعادة النظر بنقيصة التردد والمساومة والاستسلام ، لنداء المصلحة الشخصية إن المزايدة بالشجاعة من أخطر الامراض التي تواجه المجموعات المشتركة في النشاط العام ، حين يكون الاندفاع هو المقياس الوحيد لتوكيد الشجاعة وسلامة الموقف .

كان مصطفى الذي بلغ يؤمئذ سنته التاسعة قد عجز عن الإبصار تماما بسبب اختبال في الشبكية مما استوجب عرضه على أهم طبيب وصل البلاد في ذلك الزمن ، فنصح بعلاجه في الخارج ، وقد رؤى ان تكون الوجهة مصر ، لأن الحديث عن مستشفى قصر العيني كان كثيرا في ذلك الزمن فتوجه الشيخ به إلى هناك مما أتاح فرصة غير مدروسة - للتخلص من الإحراج إزاء التبعية الادارية المتمثلة في إشكالية الحدود ، إنه لم يدبر

ذلك ولم يخطط له ولكن المقادير جاءت به وكان من قبيل دعوة الخير كما يقولون ، فقد اعتاد أن يعف عن الدخول في أي خلافات معلنة بين الناس وأن يكون موقفه في اتجاه التوفيق والنصح وتجميع كل القوى بدلا من الوقوف إلى جانب من الجوانب ولهذا حيل بينه وبين الاشتراك في وفد يعتذر عن استقباله ، وقد سرب احد الأعضاء معلومة فحواها أنه مالم يتخذ الشيخ موقفا من هذه المسألة فسيكون الأعضاء في حل من إثارة موضوع عضويته تبعا لتغير التبعية وقد كان الرد عنيفا تجاه هذه المساومة شعورا بأن لاأحد يستطيع أن يجرأ على إثارة مشروعية عضوية تمت بالتعيين وضمن مجموعة محددة ، كما أن المدة المتبقية لاتسمح بهذه المسألة على الاطلاق . ومن المؤكد انّ السيد الطاهر قد دفع بالأمر في ذات الاتجاه . إن ذلك في منتصف سنة 57 والهيأة الثالثة سيحل موعدها في مطلع السنة القادمة .

لكن مجلس النواب الذي من بين أعضائه الابن الصالح قد أمضى من مدته الدستورية ثمانية عشر شهرا فقط ، مما جعل استشعار الخسارة بخصوص التبعية الإدارية لايكاد يذكر فما تزال صفة الابن الصالح باقية ومن خلالها يستطيع أن يوجه كل التوصيات التي يريد ويحقق المصالح التي يشاء بل لقد سهلت عليه المهمة مواصلة علاقته القديمة حيث بادر بإقامة مأدبة غداء لأهم المسؤولين ولكن من دون تنسيق مع الفاعلين وبمنأي عن

مبدأ الاستشارة فلقد بدأت المصالح في التضارب وهناك من يريد أن يطرق الباب لحسابات خاصة فكان حضور من لديه إشكالية بشأن بيت مصادر يسعى لإرجاعة بعد أن تباطأ في الاتصال بشأنه في فترة سابقة ، واخر لديه إشكالية تتصل بموقع اداري يتطلع اليه وقد حالت دونه في الماضي تفسيرات أخرى والحقيقة ان طبيعة الرجل تتصف بهذه الكيفية قدرة على التكيف مع كل وضع جديد وتطور يحدث والمبررات غالبا ما توجد على أن الاتصال المستمر والوليمة التي إقيمت وأي شيء آخر ، لم تغير في حقيقة الحال من المخطط المعد والذي لم يكن ثمة بدمن اتباعه فالسلطة في تلك الأيام عشائرية وهي في نهاية المطاف تدار بواسطة الأعمام الكبار ، سواء وهم يتحملون المسؤولية مباشرة أو يفرضونها على من دونهم في السن وإن علا الموقع . إن الأعمام الكبار لاثقة لهم ولاقبول لديهم لكل من اتخذ موقفا مضادا ، بل حتى محايدا ، خاصة إذا كان ذلك من ذوي المواقع المعروفة فالشيوخ الكبار لهم عالمهم ولهم مقاييسهم ولهم تشبث صارم بتقديراتهم ولا أحد يستطيع أن يثنيهم عن ذلك وإن يكن ذا سلطة أكبر وهناك أدبيات كثيرة تجسد هذا التصور وتتحدث عنه وبالذات الشعر الشعبي .

- حبيبك إليا صاحب عدوك خانك / وطي النظر واقطع حديث لسانك

تلك هي حكمتهم الخالدة وذلك هو نهجهم الذي ساروا

عليه طوال العصور إلا أنهم يحسبون هذا الحساب لصالحهم وليس لمن يقابلهم فهو عليه ان يتحمل عليه أن يتخلى عن أي علاقة وعليه كذلك أن يقبل بأي علاقة تقام امامه ولو كانت على حسابه ، فمن واجبه أن يثق من واجبه ان يقبل .

وإذا كان الوقت مايزال مبكرا فانه بالنسبة لمجلس الولاية قد أزف موعده ،فلقد كملت المدة بالنسبة لطرابلس واضطر ممثلو غدامس للاستقالة من فزان ، وهكذا شغرت بعض المقاعد وقدمت الأسماء المرشحة للتعيين إلا أنه المفاجأة كانت متمثلة في الشيخ ، اذ أضيف اسمه خلافا لما قدم من الولاية فتأكد يؤمئذ ذلك المسلك الذي يقبل بالحياد الذي فرضه على نفسه وتأكد بالمقابل أن ثمة متغيرات قد حصلت وأن الانتقام المبيت ليس متاحا باستمرار وأن ميزان القوى لن يكون دائما وفق الحسابات القديمة ومع أنهم لم يخفوا امتعاضهم ولم يكتفوا بقبول الأمور على مضض إلا أن الرجل اكتفى بما نال ولم يعمد إلى أي تصعيد آخر فقد كان ثابتا لديه أن هناك من يتكفل بوقف الأمور المتصلة به و يستطيع أن يقول في لحظة من اللحظات لا للانتقام .

وقد أثير في ذلك الزمن مقترح يسعى إلى تقديم خطاب إلى العهد الجديد تحت عنوان شكر وامتنان وتأييد بهدف أن تفتح صفحة جديدة يتخلى كل من الفريقين عن موقفه لكن الثقة قد انتابها شيء من النقص والبياض انتابه شيء من الكدر ، لكن الأغلبية لم تتحمس لهذا التوجه إذ رأت فيه شيئا من التراجع

كما خشيت ان يكون مغامرة غير مأمونة العواقب ، بمعنى أن الخوف كان من أن يتخذ هذا التوجه بمثابة الموافقة المجانية على إجراءات قد لاتكون عادلة لقد كان الموقف منطلقا من التحرز وليس بهدف الحرص على التوتر ، ذلك أن الزمن لم يعدم العلاقات الشخصية بقدر ما هو زمن تأسست فيه الدولة أيا ما كان الرأي فيها وفي أجهزتها وطبيعة مخططاتها كان هناك تصور أن مخطط الانتقام لابد أن ينفذ وأن المسألة مسألة وقت لا اكثر ولا أقل .

إن هذا التصور لم يأت رجما بالغيب وليس هو من قبيل الوحي وانما كان قراءة أملتها طبيعة التعيينات التي حصلت بالنسبة للإدارة والمستشارين وكذلك من بدأت ملامح تهميشهم تطل في وقت مبكر ، صحيح أن الوحدة الادارية قد رفعت من قائمقامية إلى متصرفية كما أن القطاع الزراعي قد تضاعف وزاد عدد العاملين فيه إلى درجة كبيرة ، كما أن التوسع في حركة المواصلات قد تطور هو الآخر إلا أن درجة التوتر قد زادت بشكل ظاهر وعدم الإحساس بالأمن شمل عناصر كثيرة مما جعل تطور النشاط الاقتصادي عاجزا عن إشاعة الفرحة المطلوبة ، ولاغرو فحين ينعدم الأمن وتنقص درجة الاطمئنان فلاشيء يفي ، لاشيء يمكن أن يحظي برضا الناس وسرورهم على أن الذي أثار سخط الناس جميعا واستشاط له غضبهم جميعا ذلك الأجراء المتمثل في الغاء

الدراسة بالمرحلة الثانوية وتوجيه الطلبة الدارسين في تلك المرحلة إلى معهد المعلمين إذ لم يكن الرأي القائل بأن المنطقة تحتاج إلى مدرسين قبل غيرهم بالذي يبرر مثل هذا التصرف ، وما حدث كان في اتجاه الحد من تجمع الطلبة قبل أي شيء آخر ، ولعل الذي جعل هذا الفهم أكثر قبولا لاعند الناس تلك الخطوة التي اتخذت بالغاء القسم الداخلي من المنطقة بالنسبة للمرحلة الإعدادية والاتجاه إلى فتح صفوف قزمية في كل منطقة فقد كان ذلك أيضا في اتجاه تفتيت الجهود والحيلولة دون نشأة جيل متماسك ومتخلص من الحساسيات الجهوية والنزعات العشائرية التي كان التعليم يروج لها بقوة ويسعى لتكريسها بكل السبل والوسائل لعلها تسهم في إطالة عمر تلك السلطة إن حاجة المناطق مجتمعة إلى النمو و العمل على عدم التركيز في مكان واحد هي في الحقيقة من قبيل ما يمكن أن يقال عنه كلمة حق أريد بها باطل فمجموع الطلبة في المنطقة لايصل إلى مائة طالب بأي حال من الأحوال ، فهل من الممكن أن يدعي كائن من يكون أن مثل هذا الرقم يمكن أن يقسم إلى مناطق ثلاث وبالأحرى فصول ثلاثة وأي أعداد من المدرسين وإن تجزأت يمكن أن توفر ، كما أن الغاء الدراسة الثانوية بشكل قسري وتوجيه الطلبة إلى قطاع التعليم بهذه الكيفية أيضا وعدم مراعاة الأمور البديهية كل ذلك لن يحقق المردود المبتغى .

لكن من كان يهمه مثل هذا الأمر من كان يلتفت إلى مايمكن

أن يقـال بصـدد هذه المسـائل ؟ على أن أخطر مـا أفلحت السلطات في تحقيقه وكان جديرا بالالتفات والتوقف ولم يستطع النابهون من القوم أن يعطوه حقه من التدبر ويعملوا على مراعاته وهم يخوضون معاركهم ويحددون مواقفهم ، تلك العلاقة الوثيقة التي تم ترسيخها مع فئات فاعلة في المجتمع الليبي ككل وكانت في تلك الفترة على مستوى التأثير فـه وفي مقدمتها الطلبة الذين كانوا يومئذ يدرسون بمصر ويقومون بأنشطة ثقافية كثيرة وتحرك سياسي لأبأس به كجزء من حركة المجتمع المصري أو لنقل العربي وعلى الأخص عندما ـرضت الاتفاقية الأمريكية وأثيرت مسألة الأحلاف الأجنبية في الوطن العربي وتبنت الثورة المصرية الوليدة سياسة التصدي للنفوذ الاستعماري وكان قد حدث يؤمئذ والطلبة منطلقهم نادي ليبيا بالقاهرة أن شرعت السلطات العليا في مناهضة ذلك التجمع الوطني الثقافي الكبير وذهبت إلى حد قطع المعونة المقررة له فكان أن تصدت سلطات الولاية وأخذت تقدم الدعم المناد ، مما جعل الجنوب يبدو في حكم الراعي الأول للعمل الوطني والنضال القومي المتصدي للاستعمار وأعوانه والأحلاف ودعاتها فشكل ذلك الموقف دعما كبيرا لتلك السلطات وجعل كل محاولة يقوم بها السكان من الأمورالثانوية التي لاتستطيع أن تحظى بأي تعاطف شعبي فاعل .

لقد كان من الممكن أن يتطور ذلك الأمر إلى آفاق أوسع لولا

صراع الطلبة حول عضوية مجلس الإدارة وإصرارهم على إعلان الجهة الممولة للنادي ، مما دفع السلطات إلى حجب المساعدة حتى لاينكشف الأمر أمام السلطات الاتحادية التي لم تكن على وفاق مع الطلبة وناديهم وكان ملحقها الثقافي هناك يقوم بأدوار كثيرة في الخصوص ولم يكن هذا الموقف وحده الذي اتخذ بصدد الطلبة وبصدد القوى السياسية النامية فلقد بادرت سلطات الولاية بالترخيص لعديد المتخرجين الذين حالت بعض الإجراءات أو الاعتبارات أو الحزازات دون الترخيص لهم بمزاولة مهنة المحاماة فقامت تلك السلطات بإعطائهم التراخيص اللازمة وأمكنهم أن يحققوا من تلك النافذة كل طموحاتهم ويتغلبوا على العديد من مناهضيهم والمتسلطين عليهم بحق وبدون حق لقد تحلقت تلك الكوكبة من المؤهلين حول تلك السلطة ووفرت لها واجهة مقبولة إلى حد كبير ساعد عليها بدون شك إهدار المعلومات عما كان يجري بل إن ماكان يجري حتى عندما يثار فإنه لن يفلح في الصمود أمام ذلك البريق الكبير لقد كانت خطوة ذكية للغاية تلك التي تمت في هذا الصدد والتي من الممكن إرجاعها إلى نزعة وطنية مستترة لعلها وجدت مناخها في تلك الممارسات المتمردة نسبيا .على أن القفزة الأكبر تلك التي تمثلت في إصدار صحيفة المنطقة التي أفلحت في استقطاب معظم الأقلام القادرة في ذلك الزمان والتي كانت طوال فترة ما قبل صدور تلك الصحيفةتعاني شيئا من التضييق

والتهميش وإذ بها تجد في ذلك المناخ المتفتح ضالتها المنشوده فتبادر بتقديم ألوان من الإبداع جسدت إلى حد كبير ذلك المستوي الناجح الذي تحقق والذي ما كان يحول دونه سوي ضيق الأفق وعدم الايمان بقدرات الشباب وأصحاب الاتجاهات الوطنية والاقلام التقدمية والقومية ، وقد أدي هذا المناخ إلى تحجيم عديد المحاولات التي حاولت أن تنطلق من إشكاليات الجنوب وتتخد منها مجالا للتحرك وللعمل شبه السري فحين تكون ثم قضايا أكبر تطرح علي مرأى وسمع من الناس فلا مجال لأي محاولة محدودة كي تزدهر وتجد طريقها نحو الجماهير إن هذا لا يعني أن الذين انطلقوا من تلك الصحيفة المثيرة ومن تلك العوالم الرحبة دون ان يلتفتوا إلى واقع تلك المناطق النائية والتي عانت من البؤس ما الله به عليم، فمن أوكد واجبات كل مثقف أو عنصر مستنير أن تكون نظراته الوطنية خاصة وأن يتحرى الوقوع تحت طائلة العموميات التي كثيرا ما تعول على الشعارات الفضفاضة في الوقت الذي لا تتوقف كثيرا أمام مشكلات الواقع المعاش ،لكن هذا التقصير أو القصور لايمكن أن يقلل من الزخم الذي تكون من تلك الحركة ،وكل موازنة منصفة تستطيع أن تحدد مواطن الإيجاب من مواطن الإخفاق علي أن السلطات لم تكن غافلة أو غير مكترثة بما كان يجري ضدها من أنشطة تعتبر محدودة فقد تابعت بكل الطرق واستعانت بأكثر من جهاز وأوفدت أكثر من مرسل

لمتابعة ما حصل ضدها من تحرك فشلت كل الفشل في رصده وفي الإساءة للفاعلين به وفضلا عن الانتباه المتبادل والحذر الشديد فقد كان لنصائح الشرفاءوتوجيههم وكشفهم كل محاولة أثره الكبير في الحيلولة دون نجاح اي مخطط تآمري.

كانت تطورات الحياة كثيرة ولكن النشاط الاقتصادي آخذ في الازدهار وقد غدا في إمكان كل من يتحرك أن يصل إلى ما يريد من حيث المعيشة اليومية ، بالذات في مناطق الدواخل ، حيث مطالب الناس ما تزال أقل وقناعتهم أكبر لكن الذي لاريب فيه أن جذور الانقسام بالنسبة للمنطقة كانت تتعمق يوما بعد يوم وثمة أشياء بات يحضرلها على مهل هي أشياء بدأت بسيطة نسبيا عتاب على عدم المشورة في بعض الامور ضيق من عدم توجيه الدعوة عندما يحل بالبلاد ضيف من الضيوف إلى غير ذلك مما يظهر في كل مجتمع صغير ، لكن المعالجة لم تكن ذكية وغير مقدرة لما كانت تنذر به بعض الأشياء الصغيرة من مخاطر أكبر و من الأكيد أن العبء الأكبر يقع على عاتق الفئة ا‌‌ستنيرة وأن الابن الصالح يتحمل جزءا كبيرا من هذا العمل ، فهو بكل المقاييس لم يستطع الارتفاع إلى مستوى المهمة التي اضطلع بها بصرف النظر عن أولويات الأمور كالبشاشة والكرم والاستعد د لتلبية إي طلب .

لقد كانت إيجابيات جيدة تلك التي تحلم ـه وكانت ذات فاعلية بدون شك تلقاها لكنها لا تأذن بأى تطور فحسن تد بير

الأمور وحفظ السر وعدم التحرز أساسيات ذات بال وذات أثر وهى في الغالب كانت تغيب ومن هنا كان الجسد بمثابة الخشب الذى نقش فيه السوس وأخذ ينخره رويدا رويدا أو في فسحة من الوقت في انتظار اليوم الذى يتم فيه الانقضاض على كل الفريسة وابتلاعها بيسر ومع أن كثيرا من المشاورات كانت تتم واللقاءات اليومية أو شبه اليومية كانت تحصل إلا أن عدم القدرة على التعامل مع الواقع الجديد ومن منطلق التجرد من المصلحة الشخصية من الامور الثابت: والملاحظة لكل من يتتبع الامور بوعي كان معظم الفاعلين قد دخلوا سن الكهولة وغدا أطفالهم يكبرون نسبيا من كان في المدينة صار في حاجة الى الإستقرار ومن كان في الدواخل صار له تفكير آخر طبيعى أن انعدام رأس المال ووجود الطموح الجا مح له تأثيره القوى في حركة البشر وعدم توفر التكوين الاجتماعى الراسخ لابد من أن ينال من الفاعلين وكثيرا ما يدفع بعض التصرفات بالقلق و التردد والبحث المستمر عن المعجزة التى ستأتى وفي الواقع هى لاتأتى فضلا عن ذلك فإن حالة التشرذم والخلط المخل بين الفهم المدنى والواقع العشائيرى كان له تأثيره القوى في تحديد الفاعلية وإلى دفع كل من يتطلع نحو دور أكبر أن يولي وجهه نحو واقع رحب ومجتمع أوسع .

كان الإخوة الممسكون بمقاليد الأمور هناك يعملون بطرق شتى إلى تكتيل القادمين من الشمال والجنوب ناهيك من

سعيهم الدؤوب لحضورهم المستمر وتثبيتهم بواسطة الاصول الثابتة احياناً والمختلفة احيانا اخرى وكان ذلك بدعو الى مزيد من الخوف ومزيد من التفكير كان البعض يلحظ هذا الواقع إلا انه على صعيد الاحتراز والاستعداد او حتى محاولة التحييد عمن هم في حكم الخصم لم يخط خطوة واحدة كان ثمة خضم من الناس يسيرون دوما في اتجاه محدد تختلف مواقع الناس فيه ثمة من يتقدم وثمة من يتأخر بعض الشئ لكنه يسير دوما في اتجاه واحد فإذا ما فكر أحد في تغيير اتجاهه سقط بسرعة شديدة وكان الابن الصالح قادرا بحق على اكتشاف المجموعة التى تتقدم هذا الخضم في كل مرة وتوثيق الصلات معها بكل قوة وكلما تأخر عنصر لهذا السبب أو ذاك أمكن تعويضه بيسر وسهولة من الممكن لأى كان أن ينضم للركب مهما كانت مواقفه السابقة فليس ثمة من مواصفات محدودة سوى تبنى الموقف الرافض لايهم ان كان الدافع ذاتيا أو موضوعيا صدقا أو افتعالا فالأصل في الامور هكذا والرجل هو المكان والعنوان .

10

يتوسط المبنى أجمل شوارع المدينة «طرابلس» وأكثرها جاذبية ، وأشدها حركة وازدحاما من قبل عديد المشاة الذين لايسأمون قطعه جيئة وذهابا ، صباح كل يوم ، كانت الأغلبية من رواده ، باديء ذي بدئ ، تتكون من غير الليبيين ، وتحديداً من الإيطاليين واليهود .

لكن فئات كثيرة من الشباب أخذت تنتزع حقها في المرور والوقوف وحتى الجلوس في بعض المقاهي والمحال العامة ، لقد أضحت فئات كثيرة تحرص على السير في ذلك الشارع وتقف أمام واجهاته التجارية التي شهدت تطورا واضحا في حسن العرض وجمال التنسيق ، حين أخذت تتسربل أجمل الحلل التي برعت في اختيار ألوانها ومعرفة البارعين من حائكيها المهرة ، من الفنيين في تنظيم واجهات محال البيع والشراء واختيار الألوان ، بعض هؤلاء الشباب الذين أصروا على اقتحام الشارع كثيرا ما يعمدون إلى الاحتكاك بالمارات من النساء ، وهو احتكاك يتم لأغراض كثيرة من بينها الضيق من هذا التطور الذي بلغه المجتمع النسوي الأجنبي والتخلف المريع للمرأة الليبية .

قد يعتذر الشاب عن صنيعه المشار إليه بكلمة غير عربية ،

عندما أدرك هذه الحيلة الماكرة التي تتيح له ليس فقط التخلص من الفعل بل وأكثر من ذلك الظفر بكلمة من هذ. الحسناء أو تلك عندما تنطلي عليها الحيلة وتجيب بما معناه لاشيء ، وقد تعمد إلى عدم الرد بعد أن تتميز غيظا فيخفف هو عما في قلبه من ضيق من الفارق الكبير بين مستويين من النساء ، وقد يبلغ بها الغضب مستوى أكبر فتصدر عنها عبارات وقحة وفي جميع الأحوال فإن الحركة المقصودة تحقق هدفا من الأهداف وتفرج عن لحظة من اللحظات .

إن المجتمع صغير ، والخبرة تتناقل حتى بالنسبة لمثل هذا السلوك ، حتى إن المرء كثيرا ما يلحظ ازورارا ملفتا للنظر من قبل بعض الحسان اللاتي خبرن - على مايبدو - سلوك بعض الشباب لقاء كثرة المرور في الغدو والآصال ، عبر ذلك الشارع المزدحم وبالأخص يومي السبت والأحد ، إن مثل هذا الازورار يشكل خيبة أمل بحجم الشارع ويدعو إلى التفكير عند البعض في موقف أشد عنفا .

ومع أن البلدية قد أطلقت على الشارع أكثر من اسم منذ انكشاح الاستعمار الايطالي ، إلا أن التسمية التي ظلت شائعة تلك التي اطلقتها الجماهير عبر التاريخ ، حين دعته بشارع العزيزية ، ربما لأن أهالي العزيزية كانوا يعسكرون به أيام الجهاد ويسلكونه عندما يقفلون راجعين إلى مناطقهم بعد الفراغ من قضاء حاجاتهم اليومية التي يحتاجون إليها من

المدينة .

يعلو المبني مجموعة من المتاجر ، وهو يتكون من طابق واحد ، وقد آلت ملكيته إلى الدولة الليبية ضمن مباني التأمين الاجتماعي بموجب الاتفاقية التي عقدت في الخصوص وكان قبل هذه الفترة مشغولا من الجالية اليهودية التي اتخذت منه في الظاهر نشاطا اجتماعيا رياضيا أطلق عليه نادي «الميكابي» ولكنه في الباطن ، على مايبدو ، كان مركزا للعمل الصهيوني حتى إن جدرانه ظلت تحمل نجمة داوود ، والتي كانت إلى ماقبل اغتصاب فلسطين تدعى شعبيا «خاتم سليمان» بمعنى أن المبنى شهد بدايات النشاط الصهيوني الذي مورس في المدينة بقوة حين لم يكن ثمة من يراقب ومن يتفطن لما كان يجرى من تخريب ويحاك من مؤامرات إنه النشاط الذي بلغ ذروته في تدبير ما دعي بالثورة على اليهود والتي أدت إلى هجرة الاف اليهود إلي فلسطين المحتلة في إطار تنفيذ المؤامرة الاستعمارية وتوفير المبرر لطرد آلاف العرب من هناك ، لتصبح القضية بعد ذلك وبمقتضى تخطيطات كثيرة وتواطؤ غير محدود تتسم بسمة تبادل الطرفين للسكن ، كلما اثيرت مأساة الشعب الفلسطيني ، على اعتبار أن اليهود الذين طردوا من شمال أفريقيا على سبيل المثال كانوا قد حلوا مع العرب المطرودين من الأندلس وأن آخرين مثلهم ممن طرد كان قد جاء قبل ذلك منذ عهد موسى .

لقد خصص المبنى مقرا لمجلس الولاية وهو مجلس تكون أول مرة في السنة الأولى من الاستقلال ، وضم يومئذ عديد العناصر الوطنية الفاعلة ذات الوزن الشعبي حتى إنه شهد أول خلاف قانوني نتج عنه الإسراع بحل ذلك المجلس بطريقة فجة خالفت أصول التشريع الأساسي للدولة الحديثة وهي ماتزال في المهد ، مما أدى إلى تقديم أول طعن دستوري إلى المحكمة العليا باعتبارها الجهة المختصة للنظر في الطعون الدستورية وأقدام هيأة المحكمة على إلغاء قرار الحل وهو القرار الذي قوبل من السلط ليس بالترحيب والامتثال كما تقتضي الأصول وإنما بحل المحكمة العليا ذاتها وتدبير أوقح مظاهرة عرفها التاريخ الحديث ونعني بها تلك التي كان هتافها تسقط العدالة ومن ثم شرع في اختيار مجلس جديد أدى إلى اختفاء معظم الوجوه القادرة التي لم يكن في امكانها من حيث المبدأ أن تخوض المعركة مرة أخرى أو أن السلطة غدت لاتتورع من اتخاذ أي إجراء لردعها ، هكذا عرفت الحياة السياسية الوليدة بالمدينة الهيأة التشريعية الثانية التي شرعت في ملء ملاك ذلك المجلس بعديد العناصر ، بعضهم كان موجودا من البداية وطلب إليه الحضور عقب إعادة تشكيل المجلس وبعضهم جاء بواسطة النقل وبهدف الاستفادة والافادة ، وبعضهم الآخر تم تعيينه بطريقة أو أخرى ، على أنهم جميعا لم يكونوا يشكلون عددا بشريا يذكر بالقياس إلى اهمية المكان وخطورة المهمة ، وهم يمتون بهذه الصلة أو تلك لهذا العضو أو

ذاك ، فوجود أربعين عضوا يمثلون مختلف مناطق البلاد يتعذر معه أن يوجد موظف بالمجلس لايمت بصلة إلى أحدهم .

إن المسئولية بحكم القانون موكلة للرئيس ، يساعده نائب ومقرران ومراقبان في حين يضطلع السكرتير العام بالإشراف على السلك الإداري المتكون هيكليا من الإدارة التشريعية بقسميها المضابط واللجان ، وهي من مشمولات المساعد ، إن جوهر العمل ينحصر في تدوين محاضر الجلسات أو صوغها بالأصح بلغة سهلة إذ إن الاعضاء لايبدون أراءهم باللغة الفصحى ، ولابد أن تصدر من القسم المختص لتعرض بعد ذلك للمصادقة في كل جلسة ويحتكم عد الخلاف إلى المسجل ، أما الجانب الثاني فيتكون من محاضر اللجان وتقاريرها تجاه مايحال إليها من قضايا ومقترحات وأمور عدة بالقوانين والميزانية وغيرها مما يهم المناطق .

وبالرغم من أن الهيأة الثانية قد قامت على أنقاض الهيأة الأولى التي اتسمت بالصراع مع السلطة التنفيذية وهو الصراع الذي انتهى بحل تلك الهيأة ، باعتبار الامر يتصل بشخص الوالي الذي شغل قبل منصبه هذا رئاسة مقاطعة مصراتة واختلف بشدة مع أهلها الذين هم أهله بالضرورة ، عندما تصرف بالانتخابات النيابية بالطريقة التي أدت إلى أعنف الاصطدامات وأشد القلاقل ، الأمر الذي كان له أثره في الموقف الحالي وبالرغم من أن رئاسة الهيأة الثانية قد آلت إلى أحد

العناصر صاحبة الموقف اللين أثناء ذلك الصراع المرير بل والمخزي نسبيا إلى الوالي ، وفقا لما يؤدي إليه عادة كل صراع ينشأ بين طرفين أساسيين من وجود بديل متعاطف ، فقد كان الجو العام الذي ساد الهيأة الجديدة يتسم بالتعاطف مع الهيئة السابقة ومراعاة المنهج الذي اختطه رئيسها وما استطاع أن يسبغه من هيبة على المكان ،لم تستطع قرارات الحل ولاقوات الأمن أن تمحو آثرها من النفوس .

ان الرئيس الجديد ذاته آثر على مايبدو أن يقترب من ذلك الشكل الذي كان سائدا والذي يتحدث عنه بإفاضة أولئك الذين عاصروا التجربة ، وكذلك الذين جاؤا بعدها ونقلت إليهم الصورة الحية ، فغدا يحافظ على عديد الاساليب ويحاول أن يستفيد من حيث قوة الشخصية وبلاغة الكلمة وصلابة الحجة والقدرة على الارتجال والخطابة المؤثرة ، إلا أنه بالمقابل وبواسطة الفطنة والكياسة ، أفلح إلى حد كبير في صون نفسه من الارتباك والتحلي بالفطنة والسيطرة على الموقف معتمدا على ماتوفر له من اللياقة وحسن التصرف والخبرة العملية التي اكتسبها من عمله كتاجر طاف معظم أرجاء الأرض وعاشر صنوفا مختلفة من البشر ، عندما وصل إلى أقاصي الصحراء سيرا على الأقدام أو على ظهور الجمال في تلك الحقبة من الأربعينيات عندما كانوا يقضون الشهور الطويلة متنقلين بين طرابلس وفزان وتشاد مرورا بصحراء القطرون وغيرها ، ناسجا

علاقات إنسانية جيدة مع مستويات متعددة من الناس ، وقد عول في استقطاب معظم العناصر واستيعابها بواسطة الكرم وحسن التصرف والتحلي بفضيلة التواضع الجم التي أحسنها إلى حد كبير ، ولما كان الأعضاء من خارج المدينة فقد كان لهذا الأسلوب أثره الفاعل في كسبهم جميعا ، حتى لقد غدا موضع إجماع من الأغلبية المطلقة ولم تستطع بعض المحاولات أن تنال منه بأي حال من الأحوال ، بل إنها لاتتجاوز مستوي المناورة البسيطة وقد توصف أحيانا بالمساومة قبل أي شيء آخر ، ومن هنا وبالرغم من علاقته الجيدة مع الوالي وتعاونه اللامحدود منذ أن دب الخلاف مع الهيأة السابقة فقد استطاع أن يحفظ نفسه من تقيصة الظهور بمظهر المتهافت وإنما استطاع أن يحفظ توازنه ويضطلع بمسئوليته على نحو معقول للغاية وغير موصوف بالتواطؤ الظاهر .

يساعد الرئيس في مهمته نائب غير متفرغ فتبدو المسؤولية شكلية ، فلا المرض يوفر له فرصة الاضطلاع بمسؤولية الرئاسة ولا الغياب الطويل يتحقق حتى يمكن القيام بهذه المهمة وفقا لنصوص اللائحة والقانون ، حيث تحد المسؤولية المخولة للنائب باختفاء الأصيل ومع ذلك كله فإن الصراع بشأنها لم تضعف حدته ، فبعد أن كانت تمنح تقديرا بدون منافسة غدت أكثر إثارة للتنافس ، فالتوكيلات التجارية ومجالس الإدارات وكثرة المصالح واتساع الرقعة الاقتصادية ضاعف من إقبال الناس على

مثل هذه المواقع لما لها من أثر في إبراز الشخصية وإشهار المنزلة الاجتماعية لقد عرفت البلاد تقاليد جديدة قوامها السعي المستمر نحو الشهرة والرغبة الدائمة في الصفات الرسمية بعد شيوع التقاليد المستحدثة مثل حفلات الاستقبال وغيرها من ممارسات مجتمع رجال الأعمال ووجهاء المجتمع ، إن الشخصية الرئيسية تنحصر في الحقيقة في المسؤول الإداري الأعلى وهو السكرتير العام ، وقد كان الرئيس حازما في اختياره وذلك عندما اقدم على تسميته في اللحظات الأولى لقيام الهيأة الجديدة ، غير متقيد بمبدأ عرض الأمر على هيأة المكتب ، وذلك لمعرفته لحساسية الموقع واستحالة الحصول على ولاء شخص تم اختياره من هيئة سابقة ، وربما رأى في نفسه الأمور لصالحه ، أن يبت في الأمر خشية الإعتراض فتكون المصاعب ويندم حيث لاينفع الندم ، وهو على اي حال لم يختر لهذه الوظيفة رجلا من الشارع وإنما اختار أحد المربين الجيدين الذين تقدموا إلى اماكن معروفة في سلك التفتيش وقد كان على قدر وافر من الفطنة والهدوء ومعالجة عديد المشاكل .

إنها صفات مكنت الرجل من الصمود أمام الزمن وتقلباته الكثيرة على أنه وضع أساسه السليم بما اتسم به من ترفع صارم عن سفاسف الامور ، وسطحيات الأحوال تلك التي تفضي اليها عادة نقيصة الإصغاء للوشاية بدعوى المتابعة ، ومنع الحوافز عن المستخدمين تحت شعار الحرص على المال العام ،

والغلو في ملاحقة الآخرين تحت مبرر الحسم الإداري والحرص على المصلحة العامة ، إنها الممارسات النزاعة للشر تحت اقنعة ما يمكن وصفة بكلمة حق يراد بها باطل إن صح التعبير ، لقد كان عدد المستخدمين في تلك الهيأة لايتجاوز الخمسة عشر شخصاً بمن فيهم الذين يعملون بالاجر اليومي ، كانوا جميعا يشكلون أسرة واحدة بالرغم من اختلاف الأعمار والمشارب والمستويات والمناطق ، فإذا ما عنّ لامرىء أن يلج ذلك المبنى فإن أول المستقبلين سيكون هو الحاج يوسف الذي يتولى مسئولية أمانة مكتب الرئيس ، وقد اضطلع بها الحاج من الهيأة السابقة عندما اختاره لهذه المهمة رئيس تلك الهيأة من باب الوفاء ، باعتبار الحاج من أعمدة الاتحاد المصري الليبي ، ذلك التجمع السياسي العجيب الذي طرح شعار الوحدة بين طرابلس ومصر عندما كان المصير الليبي مطروحا في المحافل الدولية ، وذلك من دون أن يفكر في برقة ، فكان البعض يتندر بأن الوصول إلى مصر سيكون جوا حسب هذا الفهم ، وقد أصدر ذلك التجمع صحيفة اللواء تلك الصحيفة التي برز فيها قلم الاستاذ على عندما كان يوقع باسم (أبوالجرد) قبل أن يصدر صحيفة الليبي فكان أن بادر الأستاذ علي - عندما آلت اليه رئاسة المجلس - بتعيين الحاج على هذه الوظيفة بعد أن قفلت الصحف وعطلت الحياة السياسية ، وفقد الرجل الكثير من موارده ، ومن ثم تم الابقاء عليه الآن من قبل الهيأة الثانية ، ربما لما توفر له من

الصلات ، وربما لمحدودية الوظيفة ، أو معرفة من آل إليهم الأمر لطبيعة الحاج القائمة على الرغبة في التعيش والتعامل مع أي واقع يستجد ، خاصة وأنه قد فقد جزءا كبيرا من أملاكه حين تاقت نفسه لذلك الدور السياسي الذي لم يكن مؤهلا له و لا قادرا عليه .

لقد كان من الممكن أن يفقد الرجل كل أملاكه لولا أن بعضها كان باسم والدته ولم يكن متيسراً له أن يبيعها كما باع غيرها مما كان باسمه الشخصي وهي التي آلت له من أكثر من طريق ،وكذلك الحال بالنسبة لزوجته ، إن الرجل حين يباشر ضيفه بقهوة الصباح التي ربما يكون الوحيد الذي يقدمها وإن يكن لايسأم من الشكوى من ضآلة إيجار تلك البيوت القليلة التي بقيت له وأمكن حفظها من البيع للاعتبارات سالفة الذكر ، فقد أجرت منذ أماد بعيدة ولايمكن أن يزيد في إيجارها حتى ولو خرج السكان فما بالك وهم يشغلونها من سنين طويلة .

فإذا ما شكا أحد من زملائه أزمة السكن الخانقة بادر بالوعد الأكيد أن يسهم في حل هذه المشكلة فيما إذا رحل أحد السكان القدامى وهم جميعا إيطاليون ، ويمضي الزمن ولايرحل أحد ، ويكتشف الزملاء ، أن وعود الحاج أقل من البيوت المطلوبة ، ويبقى الجميع في الانتظار على أن الحاج لايجد غضاضة في البوح بكل همومه التي تواجهه صباح مساء بما في ذلك أمراض الاطفال الكثيرة وتأخر النوم واليقظة والخوف من الظلام ومن

المجهول ، كما انه شديد الخوف من البرد ومن نسمة الهواء البسيط فكلها في نظر تيارات هوائية مخيفة يحرص شديد الحرص على جمال المظهر وحسن الهندام وتشذيب الشارب الهتلري الذي يبدو دائما وكأنه رسم رسما يختلط على سامعه الأمر حين يتحدث عن أبناء عمومته والذين هم أصهاره في ذات الوقت حين يستنكف نهمهم واستمرار سعيهم خلف المال ، حتى ان بعضهم الذي استاجر أكبر فنادق المدينة ، لم يمانع في تقديم المحرمات للزبائن وانه من المستحيل أن يمكن لاحد ن يفرق بين ما هو محلل وما هو محرم ، فلا يعرف المرء هل ما يقوله الرجل من قبيل الحرص على المسألة الدينية أم أن الأمر لايخرج عن إطار الغيرة القاتلة ، التي ربما تصل إلى درجة الحسد وهو بالرغم من عمله الآن في كنف الهيأة الحالية وما يلاقيه من الاحترام من السيد الطاهر إلا أنه شديد الحنين إلى الفترة التي كان الأستاذ علي يقوم فيها بالمسؤولية كرجل يتوفر على شخصية قوية وموقف شجاع ، إلا أنه شديد التطلع إلى ا لان مقدم ممثل المقام السامي إلى القاعدة كلما حلت دورة من دورات المجلس ، كما أنه حين تحل مناسبة من المناسبات تقتضي إرسال برقية إلى ذات المكان ويعهد إليه بتحريرها ، لايجد غضاضة في استعمال اكثر التعبيرات انحطاطا مثل كلمة (خادمكم المطيع المخلص) وهي تعبيرات لم تدخل القاموس السياسي الإمن تحريرات الحاج كما يقول أكثر زملائه وأقرب الناس إليه ،

صحيح أنه من هذه الناحية ربما عبر عن طبيعة المرحلة إلا أن ذلك لايعفيه من مسؤولية المبادرة نحو ذلك الأسلوب المتهافت بأبي حال من الأحوال ، فللمحرر دائماً بصماته التي يمكن أن يتركها كلما عهد إليه بهذه المهمة الخطيرة

بحرص الحاج علي استبقاء أحد زملائه جالسا إلى جانبه كلما اقترب منه لهذا السبب أو ذاك المباشر عبدالله الذي يحرص على الاستشهاد بعديد الأبيات الشعرية التي تدين المحسوبية بعد أن اكتوى بها في ذلك الزمن ، حين وقع التفكير في تعيينه بالاستعلامات ، ثم وقع العدول عن ذلك بسبب الوساطة كما يقول وليس للوثة التي اتضح أنها تعتريه بين الفترة والفترة .

ومع أن الحاج في أعماقه يخشى من ارتفاع اللوثة التي يعاني منها عبد الله إلا أنه لايتردد في الهمس لمن يجلس إلى جانبه ان عبدالله راح ضحية الظروف ، هكذا يحب الحاج أن يطرح الأمور ، فطالما ان عبدالله تقدم المكان وهو من سكان المدينة فلايجوز أن يقدم عليه آخر ورن كان أكثر عقلا واصلح لاستلام المهمة ، وإن كان السبب يدركه الحاج ويخاف من أثره هو شخصيا .

فكل شيء من حق أولئك الذين يسكنون داخل «السور» كما يطلقها الحاج حتى الاعيان الذين ظهروا في الفترة الأخيرة يثيرون الاستغراب وبعضهم مشكوك في أهليتهم ماداموا من

غير سكان الأربع عرصات ، وإن يكن الخال «جهـ ن» يختلف بعض الشيء بل حتى الوجيه القادم من سوف الجين ربما لم يكن من الممكن أن يتبوأ تلك المكانة السامقة في تفكير الحاج لو لم يكن ابن اخته الصادق بك قد صاهره ، لكن المدينة والانتساب اليها والولادة بها ليست وحدها التي توفر أحيانا إلى التشكيك في صحة نسبها وسلامة أصولها حين ترتكب من الافعال مالايروقه ، أو ما يرى غير مشرف من السلوك السياسي تحديد ، حتى إن ذلك كثيرا ما يدفعه إلى تناول السلوك الشخصي على نحو ما يبدى من آراء بصدد مدير إحدى المؤسسات الخيرية الذي اختير عضوا في تلك الايام ، فالبرغم من أن الحاج يدعوه بالسيد إذا ما جاء مكتبه فإنه لاينسى موقفه من مظاهرة سقوط العدالة وما يشاع حول شخصه من ممارسات غير سارة فيقول عنه :

هما هاذو اللي كانوا ورا طرد الطليان الكويسين ! .

وحين تسأل الحاج عن أولئك الطليان الذين ينعتهم «بالكويسين»تراه يمضي في سرد عديد الأسماء التي حاولت أن تتبنى فكرة توحيد الطبقة العاملة وتأسيس النشاط النقابي من الليبيين والإيطاليين على السواء بهدف مواجهة النزعات الفاشية ، ومواجهة أحلام العودة إلى الشعارات التي تبناها مشروع سفورزا وهم تحديدا أصحاب النزعات الاشتراكية الذين كان لهم نشاط سياسي متقدم على زمانة إن الحاج لايقول ذلك

بشكل واضح للغاية ، فهو بطبيعته ينطوي على شيء من التحفظ ولكنه يدرك هذه الحقائق حق قدرها بصرف النظر عن الطريقة التي يتناول بها هذه القضايا والمتحدث مع الحاج والمستمع اليه يكتشف من هذه الأحاديث أن الطربوش وربطة العنق وكل مظاهر الأرستقراطية لاتحول دون نزعة الحب الصادقة التي تملأ قلبه للعمل والعمال ، إن الملاحظ قد لايطمئن كثيرا للحاج حين يراه مقبلا على هذا العمل الهامشي ، ولكن ما يلبث أن يتفاجأ حين يراه يستنكرّ قبوله من ذلك السيد الذي يقبل بتسخير مكانه لخدمة رجال الحاشية خدمة قد لاتتصل بطاعة الله او لنقل راحة الضمير كما يقول هو في معرض تناوله تلك السلوكيات . إن الحاج لايتردد في البوح بأشياء كثيرة تعبر عن تبرمه بتصرفات كثيرة وممارسات أكثر ، فإن خطر للمرء أن يسأل عن مدى تلاؤم هذه الأمور المقترنة مع استقباله الحار لأولئك الذين لايقر وسائلهم ولايحترم سلوكهم كانت الابتسامة العريضة هي الرد الوحيد لهذا الرجل ، على أن الحياة لاتتجدد عند الحاج وكل المعلومات قديمة وكل ما يتصل بالمجتمع مكرر ومعاد ، وعلى ذلك من المستحيل أن يجد من يجلس إليه أي جديد لديه يتجاوز الأمر هذه المدينة وهو متحفظ إلى حد كبيز بشأن الهيأة السابقة اللهم إلا بعض الامور المحدودة ، وبعض المحبة الخاصة للاستاذ علي . . . إن الذي يختلف بصدد هذه الجزئية اختلافا جما هو الشيخ إبراهيم الذي كان عمله

يومئذ هامشيا ، وقد يتبادر إلى الذهن أنه لايفقه شأناً من الشؤون ، والذي حين يمنح الثقة يفضي بصورة صادقة وواعية بما كان يجري في قاعة الجلسة من صراع مرير بشأن عديد القضايا والإشكاليات التي أثيرت والجدل الذي حصل بشأنها والتضارب الذي وقع إزاءها والمواقف المتخاذلة التي وقفها البعض والبطولة التي عمد اليها البعض الآخر والتي أودت بذلك المجلس وهو مايزال في بداية الطريق .

لقد كان وضع الرجل إلى الأجر اليومي أقرب منه إلى الوظيفة وهو بالتالي ينتظر تسوية وضعه والرفع من مستواه الإداري ، إلا أنه لايتخذ من هذه الاحتياجات مبررا لإلغاء عقله أو تشويه الصورة التي كان يرى أنها أكثر تعبيرا عما يتمنى ويحب .إن مكانته بين قومه تبدو متميزة حيث يلحظ المرء ذلك من خلال تردد القاضي السابق والعميد السابق وأعضاء المجالس يتسابقون في المرور عليه بإستمرار ، وإن أحاديثهم عميقة ومطولة وكثيرا ما يعلو اثناءها الكلام منه ومن غيره على السواء فإذا مالوحظ على أحد الزملاء تلاشيا أمام عضو من الأعضاء كانت كلمة الشيخ ابراهيم إن من ليس له مكانة معدودة بين أهله لايستطيع أن يكون شيئاً أمام عضو المجلس ، بل إن الراصد للأمور يلحظ ما يعمد إليه من تلفت مقصود عن بعض العناصر الواثقة حين يكون الخلاف على أشده في المنطقة ، مما يعني أن الرجل لايستشعر الحماية من أحد ، بل إنه يثق كل

الثقة أنه صاحب حق على قومه ومن أوكد واجباتهم أن يقوموا نحوه بما بقومون به من دون أن ينتظروا منه أي تنازل من التنازلات . له إلمام بأوضاع التجربة السابقة على مايبدو من أحاديث بعض أقربائه عنها ،عندما أسروا إليه بكل مالديهم ابتداءً من الطريقة التي يجلس بها الاعضاء عندما استخدمت الرئاسة تجربة اليمين واليسار بالنسبة للموقف من سلطات الولاية ، بحيث طلب من المؤيدين لتلك السلطة أن يجلسوا إلى اليمين والمعارضين لها أن يجلسوا إلى اليسار ، وهو على أي حال يخوض في كل حديث يطرح ويستمع بعناية شديدة لبعض الآراء يتوفر على علاقات جيدة وقوية مع أفراد عشيرته ومعظمهم من الذين يشغلون مواقع مهمة وهو يحرص على التفريق بين مواطنة المنطقة وبين القرابة من الشيخ الأسمر ولديه حجج قوية في الحوار ولكن يفضل في احيان كثيرة الإحجام عن إبداء الرأي مكتفيا بعبارة شعبية موجزة ومعبرة وذات معنى كبير ودال :

– ارداد الجواب عداوة .

ومع أن عددا من الأعضاء يتردد على مكتب الاستاذ مصطفى في إطار حرصهم على تثبيت آرائهم في المحضر ومعالجة أي سهو يقع وتصويب أي خطأ قد يحصل ، فالرجل يظل محدود الحديث والاتصالات على السواء ، فهو لايتجاوز ما يطلب إليه من معالجة وتصحيح وتصويب ولايدخل في أي

حديث جانبي يمكن أن يضعه تحت صفة الفضولي والتي يتحسس منها لدرجة مبالغ فيها .

إن كل هؤلاء الذين يحضرون لايحضرون إلا عند إثارة مايريدون إثارته في الجلسة ، فالإذن بالتصحيح والتصويب وكل ما يتصل بالمحضر من مشمولات السكرتير العام ، ناهيك عن الرئيس والأستاذ مصطفى لايحب أن يوصف بأي صفة تنال من كبريائية كواحد من الجيل الذي يفخر بالانتساب إلى الكتلة الوطنية الحرة ، تلك التي كان شقيقه الأستاذ توفيق أمينها المالي واضطر إلى تسليم مفاتيحها حين تخلى الأعضاء عن تسديد اشتراكاتهم ووقع العجز عن تسديد الإيجار ، إنها الكتلة التي طرحت النظام الجمهوري شكلا للحكم عند تقرير المصير الوطني ، والتي كانت أسرة الرجل في مقدمة الأسر التي ناضلت من أجل غرس مطلبها والدعوة لخياراتها والتي انتهت بتخلي الناس بدرجة لاتقل عن مضايقة النظام وهو شديد الحزن على الجهد السياسي والإجماع الشعبي الذي أهدرته بعض القيادات السياسية في الترويج للنظام الملكي ، لديه قناعة أن المدينة التي تشكل الأغلبية والمكانة الجغرافية والسياسية ، لو تشبثت بموقفها عند طرح القضية الليبية بالمحافل الدولية وأصرت على ذلك لما وقع ما وقع ولما كان لأحد أن يفرض النظام الملكي وهو يذهب إلى أكثر من ذلك فيقول باستمرار ولايتزحرح قيد أنملة : !

ان المشكلة ياصاحبي أولا وأخيرا مشكلة الناس الذين يعتقدون أن طريق العمل السياسي سهل وخال من المصاعب وربما تصوروا أنه مفروش بالرياحين في حين أنه طوال الزمن طريق لايعرف صاحبه الراحة ولايمل من مواجهة المصاعب ، الوطني الحقيقي هو ذلك الذي يطرب حين يواجه هذه المصاعب ويرى أنه لم يخلق إلا لذلك فكيف تكون البطولة وكيف يكون الخلود في التاريخ لو قبل الجميع بما يجري ، الرجال الحقيقيون هم الذين يفضلون «السجن على القبول بما يرفضون بما ينال من مستقبلهم ويعطل قطار تقدمهم .

لولا المشقة ساء الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتّال

فإذا ما تحدثت أمامه عن المصاعب أجابك ببساطة شديدة «حج وسلامة مايتلاقوش» يحرص على متابعة جميع الصحف وقراءة كلما يكتب يضيق ضيقا شديدا حين يرى البعض يتحدث عن قضية المرأة وكانه استحدثها من العدم في حين أن التاريخ عرف أسماء خاضت هذه التجربة تجربة الدعوة إلى تحرير المرأة ، وهو يرى أن هذا الجحود جزء من الجحود السياسي الذي بدأ يتكون .

بذات القدر وربما على درجة أكثر تراه يواجه موضوع الحديث عن الأعلام الذي طرح في تلك الفترة وكأنه يأتي لاول مرة مع انه يعود إلى الثلاثينيات بأقل تقدير يوم أن بدأ مثقفو تلك

الفترة يتحدثون عن أسماء كثيرة مثل ابن الأجدابي والنائب وابن غليون وشخصيات أخرى . فتلك المعالجات ، حسب هذا الفهم شكلت البداية ، فضلا عن أنها عبرت عن موقف أكثر دلالة ، فالثلاثينات هي فترة إيطاليا ، وفترة طرح مشاريع الجنسية الإيطالية ولهذا فإن الذين رفعوا هذه الشعارات كانوا يردون على ذلك التوجه إن من ينظر إلى الأمر بسطحية يظن أن الهدف هو الترويج لرموز الكتلة لكن المسألة أبعد من ذلك ، فالهوى وإن وجد لاينال من الحقيقة والحقيقة تؤكد أن كتابات الأستاذ علي الفقيه حسن «مؤسس الكتلة» في الثلاثينيات تعتبر الجهد الأول الذي بذل في سبيل التعريف بالاعلام الليبيين ولاتضاهيها الاتلك التي نهضن بها الاستاذ الطاهر الزاوي في المهجر المصري ، ان حوار الرجل حين يتأمله من يقرأ أو يراجع يقف من خلاله على حقيقة مفادها أن ماكتب بعد ذلك لم يضف أي جديد سوى الضجة اللفظية .

إنه يقول لك حين تقترب منه - إن قوما يجردون من سبقهم بهذه الكيفية من جهود لم تعد تتطلع لأي كلمة منصفة لايمكن للمرء أن ينتظر منهم وفاء أكبر ولا عملا أنفع كل ذلك يأتي عبر متابعة وحديث وقراءات لكتابات فاحت منها رائحة التلوث وادعاء البطولة والتأسيس والريادة على حين أنها لم تكن كذلك ، إن الهدوء طبيعة ظاهرة في سلوك الرجل لكنه يتلاشى عند الحديث عن هذه القضايا المملوءة بالدلالات .

ومع أن طبيعة عمل الأستاذ عبداللطيف أن يكون على صلة بجميع الأعضاء باعتباره يتولى المسؤولية التحريرية بالكامل والتي تشمل الإدارة التشريعية التي يضطلع بهابالإضافة إلى مساعدة السكرتير العام ، فإن الحذر هو الصفة الغالبة في ذلك الرجل ربما لما يلاحظه من البون الشاسع بين الرئاسة السابقة التي اضطلع بمهنته عبر طريقها وشق طريقه نحو التطور من خلال إعداد محاضرها والرئاسة الحالية التي تتحسس منه ولم تقفل أمامه أي مجال من مجالات التكوين وربما لانشغاله بحفظ القرآن الكريم الذي أصر على أن يستظهره وإتقان أحكامه ورسمه معتمدا على نفسه وبواسطة المصحف بالذات وربما لأنه كان يحب أن يكون نفسه تكوينا ثقافيا ينزع المنزع الديني وهو منزع كان موضع تحسس من الشارع العربي منذ أن حصلت محاولة اغتيال الرئيس عبد الناصر عن طريق الجماعات الدينية المصرية ، عقب إعلان اتفاقية الجلاء الانجليزية التي أبرمت في تلك السنوات ورأت بعض القوى الوطنية أنها لم تكن منصفة وقد تكون هذه الاعتبارات مجتمعة كانت وراء ذلك الإنزواء الذي اتصف به الاستاذ عبداللطيف فالرجل جاد في تكوين نفسه مجتهد في مواصلة تحصيله والحوار بالرغم مما يوفره من الفاعلية فإنه من جهة أخرى كثيرا مايتسبب في إحداث البلبلة وسوء الفهم إلى غير ذلك مما ينتج عن القيل والقال وتضارب المصالح وتداخل الأشياء .

كانت الحياة العامة آخذة في التحرك والخيوط المكونة للثقافة الوطنية تغزل نسيجها يوما بعد يوم ولاسيما حين يعود الطلبة الدارسون بالخارج والذين كان لبعضهم نشاطهم وتحركهم ومظاهر طموحهم وبعضهم الآخر تعويلهم الكبير على القوى الثقافية من أمثال الاستاذ عبداللطيف الذي كان يرتبط بأمتن العلاقات مع بعض هؤلاء الطلبة ولعله لذلك كله يتحلى بذلك القدر الهائل من الحذر غير أنه يعوض عن ذلك بالحديث عن مستوى الصياغة بالنسبة لتقارير اللجان ومقترحات الأعضاء وان كان دائماً بفضل البقاء بعيدا عن الاضواء وقد خفف عليه بدون شك مجيء الاستاذ عبدالعزيز الذي اجتاز باقتدار مسابقات التعيين المتصلة باللجان ، ثم ما لبث أن كلف بالعمل في قسم المضابط وهي أكثر إرهاقا. لقد كان الرجل على قدر كبير من الكفاءة ويبذل جهدا مضنيا في إعداد تقارير اللجان بما فيها تلك التي تحتاج إلى شيء من التخصص أو ما يطلق عليه مايعرف بالمواضيع الخاصة والتي يحتاج اعداد بعضها إلى دراية متميزة ، فكان الرجل يعدها على أفضل الوجوه ، حتى إن بعض الاعضاء المختصين في المسائل القانونية ممن لهم اتجاهات سياسية معروفة وثقافات فكرية غير خافية لم يخفوا إعجابهم بذلك المستوى من التحرير ، فكرة ولغة وتنسيقاً .

كان العمل بالقسم يتكون من مهمات ثلاث : محضر يحمل ملاحظات الأعضاء حول المواضيع المعروضة وتقرير يحمل رأي

اللجنة ومقترحات الحل ، ثم تدوين يدوي لكل من التقرير والمحضر في سجل خاص بمعنى أن المحضر والتقرير يحتاجان إلى قدرة المحرر ، في حين تحتاج المهمة الاخيرة إلى الصبر على التدوين ، إن هذه المهمة الأخيرة بما فيها من ثقل ورتابة فإنها من جهة أخرى توفر مجالا للاطلاع والدربة .

لقد فرض وجود الشيخ عبدالعزيز وكفاءته والمنزلة التي حظي بها ضرورة مواصلة التحصيل والاستعداد لهذه المهمة ، وقد تزامن ذلك مع فراغ الهيأة النيابية الأولى من طبع محاضر تلك الهيأة بالإضافة إلى الجمعية التاسيسية ، كما طبعت في ذات الفترة محاضر الهيأة التشريعية الأولى ، فزودت مكتبة المجلس التي تأسست في ذلك الزمن بمجموعات من كل هذه المراجع والكتب السياسية والأدبية والاجتماعية المتعة بما كان يطرح في الواقع الثقافي من قضايا ناهيك من الثقافة العامة والمراجع القانونية ، وقد جرى انتقاء تلك الكتب بواسطة لجنة مختصة من القاهرة وبعقلية تهدف إلى رفع مستوى الوعي وتوسيع المدارك وإعطاء الفرصة للاطلاع على مختلف المناهج والمذاهب ، باعتبار أن الذين سيقرأون قد تجاوزوا مرحلة التاثر الساذج وأصبحت لديهم المقدرة على التمييز بين مايمكن أن يفهم ويرفع من مستواهم وما عساه أن يفعل غير ذلك ، مما أتاح الفرصة لوضع مشروع للقراءة الواسعة والواعية إلى تكوين فكرة عن كل شيء .

لقد كانت هذه القراءة منطلقة من مجموعة المحاضر التي وجدت ، وفي مقدمتها محاضر الجمعية الوطنية التي شكلت عقب إعلان هيأة الامم المتحدة لتقرير مصير ليبيا على أساس الاستقلال والتي تولت مسؤولية وضع الدستور تحت إشراف هيأة الامم المتحدة ، لقد شكلت تلك الجمعية بواقع عشرين عضوا من كل ولاية كخطوة نهائية لتكريس النظام الاتحادي وهي الخطوة التي بدأت بتشكيل لجنة الواحد والعشرين التي مثلت فيها الولايات بواقع سبعة أعضاء من كل اقليم ، ومع أن عمل الجمعية الوطنية قد شابه الكثير من سوء الظن وعدم الثقة حين تم ضمن إقرار النظام الاتحادي ، وهو موقف له مايبرره إذ حين تقرر الأمور بمنأى عن الخيار الشعبي فإن عدم الثقة وسوء الظن تكون بمثابة البديل المنطقي ، على الرغم من أن طبيعة العمل ذاته قد لاتكون كذلك ، ويبدو أن ذلك ما حصل بالنسبة لأعمال الجمعية كما عبرت عنها تلك الوثائق الموجودة في المحاضر ، فهذه الوثائق تشهد وتواكب ما بذل من جهد وما أعطي من آراء بناءة في سبيل وضع الأسس الأولى للنظام السياسي الذي حضر له يومئذ وبالتحديد من خلال التشريع الذي يحدد الصلاحيات ويبين الواجبات وكذلك الحقوق ، ومن المفارقات العجيبة ومن خلال متابعة النقاش تتأكد حقيقة مفادها أن اكثر الناس رفضا من قبل الشارع كانوا في حقيقة الأمر أكثرهم تمسكا بالحفاظ على الأسس العلمية لبناء الدولة الحديثة

، وأن اكثرهم قبولا في الشارع الليبي كانوا أكثر استسهالا فيما ينتقص حقوق الشعب ، ولعل اكثر العناصر تجسيدا لهذه الحقيقة هو الأستاذ المنيريرشان الذي كان قبل أن يتولى مسؤولية السكرتير العام لهذه الجمعية رئيسا لتحرير جريدة طرابلس الغرب ، وسكرتيرا لحزب الاستقلال الذي تبني الدعوة إلى النظام الاتحادي وعمل على فرضه بالرغم من رفض الجماهير القاطع لذلك النظام ، فلقد أفلح الرجل في التفريق بين الموافقة على مشروع النظام الاتحادي كخيار لامحيص منه بحكم الموازنات الدولية والظروف المؤثرة ، وبين العمل على الاستفادة من المتاح وتحقيق الحد الأدنى من المطالب الضرورية على الأقل وهو حد قد يتبادر لذوي النظرة المتعجلة أنه غير ذي بال ولكنه بقليل من التدبر لايبد وكذلك .. هذا الأمر يبدو جليا في الأسس العامة للدستور وهو الركيزة الأساسية لنظام الحكم والفيصل الذي ينظم العلاقة بين السلطة التشريعية من جهة والتنفيذية من جهة أخرى ، وقد استثمر الرجل كل قدراته وحنكته في الحد من صلاحيات الملك وإعطاء السلطة كلها في المجال التنفيذي لمجلس الوزراء في حين بذل المستحيل لضمان حق الرقابة لمجلس الأمة ، بمعنى أن الرجل كان منتبها كل الانتباه لمخاطر السلطة المطلقة ، فلا مانع من القبول بالمطروح سياسيا ولكن لابد من التقييد والحد من التوسع في الصلاحيات وكان ذلك أقصى مايمكن فعله في ذلك الزمن ، بل إنه لووقع التوقف

عنده بذات المستوى من التفكير الذي تحرك به الرجل لتحقق ماهو أكثر من ذلك ، ومن المؤسف أن كثيرا من العناصر التي كان لها بريق في الشارع الليبي لم تلتفت إلى ما التفت إليه هذا الرجل الناضج في حين كانت ثمة عناصر أخرى تسير في الاتجاه المضاد حين راهنت على التوسع في تلك السلطات وذلك من أجل الحفاظ على مصالح جهوية محدودة ، جرى الترويج لها بطرق شتى ومحاولات يائسة ومناورات لاتخفى على كل ذي بصيرة كالمحاولة التي جرت للإبقاء على الإمارة الجهوية والتي دافع عنها بضراوة شديدة عدد غير قليل من المتعلمين من الذين كان لبعضهم حضورهم الحسن في الشارع الليبي ، ومع ذلك فقد صمد لذلك التوجه هذا الرجل دون غيره واستطاع بقوة الحجة والاستماتة في الدفاع أن يدحض الكثير من المحاولات حتى انتهى الأمر إلى صيغة حدتّ من هذا التوجه ولم تعطه أي شيء من مبتغاه ، لقد كان هذا العنصر المستنير أكثر قدرة على خدمة الكيان الوطني الوليد وصونه من عوامل التحلل من خلال التشريعات الوليدة أكثر بكثير مما كان يدعيه أصحاب التوجهات الوحدوية الذين لم يستطيعوا الانتباه إلى خطورة ما كان يتهدد النظام لولا وجود هذا العنصر المتطور ، وذلك هو الفرق بين من يعول في خدمة وطنه على الشعارات الرنانة وبين من يذهب إلى أساس بناء الدولة الحديثة فيسهم في وضع المباديء العامة للتشريع وينتبهِ إلى الثغرات التي تتهدد في

الغـالب كل مـشـروع وطنـي يتـرك لـلأهواء ولـذوي النـظرات السطحية .

إن المناقشـات التي جـرت في تلك الجـمعيـة كـمـا حـفظتـهـا مـحـاضـر الجلسـات تثبت بجـلاء أن المسـافة كـانت بعـيـدة بين العناصر المنتسبة لقوة سياسية يفترض أنها تمثل الخيار الوطني ، وعجزت نتيجة السطحية عن النهوض بالدور المطلوب منها ، فقام به ذلك العنصر منفردا وهو المحسوب على قوى أخرى ولاشك ان هذه الوثائق هي التي جعلت من الأحكام الشائعة التي انطلقت من الشعارات ومن المظاهر دون غيرها تفقد فاعليتها على بعض العقول التي عهدت إلى بناء أحكامها بمنأي عن المطلقات وعن النظرات المسبقة .

وإذا كـانت المحاضـر قـد اتسـمت بالتـركـيـز الشـديد والدقـة الظاهرة شأنها شأن محاضر الهيأة التشريعية الأولى التي اعطت صـورة دقـيـقـة عـن طبـيـعـة الصـراع الذي دار في أول مـجـلس تشريعي تجاه بعض القضايا القانونية ، فإن ذلك لاينفي ان ما أثير في الهيأة الأولى قد عبر عن معان كثيرة ودلالات عميقة يستطيع كل من يفحص المسائل بعلمية أن يكتشف من خلالها الكثير والكثير وربما استطاع أن يصل إلى الخيوط التي تربطها بعوالم أخرى وتيارات كانت تتحرك في الوطن العربي وقوى سياسية كانت تنمو وتشير إلى أكثر من معنى من المعاني ، لقد كانت القوى السياسية التقليدية تتحرك في كل أرجاء الوطن

العربي في اتجاه توكيد الممارسة الديمقراطية والحد من فكرة إطلاقية السلطة التي سعت إلى تكريسها بعض الدوائر العربية، تحت شعارات كثيرة أبرزها الفكرة القائمة على تنزيه شخصية الحاكم واعتباره ممثلا للعناية الإلهية في الأرض مرة تحت مقولة ولاية الأمر ، وأخرى تحت فكرة شرف الانتساب إلى البيت الطاهر .

ومن هنا فإن ما أثير بصدد مسؤولية الوالي في أول هيئة تشريعية محلية ، لم يكن في حقيقة الأمر موجها إلى الوالي في حد ذاته ، بقدر ما كان بداية إلى تقييد سلطات الحاكم وعلى رأسها أعلى سلطة في البلد ، ومن ثمة فإن الحديث عن الوالي ليس إلاَّمن قبيل التلميح إلى ماهو أكبر من ذلك وأشمل فهو إذن مايمكن وصفه بالمسكوت عنه في ذلك الخطاب ، ولذلك فإن موقف أكبر المؤهلين القانونيين في ذلك الحوار والذي كان يدفع باتجاه عدم مساءلة الوالي ، إنما كان تعبيرا عن غربة بعض المثقفين وعن انفصالهم عن واقع الحياة السياسية وما كان يسود فيها من حوار عميق حول عديد الشؤون والشجون ، لقد كانت الأجيال المتكونة محليا في واقع الأمر اكثر إدراكا لما كان ينتظر هذا الواقع الوليد من إشكالات ، إذ كانوا يفرقون بين منصب زائل يمكن للمرء أن يبلغه بطريقة أو أخرى وبين نظام عام يتصل بالمجتمع ككل ومبدأ الضمانات التي يعول عليها في صون الحقوق وتبيان الواجبات ، وتحديد الجهة التي يمكنها أن تكون

الفيصل واليها يعود ـد المعيار .

لقد كانت الحياة ا ـمية في ذلك المبني تبدو وكأنها ندوة يومية مستمرة سواء حـ مايطرح من مقترحات ويثار من أسئلة تؤدي جميعها إلى ـ ر لايتوقف ووجهات نظر لاتنقطع ، خاصة حين يكون الأمر متصلا بالميزانية العامة ونصيب الولاية في هذه الميزانية ، والـ ـل الذي يؤول إلى الخزانة العامة من موارد الولاية ، حين كاد لينـاء يغطي الجزء الأكبر من الميزانية العامة ، طوال فترة ما قـ ل النفط وهو واقع كان الحديث حوله يثار بصوت عال في أوساط شعبية كثيرة ويصل بطريقة أو أخر ، ى مصادر القرار ، ذلك أن نفقات التنقيب عن النفط لاتـ . إلى الخزانة بشكل مباشر ولكنها تنفق عبر قطاع الخدما في إطار فرص العمل المحد دة حيث يتم التهرب من توريد أي مبلغ للخزانة العامة بالرغم من كثرة الانفاق بالنسبة للحياة العامة ، فالمخطط يستهدف أولا وأخيرا الترويج للاستهلاك والاستهلاك وحده ... إن الحياة الأدبية تطرح هي الأخرى في تلك اللقاءات التي وإن لم ترتب ترتيبا مسبقا إلا أنها كثيرا ما تفضى إلى نتائج مهمة واستنتاجات أكثر أهمية ، بل قد تصل إلى تقديم تحليلات شبه مكتملة وعلى قدر لامجال لإنكاره من الدقة والتفصيل ، فقد يتطرق الحديث مثلا إلى فن القصة وهو الذي أخذ يزدهر يؤمئذ على أعمدة الصحف والمجلات الموجودة ، حين حاولت بعض الأقلام الجديدة أن تقدم

بشأنه تحليلات جيدة وسعت أقلام أخرى إلى أن تتبع طرائق إبداعه بخطوات رائدة عبرت عن ألوان من الصراع الذي تخوضه الجماهير الشعبية وتسعى من خلاله أن تجسد أحلامها في التغيير وتطلعاتها نحو الغد ، ودفاعها الشجاع من حل البقاء ومن أجل المحافظة على الحياة وجعلها أكثر جمالا . بالرغم من عديد المعوقات والمصاعب ودواعي الانشداد نحو الا... ا والأردأ ، ومن الممكن أن يستمع المرء إلى كلمات الاستاذ مصطفى وهو يبدي ملاحظاته رغم أنها شخصية إلا أنها لاتخلو من تلميحات ذكية غاية في دقة المتابعة وبالذات حول بعض النصوص التي تنشر في الصحف مثل : شخصية المواطن (الطرابلسي) كما عرفناه والتقينا به .. تحمل نكهة الحياة كما عشناها وتعبر عن حركة المواطن البسيط حتى وهو يمسح «شلاغمه» بعد ما يأكل .

فإذا ما علق معلق بأن هذه القصص تصور حياة الطبارن «الحانات» أجاب الرجل بسرعة

– هي الحياة مافيها شي هالجو ؟ماهو بونواس كتب اجمل الشعر زمان !

وقد يضيف بهدوء شديد عند الحديث عن الأدب وصورة الأدب

– اسمع ياسيدنا كانا تبي إبداع غمض عينك !

كانت ثمة ندوات تقام في نادي الاتحاد الذي لايبعد عن

المبنى الا بأمتار قليلة ، فضلا عن بعض المهرجانات بثانوية طرابلس وكذلك بعض المحاضرات ، وكان هدف هذه الجهود الرائدة والمبكرة هو الاقتراب من قضايا الواقع المعاش أهمها ندوة «شبابنا بين السلبية والإيجابية» وهي ندوة أمكن بواسطتها إثارة مجموعة من الاشكاليات التي واجهت الحياة العامة أثناء الركود الذي سيطر عليها عقب انبعاث الكيان السياسي الهش الذي قام على انقاض تزييف الإرادة الشعبية وقمع حركة الجماهير التي حاولت أن تخرج يؤمئذ غاضبة ومستنكرة ذلك القمع الجائر الذي تمثل في سجن المئات من الوطنيين ومن ثم محاكمتهم من دون أي استيفاء لشروط المحاكمات كما تنص القوانين وتمليها السوابق المعمول بها في عديد البلدان وإصدار مجموعة من الأحكام القاسية بشأنهم .

لقد كانت أول تجربة سياسية مع العنف بعد جلاء إيطاليا من ليبا وفترة الانفتاح المؤقت الذي اقتضته ظروف تقرير المصير أثناء الإدارة البريطانية ، وهي التي لم يكن في إمكانها أن تحول بين الناس وآرائهم السياسة التي وقع تبنيها عند طرح المصير الليبي في المحافل وخططهم التي رسموها لتقرير هذا المصير حين حاولوا أن يرسموا خططا تتكفل بصون مصالحهم الرامية إلى تحقيق فكرة العودة من النافذة بعد الخروج الظاهري من الباب ، فكان أن اتبعت تلك الخطة الماكرة التي أجلت مهمة التنكيل بالعناصر المشاغبة والخارجة عن بيت الطاعة ليكون التنفيذ من

مـشـمـولات الحكـومـة المؤقـتـة التي أنـيط بهـا تـأسـيس الكـيـان السياسي المرتقب ، وفقا للصيغة المرتبة مع الدوائر الاستعمارية البـريطانيـة والضـالعين معهـا من أهل البلـد ممن وجدت توجـهـات الإنجليز هوى في نفوسهم أو رأوا لابديل لذلك الخيار من الناحية العملية ، أو اتفق كل ذلك مع مصالحهم وما يتوخونه من مردود لقـاء ماقـدموا من أعـمـال ومـا بذلو من جـهـود ، ومـا أعطوا من تنازلات ، الأمـر الذي كـان يسـتـوجب الـعـمل بكل اتجاه من أجل ضمـان سلطة تنفيذية طيعة وأخرى تشريعية محدودة وتقليدية إلى أبعد الحدود .

ولما كانت الأمور لاتسير دائما كما يراد لها بالكامل وطبيعة التطور لابد أن تعبر عن نفسها إمّا على مستوى التلميح الذكي ، أو على مـسـتـوى الـتـصـريح المبـاشـر ، فـقـد تم الـتـعـرض في تلك الندوة إلى أمـور كـثـيـرة رؤي أنهـا تـدخل ضـمـن مـا سـمي يـؤمـئـذ بمظاهر السـلبيـة أو العـلامـات الدَّالة عليـهـا ، ومن بينـهـا قـضـيـة المرأة الليـبيـة من حيث السـفور وتقـاليد الزواج والاتجاه الذي بدأ البـعـض يلجـأ إليـه وهو الزواج بغـيـر الليـبـيـة ، وهي إشكـاليـات تخـتـلف بـصـددها وجـهـات النظر ، وتـتـداخـل الآراء والمشـارب لدرجة يتعذر معها الحسم أحيانا .

كـان هناك من يتبنى الدعـوة إلى السـفور بطـريقة أقل مايقـال عنهـا إنهـا طريقـة عـدوانيـة ومثـيـرة وعـاجـزة عن تقـديم أي شيء مقنع للنـاس وكـان يبدو في تنـاوله قريبـا مما يمكن وصفه بـالهوس

وقد ضاعف من مشاعر المجايلين له المختلفين معه ما أثبته من عجز عن تقديم أي مصداقية لمايقول ، عندما غادر العزوبة إلى الزواج ، ولم يستطع أن يطبق أفكارة على تلك التي تزوج منها .

وكان هناك من يرى أن الحل يمكن أن يحصر في اختياره و في الاتجاه نحو المرأة العربية وترك الليبية تعيش ظروفها المتمثلة في الحجاب وفي غلاء المهور بدعوى أن الاتجاهات العربية تتيح له هذا التوجه وأن القومية لاتؤمن بالحدود إلى غير هذه الآراء التي ضجت بها القاعة عندما ارتفع صوت الأستاذ عبداللطيف ، منبها أن الإسلام ليس ضد السفور بالشكل الذي يصون الحياة ، فوجه المرأة ليس عورة ويداها ليستا عورة ، والنظر اليها بغرض الزواج نص عليه في الحديث فلاداعي إذن إلى إلقاء التبعة على الدين بالنسبة لتخلف المرأة ، كما أن إرتفاع المهور لاصلة له بالإسلام ، فلقد زوج الرسول الكريم أحد اصحابه امرأة بما يحفظ من كتاب الله فكل شيء يمكن أن يستخرج منه مايحمي المرأة الليبية من أن تترك للبوار وتهجر إلى غيرها وهي الأقرب وهي الأجدر بالرعاية .

كان خليفة يدير الحوار بقدرة جيدة ويحدد الموضوعات ويشير إلى مواطن التجاوز والخروج عن الموضوع بإجادة فائقة ، لم يكن سريع الحديث ، ولم يكن صاحب عبارات عاطفية ولايبدو منه أي لون من الوان الحماس ، كان مثل عبداللطيف تماما يتحدث في هدوء وإن يكن قد عامله هو الآخر بشيء من

الحزم عندما أخذ من الوقت ماتجاوز المقرر ، تماما مثلما فعل مع فريد حين أثار السفور ومصطفى عندما أراد أن يتخذ من القومية العربية متكأ لتمرير وجهة نظره ، كانوا جميعا متقاربين في السن وتبدو العلاقة بينهم جيدة ويبدو أن الهمّ العام يجمعهم ، كان هناك عبدالرحمن وعبدالمجيد والدكتور محمود ، كان من الصعب أن تضبط كل الآراء وأن تختزل منسوبه لذويها لكن الذي انتهى إليه الحوار وخلص إليه النقاش أن حركة المجتمع مرتبطة ببعضها البعض وأن كل خطوة في اتجاه الحل لابد أن تخفف بالرغم من أنها قد تخلق مشكلات جديدة ، وما ثبت يومئذ أن قضية المرأة لايمكن أن تحل بقرار يصدره حاكم أو أب بقدر ما هي جزء لايتجزأ من حركة المجتمع وكلما غدت هذه المرأة شريكا حقيقيا في الحياة من حيث العمل ومن حيث المصير كلما أصبح مظهرها المعترض عليه شكليا إلى أبعد الحدود ، على أن الكلمات كانت توجه مباشرة إلى ماكان يسود القاعة من تيارات فكرية ولكن بعيدا عن التسفيه المخل بالشرف أو التعريض المحرج وحدها مسألة الزواج بغير الليبية كانت مستهجنة من الجميع وبالذات في التعليقات التي جرت بعد انتهاء الندوة والتي تشير إلى حالات خاصة على أن الحوار كان مسؤولا وبناء وتقديم الدليل الحي على كثير من المتحدثين وهم يردون على تلك الدعوة .

- اللي يشبح قمح الناس مايبددش شعيره .

وفي خلاصة هذه الآراء ومن حوصلتها جميعا تبدو مفاهيم أخرى ترى أن الزواج على سبيل المثال خيار شخصي وليس من حق أحد أن يتدخل فيه أو يحدد مساره فهو دائماً بداية أسرة تتكون من شريكين وكلما وجد هذان الشريكان وقررا بناء «عش الزوجية» عن قناعة فلابد من الأخذ بيدهما ولابد من وجود الفرص التي تتيح السير في هذا الاتجاه لابد أن يضطلع المجتمع بتقديم التسهيلات الضرورية المتصلة باحتياجات الحياة القائمة على فكرة لا إفراط ولاتفريط ومن الضروري أن تكون هناك فرص تساعد الشاب على بناء البيئة ومن بنت البلد تحديدا ، وهكذا وبالرغم من التصفيق الذي علا القاعة حين استشهد مصطفى بعصر الوحدة العربية والقومية العربية ، فإن الحديث مالبث أن عاد إلى الهدوء وإلى التفكير الرزين ، واخذت العودة تتضح أكثر فأكثر عندما جعل اللقاء اليومي عقب انتهاء الندوة ومن خلال المتابعة التي نشرتها جريدة (طرابلس) وفي قائمة مكتب اللجنة : فاتضح أن الدفاع عن التوجه إن كان من قبيل الالتفات نحو حالات خاصة وخيارات شخصية املتها الظروف والتوجهات أو المصالح أو الأحوال المعيشية فهي آراء لاتصدر عن نظرة شمولية ذات تحليل نظري واضح بقدر ما تندرج في إطار التبرير المشوب بمبدأ الدفاع عن النفس ، لقد كان الأستاذ مصطفى من الذين يدركون الكثير عن واقع الحياة وعن خلفيات الجيل وملابساته الحياتية مما يحتاج إليه كل من

تتوق نفسه إلى ولوج باب الحياة الثقافية وممارسات الأسماء التي تملأ الساحة كتابة وحركة ونشاطا ، فلا شيء يحتاج اليه من يحبذ الاقتراب من هذه العوالم مثل الوقوف على الخلفيات التي تسند كل ممارسة ، والأرضية الاجتماعية التي تنطلق منها كل وجهة نظره فالمرء بحسب هذا التصور يحتاج أن يضع تحت بصره بيت أبي نواس الشهير :

«فقل لمن يدعي في العلم فلسفة / فهمت شيئا وغابت عنك أشياء»

لقد كان هناك تناغم جميل بين التفكير في قضايا الواقع والمسائل الأدبية والسياسية ناهيك من قضايا القانون التي نشط الحديث عنها بمناسبة موسم المحاضرات الذي اضطلع به جهاز اطلق عليه مركز الدراسات القانونية ، أوكلت مهمته إلى أبرز رجال القانون المصري هو الدكتور محمود القاضي ، ذلك الموسم الذي خصص للقانون المدني وأن يتيح الثقافة القانونية من خلال مدرج المحاضرات وهكذا أخرجت لأول مرة مشكلات القانون من عزلة المحاكم إلى دنيا الناس وحياتهم اليومية فتأسس مفهوم مفاده أن الثقافة القانونية يمكن أن تشاع وأن المبادئ العامة أو التوجهات لأي تشريع لابد أن تصدر من الناس فيما تكون مسائل الصياغة من اختصاص المؤهلين وأصحاب الخبرة .

ويبد وأن الرجل قد استشعر فداحة الخطأ الذي وقع فيه حين سخر كفاءته العلمية للدفاع عن عدم مسؤولية الوالي سواء

بصفته الشخصية كممثل للولاية أو الاعتبارية «ناظر عدل» فقرر بمجرد أن أستلم مسؤوليته القانونية الكبرى في وزارة العدل أن يلتفت إلى هذه الناحية وأن يتبنى فكرة إشاعة الثقافة القانونية إنطلاقا من القانون المدني ووصولا إلى الفقه الدستوري الأمر الذي كان له أثره الواضح في رفع مستوى عديد العاملين في حقل القضاء عن طريق الخبرة - مما جعل الطريق يسهل أمامهم للعمل في سلك المحاماة بواسطة المعادلة ، لقد كان المجال يحتاج إلى البشر والأطر ناقصة إلى حد كبير ، مما سهل مهمة أعداد كثيرة اتجهت إلى هذا المجال الحيوي وعملت فيه باقتدار ملحوظ .

ومن المؤكد أن هذا التوجه هو الذي ساعد في وقت لاحق على طرح الكثير من قضايا القانون وإشكاليات الدستور بما فيها المتصل بأمور أكثر حساسية ، مثل ضرورة النص على توقيعات الوزراء في كل المراسيم المتعلقة بشؤون الدولة ، الأمر الذي جعل مسألة العصمة التي كان البعض يدعو اليها لاتصمد امام هذا الجدل الفقهي ، وتعطيلها بالتالي. كل توجه نحو الانفراد بالأمور التنفيذية ، كما أن موضوع حرية الرأي التي نص عليها الدستور وأحال تنظيم ممارستها إلى القانون صارت تطرح في بعض المحاورات من وجهة نظر تصر على ضرورة أن يكون القانون متمشيا روحا ونصا مع الدستور وليس كما يسعى البعض لإفراغه من أي محتوى ، أي أن كل نص متعسف

يحمله القانون يعني ببساطة شديدة المخالفة الواضحة للدستور والتعطيل المتعمد لنصوصه .

وبما أن السلطة التنفيذية قد اعتادت في أحيان كثيرة استغلال النص الذي أجاز استصدار بعض القوانين بواسطة المراسيم التي تكتسب قوة القانون وهو مبدأ يعمل به في بعض الأحوال الخاصة فإن الحديث حول هذه الأمور أيضا كان صريحا وكانت الأصوات بصدده أيضا مرتفعة ، كما أن قاعات المجلس ورد هاته وجلسات الفئات العاملة في المجال الإداري تدور أيضا حول هذه المخالفات وتتحدث عنها بإفاضة .

حقا إن مثل هذه المحاورات كانت استمرارا لذلك الجدل الذي عرفته الحياة السياسية في مصر في الفترة الأخيرة من حكم فاروق حين كان مجلس الدولة يرفض قرارات كثيرة ومشاريع قوانين اكثر ، وقد وقع الطعن في دستوريتها ولم يجد مجلس الدولة بُداً من نقضها واضطرت السلطة بالتالي إلى القبول بذلك التقليد ، إلا أن الأمر لم يكن مجرد تقليد بقدر ما كان ثمرة معايشة لتلك الإشكاليات .

ومن الأكيد أن البدايات التي أسس لها الشيخ توفيق من حيث استمراره في طرح مثل هذه المبادئ وغيرها وماتوفر له من قدرة على النقاش واكتشاف نقاط الضعف والثغرات في عديد المشاريع ، كان لذلك كله أثره البارز في تفتح مجموعة الموظفين الذين تأسس منهم المكان على مـــا يملأ النظام الناشيء من

تناقضات كان من الممكن أن تكون معينا جيدا على تنمية روح المقاومة لما بدا يلوح في الأفق من المعاناة والانحراف ، وما يتفشى من مظاهر الفساد والرغبة في النفوذ والثراء المخجل والذي مامن سبيل إلي بلوغه سوى التخلي عما هو أكبر .

إن الخبرة المتوفرة لدى الإنسان تبدو في حالة عدم إثرائها من اليومي والعملي عاجزة عن تحقيق إضافة ضرورية ، وقد تتحول ، مع الزمن إلى شيء من المراوحة في العمل والاجترار في القول.

وإذا كان الاقتراب من سي العيساوي يتيح الإطلال على عوالم التاريخ الفسيحة لما يتمتع به كونه من سعة الاطلاع وجميل الحديث ، ودقة الرواية ، بالرغم من الإحباط الذي طاله نتيجة انقسام العشيرة ، مما استهلك جزءا كبيرا من وقته ، فضلا عما بدت تجره عليه شيخوخته الواضحة وأمراضه المزمنة وحلول السنة الأخيرة من عمر المجلس مما كان يشير إلى ملامح مرحلة جديدة ، كل غدا يواجهها بطريقته الخاصة ، إن هذا الوضع تجلى على نحو خاص في اختيار بديل للمكان الذي خلا بوفاة الشيخ أحمد السني الذي فارق الحياة في تلك الفترة بعد أن تم اختياره عضوا بالشيوخ من قبل المجلس مما جعل المكان شاغرا .

لقد تاقت نفس الشيخ مولود لشغل ذلك المقعد الذي قضى أربعة أخماس المدة المقررة لمجلس الولاية ، ولم يعد باقيا سوى

الخمس الأخير ، فبالرغم من أن الرجل لم يكن مسنودا من أي طرف من الأطراف التي اعتادت أن تكون مؤثرة في القرار ، وبالرغم من أن أكثر من منافس كانوا على صلة بمراكز القوة النافذة ولم يكن بالتالي سوى مادرج على إثارته من قضايا بالمجلس وهى إثارة كانت إلى التحريك أقرب منها إلى تغيير أي شيء مما كان يجري .. فقد تحرك عدد من الأعضاء بالإضافة إلى الموظفين في كتلة واحدة رافضين عديد المحاولات مترفعين عن كل المغريات رافضين مختلف الضغوط من أجل أن تكون خاتمة أعمال المجلس في الاتجاه الصحيح المتمثل في إرضاء الضمير وتخصيص المقعد للشيخ مولود ، وعندما أعلنت النتيجة عم الارتياح جميع الحاضرين . بدا ذلك الاختيار وكأنه إكرام لإسرة النادي الأدبي وتقدير للدور الريادي وعلى رأسه الشيخ عبدالسلام الذي حمل البدايات الأولى للنشاط الأدبي انطلاقا من ذلك النادي وبالذات زمن الإدارة البريطانية حين جمع الشيخ عبدالسلام بين الخطابة السياسية والعمل الأدبي على السواء .. كانت الحركة مرصودة بالكامل ، وكان دور كل من يحويه المكان شديد الوضوح لكن الجميع أصبحوا منذ تلك الجلسة تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، فلم يكن بعد ذلك من ملجأ سوى المكتبة ومجموعات مجلة الآداب التي صدرت في تلك الفترة والتي تفننت في طرح أخطر القضايا الثقافية والفكرية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الثقافة العربية ،

عندما انتصرت المحاولات الرائدة التي عملت على ربط الثقافة بالحياة على نحو لم يشهده التاريخ الثقافي قبل هذه الفترة فاختلط النضال من أجل الديمقراطية ودفع مسيرة التحرر الوطني وتحقيق العدالة الاجتماعية وإشاعة الفكر الاشتراكي مع محاولة تجديد القصيدة العربية والخروج بها من الأطر القديمة وترسيخ جذور القصة والرواية كصيغ قادرة على تبليغ مثل هذه التوجهات واعتماد كتابة نقدية تجمع بين التقييم والتحليل بالنسبة للنص مع إضاءة مواطن الجمال امام المتلقي، بحيث تم المضي في تجديد أساليب الكتابة بعيدا عن المناسبات وسيطرتها والإنشاء وزخرفته ، والخطابة وزعيقها .

وكان ذلك كله يحتاج إلى كثير من الجهد وكثير من المداومة، وقبل ذلك كله يحتاج إلى التصميم الحاسم والإرادة القوية والوسط الاجتماعي المساعد .

لقد بات واضحا أن ثمة متغيرات كثيرة قد حصلت وآفاقا أرحب قد فتحت وشملت الناس والحياة سواء بسواء وأن الحركة الاجتماعية آخذة في التحرك وأن النشاط النقابي لم يعد قاصرا على العمال وحدهم كما أن الأندية لم تكن للرياضيين دون سواهم تلك التي أدركت فاعليتها وقدرت جدواها .

شرع بعض العائدين من مصر من شباب ذلك الزمان يتحدثون عن العمال واستحدثت الصحف أركانا عن النشاط النقابي يدعو إليه ويجادل في سبيله كُتّاب بدأت أسماؤهم

تتأكد وأكثر من ذلك فقد صدرت صحيفة اضطلعت بالحديث ع [illegible]طبقة العاملة، أخذت ترد على بعض الأسماء وتفحم بعض الأمور وتحذر من مخاطر يمكن أن تنال من هذه الطبقة وغدا من المستحيل أن يمر يوم لايقرأ المرء فيه جديدا عن نقابة انضمت للاتحاد الوطني وأخرى تحركت في الاتجاه النقيض وأخبار تصل إلى حد الحديث عن اللجوء إلى القوة بين هذه الأطراف مجتمعة كانت الوحدة المصرية السورية قد أعلنت وأحدثت زخما في الشارع الليبي ولقيت تأييدا مطلقا من الجميع لاسيما بعد أن انهار حلف بغداد وسقط نوري السعيد ودخلت القوات الأمريكية لبنان وسط رفض واستنكار من الضمير الإنساني في كل أرجاء المعمورة .

كانت علامات الصراع كثيرة وتبدو واضحة في أكثر من محفل ، وبدت أسئلة كثيرة تطرح نفسها تتجاوز المكان والزمان وتثير أمام القلب المتفتح هموما أكبر ومشاغل أوسع ، وتدعو بقوة إلى البحث عن آفاق أرحب .

التنضيد والرقن الاليكتروني: ادارة التجهيز والطبع بالمؤسسة العامة للصحافة
الطباعة : مطابع الثورة العربية ـ طرابلس